

مختارات من الأدب العالمي للشباب

1984

Nineteen Eighty Four

جورج أورويل

إعداد وتقديم
وفيق صفوت مختار

دار الآداب



جورج أورويل

Nineteen Eighty Four _ 1984

إعداد وتقديم وفيق صفوت مختار. - القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع،
٢٠١٧ .

ص ٣٠٤ : ٢٠ سم.

تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٢٧٧ ٨١٧ ١

١- القصص الإنجليزية

أ- مختار، وفيق صفوت (معد ومقدم)

ب- العنوان

رقم الإيداع: ٢٠١٧ / ١٩٥٣٤

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٢٧٧-٨١٧-١

٨٢٣

تصميم الغلاف الفنان: إبراهيم محمد إبراهيم

● جميع الحقوق محفوظة للناشر ●

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن
كتابي سابق من الناشر، أية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.



للنشر والتوزيع والتصدير

٢٢ شارع أحمد فكري

مدينة نصر- القاهرة

تليفون: ٢٢٥٤٦٢٩٢ (+٢٠٢)

فاكس: ٢٢٥٤٦٢٩٢ (+٢٠٢)

E-mail : info@altalae.com

Web site: www.altalae.com

مقدمة

هذا هو الإصدار السادس من سلسلة الأدب العالمي للشباب، والذي نُقدّمه ونحن على ثقة بأنه سيكون بإذن الله تعالى عملاً متميزاً وفريداً في دقة اختياره، وطريقة عرضه.

لقد قمْتُ بالاطلاع على أغلب الإصدارات العربيّة التي تناولت رواية "1984" للكاتب الإنجليزي الشهير "جورج أورويل" بالترجمة، كي يتسنى تقديم الأجل والأحقّ بالقراءة الممتعة الشائقة. ولقد كانت الترجمات التي تمكنت من العثور عليها قليلة بعض الشيء، إلّا أنّها كانت ترجمات تتسم بالعدوّة والأسلوب الجيد في مجمله.

وكما هو مُعتاد في منهجنا الذي قد ارتضيناه منذ البداية، فقد تخلّصت من الأحداث الغارقة في التفاصيل التي قد لا تخدم العمل الذي نُقدّمه، كما حاولت الابتعاد عن الكلمات الصّعبة التي جاءت في بعض الترجمات على الرغم من قلتها.

وبعد هذه المُعالجات الفنيّة والدراميّة للرواية أرى أنّها أصبحت مُعدة للقراءة السهلة اليسيرة، في عدد صفحات ملائم للغاية، دون أن يؤدي الاختصار إلى أي خللٍ في مسار الأحداث، أو بنيتها الدرامية.

حافظت بالطبع على ما جاء في النّص الأصلي للرواية الذي كان مصدر الرئيس في تقديم هذا العمل، والابتعاد تماماً عن التّصوص التي جاءت منسوخة بشيءٍ من الاختصارات المُخلّة إخلالاً أضر بالعمل الأصلي للرواية.

وبهذا أكون قد انتهجت الفلسفة التي نتبناها في دار الطلائع للطبع والنشر والتوزيع بقيادة الكاتب والناشر الصديق "عبد اللطيف عاشور"، التي تُحتّم

علينا تقديم تلك الأعمال العالمية الفريدة على أعلى مستوى من الكفاءة، والأمانة، والمصداقية، والشفافية، مع العرض الشائق الرشيق للأحداث، وكذلك الحفاظ على المضمون الأصلي للرواية شكلاً ومضموناً، وفقاً للترجمات الأكثر رصانة ومصداقية.

كما أود أن أنوّه بأنّ كافة العناوين الرئيسة لفصول الرواية قد تم وضعها بمعرفتي الشخصية، وذلك لخلق نوع من الجاذبية والإثارة التي لا بدّ منها. كما ابتكرت منهجاً جديداً منذ إعداد وتقديم رواية "ذهب مع الريح" وهو أن نُقدّم بعض الصور التي تخدم النصّ الروائي بشتى الطرق والوسائل، من أجل أن يستمتع القارئ العزيز بأقصى استفادة من العمل الذي نُقدّمه. وسوف نستمر على هذا النهج من التطوير والابتكار كلّما سنحت الفرصة لذلك. كما حاولت في هذه الرواية تحديداً أن أعرج إلى تفسير بعض المصطلحات والمفاهيم التي وردت ضمن سياق الرواية.

وكما هو معتاد مع سائر الروايات التي صدرت من قبل فإنني أقدم تمهيداً يسبق فصول الرواية وأحداثها للكاتب أو الكاتبة أحاول فيه أن أسرد السيرة الذاتية من جهة، والسيرة الأدبية من جهة ثانية، مع تدعيمها بالصور التي تخدم الموضوع بما يُحقّق للقراء متعة إضافية. وكانت هذه السيرة الذاتية والإبداعية للكاتب الإنجليزي الموهوب "جورج أورويل" قد نُشرت من قبل على صفحات مجلة دُبي الثقافية.

خالص الأمنيات بقراءة ممتعة شائقة.

وفيق صفوت مختار

القاهرة، في أبريل 2017

نزهة

مزج «جورج أورويل» George Orwell بين الحسّ السياسي والمُعالجة الجماليّة، وقد نجح في ذلك تمامًا، خاصّةً في روايته «مزرعة الحيوان»، و «1984». وقد كان «أورويل» روائيًّا وناقِدًا وصحافيًّا وكاتب مقال متميز، كلُّ ذلك في روح تهكميّة ساخرة، وبأسلوب سلس دقيق مُحدّد، فالمعنى هو الذي يُحدّد الكلمات التي يختارها، وتفكيره الواضح أدى إلى نجاح كتاباته، وقد ساعده ذلك الأسلوب أن يجعل من الكتابة السياسية فنًّا من الفنون.



جورج أورويل في شبابه

وإذا كان البعض يرى في «أورويل» اشتراكيًّا، أو فوضويًّا، أو مُتمرّدًا ومنقلبًا على الشيوعية، فإننا لا نراه إلا إنسانًا يبحث عن حقيقة الأشياء لا عن أسمائها، إنسانًا ظلت تصدّمه الأكاذيب التي تُحيط بالأيديولوجيات في إطار بحثه عمّا يُحقّق الحرّيّة والمساواة والعدالة للناس جميعًا، بخاصّة أولئك الفقراء البسطاء الذين تزدريهم الأعيان، إنسانًا انقسمت حياته بين رحلاتٍ للغوص في أعماق التجارب هنا وهناك، يعقبها خلوات لتأمّل ما اكتشفه في تلك الرحلات والكتابة

عنها، وهكذا إلى أن عاجله الموت بمرضٍ من أمراض الفقراء في زمانه.

كان يبحث دائمًا عن عالم لا تُمزقه أنياب الجوع ولا يسحق كرامته طغيان الديكتاتورية، فصار بذلك متسقًا مع نفسه، متوحدًا مع آلامه وآماله

مهما تباينت الآراء فيه واختلفت وجهات النظر في تصنيفه.. خالط البؤساء والمُشرّدين وعاش الطبقة العاملة، ومنّ يحيون حياة الكفاف فعرف الجوع وأحس بضراوته فأخذ يُصارعه ويُصارع مَنْ يقفون وراءه ويصنعونه ويباركونه.

* * * *

ولد «إيريك آرثر بلير» Eric Arthur Blair، وهو الاسم الحقيقي لـ «جورج أورويل» الاسم المستعار له والذي اشتهر به، في 25 يونيو 1903 بمدينة «موتيهاري» في ولاية «بيهار» الهندية لأسرةٍ من الطبقة المتوسطة.

والده يُدعى «ريتشارد ويلمسري بلير»، كان يعمل موظفًا صغيرًا في الإدارة المدنية البريطانية بالهند في دائرة الأفيون، وأُمّه تسمى «أيدا ميدا بلير» والتي ترعرعت في «مولمين» بـ «بورما» وكانت ابنة تاجر أخشاب فرنسي بسيط في «بورما». وكان لـ «أورويل» أختان: «مارجوري» التي تكبره بخمس سنوات، و «أفريل» التي تصغره بخمس سنوات. وحينما كان عُمر «أورويل» سنة واحدة نقلته أُمّه إلى إنجلترا.

عندما بلغ «أورويل» عُمر الخامسة أُرسل إلى مدرسة الدير في «هينلي» الواقعة على نهر التايمز، والتي كانت قد انضمت إليها شقيقته «مارجوري». كانت أُمّه تُريد له أن يقوم بتحصيل الدراسة في المدارس الحكومية لكن عائلته لم تكن تستطيع توفير تكاليف المدرسة، وكان يحتاج الحصول على منحة دراسية، وبالفعل حصل عليها ليدرس في مدرسة «سانت قبرص» ابتداء من سبتمبر 1911، وفي هذه المدرسة التقى «أورويل» لأول مرة بـ «سيريل كولوني»، والذي أصبح فيما بعد كاتبًا مشهورًا، ورئيس تحرير مجلة «الأفق».

كتب «أورويل» قصيدتين نشرتا في الجريدة المحلية، وجاء في المرتبة الثانية بعد «كولوني»، وحصل على منحة دراسية في كليتي «ولنجتون»،

و«إيتون». لكن منحة كلية «إيتون» لم تكن تضمن له مكاناً، ولم تكن متوافرة على الفور، فاختار البقاء في مدرسة «سانت قبرص» حتى عام 1916. وفي مايو 1917 درس في كلية «إيتون» حتى ديسمبر عام 1921، حين ترك الدراسة في سن الثامنة عشر والنصف.

تقارير الأداء الأكاديمي لـ«أورويل» أشارت إلى أنه أهمل دراسته الأكاديمية. ولم يكن لوالديه القدرة على تحمّل عبء إرساله إلى جامعة أخرى بدون حصوله على منحة دراسية جديدة، وقد استخلصا من خلال تقاريره الدراسية السيئة أنه لن يكون قادراً على الحصول على منحة جديدة، فقرّرا انخراطه بسلك الشرطة الهندية، وقرّر السفر عام 1922 للعمل في الشرطة الإمبراطورية الهندية، بعد أن اجتاز امتحان القبول.

كان لدى «أورويل» اهتمام مستمر نابغاً من طفولته بالتاريخ الطبيعي. كتب في رسائل من المدرسة عن اليسروع والفراشات، وذكرت «جاسينثا باديكم»، إحدى صديقات طفولته، اهتمامه الشديد بعلم الطيور. وكان أيضاً يستمتع بالصّيد وقصص الأرناب وإجراء التجارب مثل طبخ القنفذ، أو إسقاطه لطائر الغراب من سطح مدرسة «إيتون» لتسريحه. امتد حماسه للتجارب العلمية إلى المتفجّرات، وقد ذكرت أخته «أفريل» تفجيره للحديقة في «ساوث وولد»!!



قرّر «أورويل» أن يذهب إلى «بورما» في عام 1922 ليعمل هناك في «البوليس الإمبراطوري»، فكان سريعاً في تعلّم اللغة، حيث كان قادراً على التحدّث بسلاسة مع الكهنة البورميين بمستوى عالٍ جدّاً من الفصاحة تبعاً للهجة أهل «بورما». وقد كتب «أورويل» رسالة يشرح فيها شعوره

بتأنيب الضمير والذنب تجاه دوره في العمل أورويل وقد كره كافة أشكال الهممنة لصالح البوليس الإمبراطوري. وفي «بورما» قام «أورويل» بتغيير مظهره،

والذي سيلازمه طوال حياته، فقام بتربية شاربه متشبهًا بشوارب أفراد الشرطة البريطانيين المتمركزين هناك. وقام بوضع وشم في كُلِّ مفصل من مفاصل يديه للحماية من الرصاصات ولدغات الأفاعي، كما يعتقد أهل «بورما» حتى وقتنا هذا.

وفي سبتمبر 1927، وأثناء تواجده مع عائلته في الإجازة في إنجلترا قام بإعادة تقييم حياته، حيث قرّر عدم العودة إلى بورما، واستقال من وظيفته في سلك الشرطة الإمبراطورية الهندية، ربما اكتفاء بسنين المغامرة تلك وعودة إلى مسار الكتابة الذي طالما حلم به، أو ربما لإحساسه أنه يدعم بعمله هذا نظامًا لم يعد يؤمن به، وكما عبّر هو فيما بعد في تقريره «الطريق إلى ويجان بير» المنشور عام 1937: «أردت أن أهرب من كُلِّ أشكال هيمنة الإنسان على الإنسان، والبناء الاجتماعي السائد في ظلّ الإدارة الاستعمارية في «بورما» الذي كان أساسه الهيمنة على الآخرين.. ليس فقط البورميين بل أيضًا الإنجليز من الطبقة العاملة». وقد قام بالاستفادة من خبراته في شرطة بورما لكتابة رواية «أيام بورما» Burmese Days التي صدرت في عام 1934.

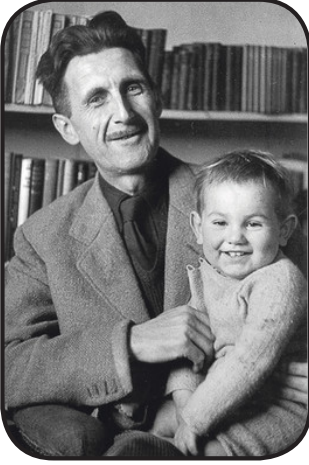
بنهاية عام 1927 انتقل للعيش في لندن حيث مكث «أورويل» عامًا كاملاً يتحسس أولى خطواته مع الكتابة، فقرّر أن يعيش الحياة نفسها التي يحياها الفقراء حتى يتخلص من عقدة النفور الموروثة لدى أبناء الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها من الفقراء، فانتقل للعيش في أحياء لندن الفقيرة، وهو يرتدي ملابس تشبه ملابس المُشردين، وقام بتسجيل خبرته في الحياة الوضيعة ليستخدمها في «المسمار» وهو أوّل مقال منشور له باللغة الإنجليزية.

في ربيع 1928، غادر إلى باريس، وقد عاش في «ريو دو بوت دي فير»، وهو حي تقطنه الطبقة العاملة، وقد كانت عمّته «نيلي ليموزين» التي تعيش أيضًا في باريس داعمة له ماليًا واجتماعيًا. كان يكتب الروايات، ولكنه كان

أكثر نجاحًا كصحفي ونشر مقالاً في «موند»، وهي مجلة سياسية/ أدبية بعنوان: «الرقابة في إنجلترا» وكان ذلك بتاريخ 6 أكتوبر 1928. وبصورةٍ أو بأخرى كان موضوع الفقر هو موضوعه الذي يكتب عنه دائماً وفي أي مكان بهوسٍ.

أصابه المرض في فبراير 1929، فنقل إلى مستشفى «كوشين»، وهو مستشفى مجاني حيث يتدرَّب طلبة الطب. تجربته هناك كانت المرجع لمقاله «كيف يموت الفقراء؟» التي نُشرت في عام 1964. وبعدها بفترةٍ قصيرةٍ سُرق كل ماله من مسكنه. وقد دفعه ذلك من باب الضرورة إلى أن يعمل في وظائف مُتعدِّدة كغسيل الأطباق!!

وفي ديسمبر عام 1929 شرع: «أورويل» في كتابة أوَّل كتبه، وكان تقريراً عن تلك الفترات التي عاشها في كُلِّ من لندن وباريس بين الفقراء، لكن التقرير لم ير النور إلَّا في عام 1933، وجاء بعنوان: «السقوط والخروج في باريس ولندن Down And Out In Paris And London»، واختار «أورويل» أن ينشره باسم مستعار هو «جورج أورويل» (أورويل: اسم لنهر في المنطقة التي ولد فيها)، مُبرِّراً ذلك بأنَّه يُريد التخلُّص من «إيريك آرثر بلير» الطالب القديم في «إتون»، ورجل الشرطة الاستعماري الإنجليزي ليصبح اللَّاطِبقِي، والمُعادي للسلطوية Anti- authoritarian بكافة أشكالها، ووجه «أورويل» كتابه ذلك إلى أعضاء الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها ليروا كيف أنَّ حياتهم التي يستمتعون بها إنَّما وُجدت بفضل ما يُعانيه أناس آخرون، واعتبر أنَّ مهمته إنَّما هي كشف الحقائق المؤلمة التي لا يريد الناس رؤيتها لأسبابٍ متباينةٍ، معتبراً أنَّه يمثل في ذلك الضمير الأخلاقي للإنجليز.



أورويل وابنه بالتبني

أُصيب «أورويل» بالتهاب رئوي نُقل على أثره إلى مستشفى «أوكسبريدج»، حيث اعتقد لفترة أنَّ حياته في خطرٍ. وعندما خرج من المستشفى في يناير عام 1934، عاد إلى «ساوث وولد» للنقاهة بدعم من والديه، ولم يعد لمهنة التدريس بعدها. خاب أمله عندما رفض أحد الناشرين طبع روايته «أيام بورما»، وذلك لأسباب تتعلق بالدعوى المحتملة بتهمة التشهير، ولكن الناشر «هاربرس» كان مستعداً لنشرها في الولايات المتحدة

الأمريكية. وفي هذه الفترة، بدأ «أورويل» العمل على كتابة رواية «ابنة رجل دين»، متطرقاً لحياته كمدرس ولحياته أيضاً في «ساوث وولد».

في يناير من عام 1936 تلقى تفويضاً من «نادي الكُتَّاب اليساري» Left Book Club لفحص أحوال الفقراء والعاطلين عن العمل، فتوجه إلى شمال إنجلترا لفحص أحوال مجتمعات التعدين وعمال المناجم، حيث زار العديد من المنازل ليرى كيف يعيش الناس، ودوّن ملاحظات تفصيلية حول ظروف السكن والأجور، وذهب إلى منجم للفحم، واستخدم المكتبة العامة المحلية ليرى سجلات الصَّحَّة، وتقارير عن ظروف العمل في المناجم. وقام بزيارة سريعة إلى «ليفربول»، وقضى شهر مارس في جنوب «يوركشاير»، مع بعض الوقت في «شيفيلد»، و«بارنسلي».

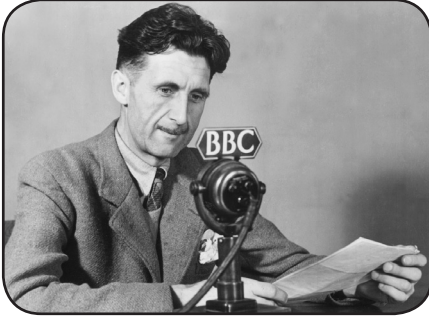
وأعد تقريراً بعنوان «الطريق إلى ويجان بير» The Road to Wigand Pier، والذي نُشر في مارس عام 1937 عن طريق دار نشر تُدعى «نادي الكتاب المتروك». النصف الأول من الكتاب هو عبارة عن توثيق لتحقيقاته

الاجتماعية في «لانكشاير»، «ويوركشاير»، مع وصف مثير للمشاعر لحياة العمل في مناجم الفحم. أمّا النصف الثاني من الكتاب فهو عبارة عن مقال طويل عن بداية وتطوّر حسّه السياسي والذي يتضمّن انتقادات لبعض الجماعات اليسارية. خاف «الناشر» أن يكون هذا الجزء من الكتاب مُهيناً للقراء فأضاف تبرئة في مقدمة الكتاب بينما كان «أورويل» في إسبانيا.

كانت قد بدأت الاضطرابات السياسية في إسبانيا والتي تابع أحداثها «أورويل» عن كثب. وبنهاية عام 1936 قرّر الانضمام إلى الجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية متأثراً بثورة الفاشي «فرانيسكو فرانكو» (1892 - 1975). ثمّ تقابل «أورويل» وعضو حزب العمال المستقل «جون مكير» في مكتبته في «برشلونة» والذي استشهد بقوله: «لقد جئت هنا لأحارب الفاشية». وُجد «أورويل» في بقعةٍ سياسيةٍ ساخنةٍ في «كتالونيا»، فالحكومة الجمهورية مدعومة بعددٍ من الفاشيين ذوي الأهداف المتضاربة بما في ذلك حزب العمال الماركسي الموحد واختصاره بالإسبانية (POUM)، والحزب الاشتراكي الموحد من كتالونيا (جناح من الحزب الشيوعي الإسباني، تدعمه الأسلحة والمساعدات السوفيتية). وكان حزب العمال المستقل مرتبطاً بحزب العمال الماركسي الموحد والذي انضم له «أورويل» لاحقاً.

قضى «أورويل» أياماً في المستشفى لتسّم يده، كما سُرق معظم ممتلكاته في هذه الأثناء من قبل أحد العاملين في المستشفى. ثم عاد إلى الجبهة ليشهد بعض التحركات في هجومٍ ليليٍّ على الخنادق القومية.

وفي إبريل عاد «أورويل» إلى «برشلونة» حيث تواصل مع صديق شيوعي له على علاقة بالمساعدة الطبية الإسبانية، حيث شرح له وضعه وأبدى له رغبته في أن يرسل للجبهة المدرية والانضمام إلى «اللواء الدولي». وعلى الرغم بأنّه لم يفكر كثيراً بالشيوعيين إلّا أنّه كان لا يزال باستطاعته اعتبارهم أصدقاء وحلفاء، وهذا ما سوف ينتهي قريباً.



أورويل في هيئة الإذاعة البريطانية

في التاسع من شهر يونيو عام 1936، تزوّج «أورويل» من «إلين أوشافنسي». وقد عملت منذ عام 1942 مع وزارة الزراعة البريطانية، وعند -اندلاع- الحرب العالمية الثانية، بدأت «إلين» العمل في إدارة الرقابة على المصنفات في لندن. وفي

عام 1944 تبنى «أورويل» طفلاً سماه «ريتشارد بليز هوراشيو»، حيث أقامت العائلة في لندن مع الطفل المُتبني، ممّا دعا «إلين» إلى التخلي عن العمل لرعاية أسرتها. وعندما كان «أورويل» في باريس خضعت «إلين» لعملية جراحية لاستئصال الرحم. قالت «إلين»: «إنّها لم تخبر «أورويل» عن العملية بسبب مخاوفها بشأن التكاليف المالية، كما وإنّها من المتوقع أن تتماثل للشفاء العاجل، ولكنها توفيت في 29 مارس من عام 1945.

في السنة التالية من وفاتها، حاول «أورويل» توظيف مُدبّرة منزل تُدعى «سوزان واتسون» لرعاية ابنه بالتبني. وقد عمل «ريتشارد بليز» موظفًا في الحكومة البريطانية كوكيل زراعي.

بعد عودة «أورويل» إلى الجبهة أُصيب في حنجرته برصاصة قناص، فقد كان نسيبًا أطول من المُحاربين الإسبان، وقد كان حُذر من الوقوف ضدّ حاجز الخندق. كان «أورويل» لا يستطيع الكلام مع النزيف الغزير من فمه، فنُقل على حاملٍ إلى «سيتامو» في سيارة إسعاف، وبعد رحلة وعرة وصل إلى المستشفى في «لاردة». شُفي «أورويل» بما فيه الكفاية ليُرسل إلى «طراغونة» في 27 مايو عام 1937، وبعدها بيومين أرسل مصحة حزب

العمال الماركسي الموحد في ضواحي برشلونة. بالكاد أخطأت الرصاصة شريانه الرئيس لتتركه بصوت يكاد يكون مسموعاً.

تلقي العلاج الكهربائي وأعلن لياقته طبيًا للعودة للخدمة. وبحلول منتصف يونيو تدهور الوضع السياسي في برشلونة. وكان حزب العمال الماركسي الموحد محظوراً وتحت الهجوم، وكان «جورج أورويل» وزوجته التي لحقت به مؤخراً تحت التهديد، لذا حاولا البقاء بعيداً عن الأنظار.

أخيراً، هرب «أورويل» وزوجته بالقطار من إسبانيا متوجهين إلى «بانيول سور مير» لإقامة قصيرة قبل أن يعودا إلى إنجلترا. وفي 13 يوليو عام 1937 رُفعت دعوى قضائية على «أورويل» في محكمة «بلنسية» بتهمة التجسس والخيانة العظمى.

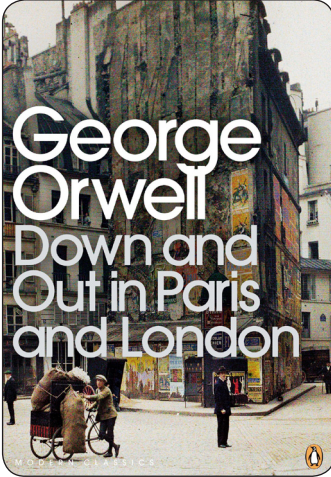
عاد «أورويل» من إسبانيا إلى إنجلترا في يونيو 1937، وسكن في منزل عائلة زوجته، بعد أن شارك في أحداث الحرب الأهلية الدامية، ورأى بعينه مآسي الديكتاتورية، وشعر بضراوتها التي تفوق ضراوة الفقر، عندئذ كرس نفسه لمحاربة الطغيان. وأعلن أنه فقد ثقته في روسيا و«جوزيف ستالين» (1878-1953). وقد بلور «أورويل» اتجاهه السياسي حين قال في مقال له بعنوان: «لماذا أكتب؟»: «قضيت خمس سنوات في عمل لا يناسبني، وعانيت من الفقر والإحساس بالفشل، وقد زاد ذلك من بغضي الطبيعي للسلطة، وأعطتني وظيفتي في بورما فهماً ما لطبيعة الإمبريالية لكن هذه الخبرات لم تكن كافية لتحديد اتجاهي السياسي، ثم جاء «أدولف هتلر» (1889-1945) والحرب الأهلية الإسبانية، هذه الحرب والحوادث التي تلتهما حدّدت اتجاهي السياسي، وعرفت أين أقف، فكلُّ سطر من أعمالي منذ 1936 كتبته بأسلوب أو بآخر ضدَّ الطغيان والحكم المُطلق، ومع الاشتراكية الديمقراطية كما أفهمها».

فَكَرَّ «أورويل» في الذهاب إلى الهند للعمل في صحيفة «بايونير»، ولكن تدهورت صحته في مارس 1938، فأدخل إلى مصحة قاعة بريستون في «كنت»، وهي مصحة مُخصَّصة لِمَنْ كانوا في الخدمة العسكرية، وقد شَخَّصوا حالته مبدئيًا بأنَّه يُعاني من السَّل الرُّثوي.

أعدَّ الروائي «ليو هاميلتون مايرز» سرًّا لـ «أورويل» رحلة للمغرب الفرنسي لمدة نصف عام ليتجنَّب الشتاء الإنجليزي وليستعيد صحته، فتوجه وعائلته في سبتمبر 1938 إلى المغرب المُحتل من قِبل فرنسا عن طريق جبل طارق وطنجة، حتى وصلوا إلى مراكش. وأثناء إقامتهم هناك كتب روايته الثالثة «الخروج إلى المتنفس» Coming up for Air.

دعا «ديفيد أستور» في فبراير 1945 «أورويل» إلى أن يُصبح مراسلًا حربيًا لصحيفة «الأوبزيرفر». وكان «أورويل» يبحث عن فرصة طوال فترة الحرب، ولكن تقاريره الطبية منعتَه من الوجود في أي مكان قرب الأحداث الساخنة. بعدها ذهب إلى باريس بعد تحرير فرنسا وإلى «كولونيا» حينما كانت محتلة من قبل الحلفاء، ثم اتجه إلى لندن لتغطية الانتخابات العامَّة هناك وذلك مع بداية شهر يوليو 1945.. وكان كتاب «مزرعة الحيوان» قد نُشر في بريطانيا في أغسطس من العام نفسه، وبعدها بعام واحد نُشر في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد لاقى الكتاب صدًى واسعًا في أنحاء العالم، فاكسب «أورويل» شهرة كبيرة.

في عام 1947 رحل «أورويل» إلى جزيرة «جورا» في فصل الشتاء حيث كان قد قارب الانتهاء من كتابه «1984». وفي شهر يناير عام 1949 أصيب «أورويل» بحالة ضعف شديدة ممَّا استدعى نقله إلى إحدى المستشفيات. وفي خلال تلك الفترة صُدم زوار «أورويل» من ازدياد حالته سوءًا لعدم فعالية العلاج الذي كان يتعاطاه، ولتأزُّم حالته المالية كذلك، لكن بعد فترةٍ استرد «أورويل» عافيته.



خلال الفترة من عام 1945 إلى 1946، لم يُقدِّم «أورويل» أي أمل أو ترحيب للزواج من الفتيات الصغيرات، ولكن في صيف عام 1949 وبعد محاولات غزلية من «أورويل» لجذب «سونيا برونويل»، انتهى الأمر بإعلان زواج صيفي في سبتمبر من نفس العام، قبل فترة بسيطة من ذهابه المستشفى الجامعي في لندن. وإن المثير بالأمر أنَّ «أورويل» أقام حفلة زواجه بالغرفة (13) بالمستشفى

في يوم 13 أكتوبر من عام 1949. وقد رواة السقوط والخروج في باريس ولندن توفيت «سونيا برونويل» في 11 ديسمبر من عام 1980 عن عُمر يناهز الثانية والستين.

* * * *

في صباح يوم الحادي والعشرين من يناير عام 1950 تسبَّب انفجار أحد الشرايين الموصلة لرئتي «أورويل» في وفاته عن عُمر يناهز السادسة والأربعين. لقد أوصى «أورويل» بدفنه وفقاً لتقاليد الكنيسة الإنجيلية في أقرب كنيسة له في المكان الذي يموت فيه، وقد أثار عدم وجود مكان شاغر في مقابر لندن قلق أرملة «سونيا برونويل»، وقد ناشدت المعارف والأصدقاء بالبحث عن مساحة في المقابر لزوجها الراحل على أن تكون في مُحيط لندن. «ديفيد أستور» وهو أحد معارف «أورويل» وقد عاش سابقاً في قرية «سيتون كورتيناى»، تفاوض مع أحد النواب من أجل دفن «أورويل» في مقبرة القديسين مع أنَّه لا يملك صلة بأي شكل مع القرية. وقد كُتبت هذه المراثية

على شاهد قبره: «هنا يرقد إرك آرثر بلير، ولد في 25 يونيو 1903، وتوفي في 21 يناير 1950». وليس هنالك ما يُشير لاسمه الآخر (جورج أورويل).

* * * *

عمل «جورج أورويل» في مهنة التدريس قبل اشتغاله بالأدب والصحافة، ففي إبريل من عام 1932 أصبح مُعلِّمًا في مدرسة «هاوثورن» الثانوية وهي مدرسة تحضيرية للأولاد غرب لندن، وكانت مدرسة صغيرة خاصّة لتعليم أبناء التجار المحليين. وفي صيف عام 1933 غادر «أورويل» هاوثورن ليصبح مُعلِّمًا في كلية «فريز»، في أوكسبريدج، غرب لندن. وكانت الكلية المنشأة تضم 200 تلميذ ومجموعة كاملة من الموظفين.

ثم امتهن مهنة الصحافة، فكان كاتب مقال فذ، بل إنَّ البعض يرى أنَّ مقالاته كانت في بعض الأحيان أقوى من رواياته، وقد عبَّر فيها عن نفسه أكثر ممَّا عبَّر في رواياته، فكانت بذلك إطارًا لتحليل معظم أعماله، وحملت أيضًا روحه التهكمية الساخرة، ويُقال إنَّ «أورويل» تأثَّر كثيرًا بالكاتب اللَّاذع «جوناثان سويت» (1745-1667)، لكن «أورويل» يفوق «سويت» في دهاء سخريته وذكاء تهكمه.

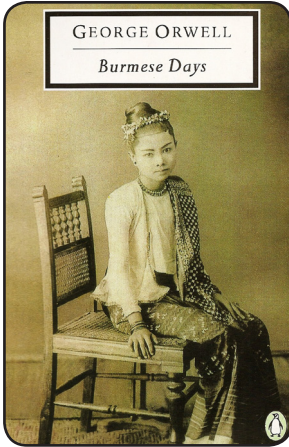
في نهاية عام 1936 توجه «أورويل» إلى إسبانيا ليعمل مراسلًا صحفيًا، وقد دوَّن خبراته التي عاشها في الحرب الإسبانية في كتاب أصدره عام 1938، بعنوان: «تحية إلى كتالونيا» *Homage to Catalonia*.

وفي عام 1941 التحق بالقسم الهندي بهيئة الإذاعة البريطانية BBC، وفيها قدَّم «أورويل» برنامج «الصوت» وهو أحد البرامج الأدبية الإذاعية الهندية، وقد أصبح هذا البرنامج أحد أكبر البرامج الذي يعرض الحياة الاجتماعية لبعض أصدقائه الأدباء. ثم ترك عمله عام 1943 بالإذاعة البريطانية ليعمل مُحرِّرًا أدبيًا بصحيفة «تريبيون» *Tribune*، وهي مجلة أسبوعية يسارية تابعة لحزب العمال البريطاني. ثم أصبح مُحرِّرًا دائمًا في

«الأوبزيرفر». وفي نوفمبر من عام 1943، تم تعيين «أورويل» رئيسًا لتحرير المجلة الأدبية «المنبر»، حيث كان له عمود مقالة أسبوعي، يحمل عنوان: «كما قلت من فضلك».

* * * *

على الصفحات التالية نقدٌ قراءة سريعة لأهم أعمال «جورج أورويل» الروائية: في عام 1922 بدأ «أورويل» في كتابة نصّه الروائي «المتميّز» السقوط والخروج في باريس ولندن «Down And Out In Paris And London»، ولكنه لم يُنشر إلّا في عام 1933، وهو عبارة عن تقرير عن تلك الفترات التي عاشها في كل من لندن وباريس بين الفقراء. وقد نشره باسمه المستعار. يُلاحظ أنّ الجزء الأوّل من الكتاب الذي يصور تجربته في باريس يشع فيه المرح والحيوية، بينما الجزء الثاني منه الذي يصور حياته في لندن يتسم بالاكئاب، والسبب أنّه في باريس واجه الفقر فقط، بينما في لندن واجه الفقر والإذلال معًا.



رواية أيام بورما

يناقش «أورويل» الدلالات الإنسانيّة، والجماليّة، والثقافيّة الملازمة لتجربة التشرّد والضياع في المجتمعات المدنية الراقية من خلال تداعيات النماذج الشخصية الفريدة للمتشرّدين، والقوى المتضادة التي تتنازعها، مثل: الحتميات الشمولية المُحدّدة للوضع الاجتماعي، والبحث المستمر عن وجود إنساني فردي من داخل فضاءات تشبه الجحيم، دون أن يلجأ «أورويل» لاستبطان المتشرّد من الداخل، أو يُحيل القارئ إلى حالات الكآبة، أو الحزن، أو الصمت؛ فقد

حرص على الاحتفاء بالحياة الإنسانية بحد ذاتها في المتشرد، وفي أساليبه الحياتية، وقدرته على الأداء الديناميكي في التعامل مع مشكلات الجوع، والعمل، وأماكن السكن، والنظافة، وغير ذلك.

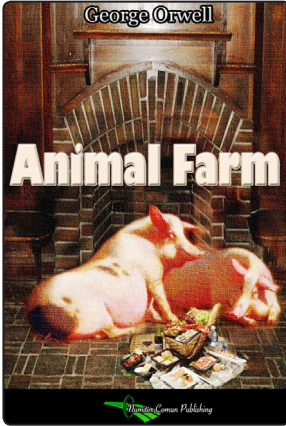
وفي عام 1934 نشر كتابه الثاني «أيام بورما» Burmese Days، الذي تناول فيه خبراته في فترة الخدمة الاستعمارية في بورما (تعرف أيضًا باسم ميانمار. هي إحدى دول جنوب شرق آسيا. قد نالت استقلالها في عام 1948، وانفصلت عن الاستعمار البريطاني). وفي عام 1935 كتب روايته «ابنة رجل دين» A Clergyman's Daughter. وقد تطرّق فيها لحياته كمُعَلِّم، ولحياته أيضًا في «ساوث وولد». لم يكن «أورويل» راضيًا عن هذه الرواية حتى أنّه رفض إعادة نشرها، وامتنع عن إدراجها في قائمة كتبه المنشورة، بل يُقال إنّهُ اشترى جميع النسخ التي وجدها في المكتبات ثمّ قام بإعدامها!!

ثمّ كتب رواية «دع الزنبقة تطير» Keep The Aspidistra Flying، التي نُشرت في عام 1936. ولم يكن «أورويل» راضيًا عنها كسابقته. تميّز هذه الرواية بأنّ مؤلّفها قد وضع فيها سيرته الذاتية أكثر من أيّة رواية أخرى، وهي تتناول تلك الفترة من حياته في الثلاثينيات من القرن المنصرم، التي كان فيها في أمس الحاجة إلى المال. وقد أسعده أن تصله عدة خطابات من القُرّاء يعترفون فيها بأنّهم مروا بتجارب مماثلة. وترمز الزنبقة أو نبات «الإسبدسترا» إلى قيم المجتمع البرجوازي المادية المتمثلة في النجاح في جمع المال.

وفي عام 1937 نشر كتابه: «الطريق إلى ويجان بير» The Road to Wigan Pier، حيث انتقد فيه كلّاً من النظام الطبقي الإنجليزي والاشتراكية الإنجليزية، التي اتهمها بأنّها غير واقعية، وأنّ معظم المؤمنين بها يميلون

للاتّناء إلى الطبقة الوسطى، وسخر فيه من أولئك الذين يتشدقون بعبارة، مثل: التماسك البروليتاري، وأولئك الذين يحقرون من شأن الناس البسطاء الكرماء الذين يرى «أورويل» أنّهم الأجدر بأن يتوجه إليهم بكتاباتة.

وقد جاء الكتاب كخطوة أولى نحو ما سمّاه النُّقاد «التمرُّس بالكتابة التي تهدف إلى شن الحرب بالكلمات، والمقصود بذلك هو ترسيخ وجهة نظر مُعيَّنة في ذهن القارئ، والكتابة حول مسألة يشعر كاتبها أنّه من الضروري أن ينحاز إلى جانب ضدّ آخر، وقد توافرت في هذا الكتاب، والكتب التالية تلك المزايا التي تتطلّبها الحرب بالكلمات، وهي: الإلحاح والحِدّة والوضوح والفكاهة التي تختلط جميعًا في مزيجٍ منسجمٍ متوافق تمامًا.



أمّا كتابه «تحية إلى كتالونيا» Homage to Catalonia، والذي نُشر في عام 1938، فكان ضمن رصيد خبراته في الحرب الأهلية الإسبانية. يتجنّب «أورويل» أيّة محاولة لخلق الإثارة والحماس للحرب في وجدان جمهوره، كما أنّه يتجنّب أن يجعل من نفسه بطلاً، لكن هذا لا يتعارض من كون «أورويل» وُلِد ليكون مقاتلاً، وتوضح لنا حياته في بورما، واشتراكه في الحرب الأهلية الإسبانية على وجه

الخصوص، مدى تأصّل روح النضال والقتال فيه. وكان «أورويل» قد سافر إلى إسبانيا لمراقبة أحداث الحرب الأهلية ونقل أخبارها كمراسل صحافي، لكنه بدلاً من ذلك تطوَّع مثل الكثيرين من الأوروبيين في صفوف المحاربين من أجل الحُرّيّة والديمقراطية، وتُمثّل الحرب الإسبانية نقطة تحوّل في حياة «أورويل» لأنّه اكتشف أنّ الشيوعية التي كان يُحارب في صفوفها ليست أقلّ

عُنفًا من ديكتاتورية «فرانكو» التي كان يُحارب ضدها، ويقول «أورويل» عن كتابه هذا: إنه كتاب سياسي صريح لكنني كتبتُه بقدر من الموضوعية والعناية بالشكل». وتكمن أهمية تجربته الإسبانية في أنَّها أصابته بخيبة أمل شديدة في اليسار وصلت إلى حدِّ القطيعة الكاملة له.

ثم ظهرت روايته الأثيرة إلى قلبه «الخروج إلى المُتَنَفِّس» Coming up for Air عام 1939 وهي الرواية الأخيرة لـ «أورويل» التي كتبها قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتنبأ فيها بقيام هذه الحرب في فترة تتراوح بين خمسة أعوام وعام واحد، ولم تمضِ شهور على صدور الرواية حتى أثبتت الأيام صدق نبوءته، وتتمثَّل هذه النبوءة في قبلة تسقط بمحض الصدفة على بلدة «بنفليد» فتقتل شخصًا وتصيب آخر. وتُعتبر هذه الرواية من أكثر رواياته إظهارًا للثقافة والمظاهر الإنجليزية، حيث تختلط مظاهر الطفولة المثالية مع الحياة القاسية. الرواية لا تبتع على التفاؤل حيث الرأسمالية والثورة الصناعية التي قتلت ماضي إنجلترا العريق، وهذا المقطع من الرواية على لسان أحد أبطالها يُدَلِّل على ذلك: «هتلر شيء مختلف وكذلك ستالين، فهم ليسوا هؤلاء الذين كانوا يقطعون الرؤوس لمُجرَّد المتعة، إنَّهم شيء مختلف لم يُسمع به من قبل!!»

أمَّا رواية «مزرعة الحيوان» Animal Farm فقد نُشرت في عام 1945. وكان العنوان الأصلي للرواية: Animal Farm: A fairy story، أي «مزرعة الحيوان: رواية خيالية» قد أغفله الناشر الأمريكي في طبعة 1946. كتب «أورويل» مخطوطة الرواية بين عامي 1943 و 1944 بعد تجربة مرَّ بها في الحرب الأهلية الإسبانية. ويُقال إنَّ «أورويل» أنفق خمس سنوات ليتوصل إلى شكل فني ملائم لفكرة الرواية، وأربعة أشهر فقط ليدوِّن الرواية على الورق بسرعة مذهلة.

في مقدمة طبعة «أوكرانية» صدرت عام 1947 للرواية شرح «أورويل» كيف أنَّ نجاته من التطهيرات الشيوعية في إسبانيا علّمتة: «مدى سهولة سيطرة «البروباجاندا» propaganda الشمولية على عقول المستنيرين في البلاد الديمقراطية»، و قد حفّزه هذا على فضح وإدانة ما رآه الإفساد «الاستاليني» للمبادئ الثورية الاشتراكية. و في المقدمة ذاتها يصف الكيفية التي ألهمته أن يجعل أحداث القصة تدور في مزرعة: «.. رأيت فتى صغيراً، ربما في العاشرة، يقود عربة حصان على طريق ضيق و يضرب الحصان بالسطح كلّما حاول الدوران، و قد صدمني أنّه لو وعت الحيوانات مقدار قوتها فلن يكون لنا سلطان عليها، وإنَّ الإنسان يستغل الحيوانات بذات كيفة استغلال الأغنياء للبروليتاريا». (يقصد «كارل ماركس» بالبروليتاريا الطبقة التي لا تملك أي وسائل إنتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري). واجهت «أورويل» صعوبات جمة في محاولات طباعة المخطوط، إذ رفضها أربعة ناشرون، و قد نشرت دار نشر Secker and Warburg الطبعة الأولى من الرواية عام 1945.

أثناء الحرب العالمية الثانية اتضح لـ«جورج أورويل» أنَّ الكتابات المضادة للسوفيتية لا تروق لمعظم الناشرين، بمنّ فيهم ناشره المعتاد «فيكتور كولانش» ذو الميول اليسارية. كما أنّه قدّم مخطوطة الرواية إلى دار نشر «فابر و فابر» حيث رفضها الشاعر «ت. س. إليوت» الذي كان مديراً لها. وقد كتب «إليوت» إلى «أورويل» ممتدحاً: «حُسن كتابتها، وأساساتها السليمة»، وموضحاً أنّهم لو كانوا قبلوا نشرها، فهذا يعني أنهم متقبّلون وجهة النظر التي رأوها نازعة إلى «التروتسكية» (تيار شيوعي وضع على يد ليون تروتسكي)، كما قال «إليوت» إنّ الرؤية لم تكن مقنعة له، إذ رأى أنَّ «الخنازير» كانوا الأكثر ملاءمة لإدارة المزرعة، وأنَّ المطلوب لإنجاح التجربة ربما لم يكن «خنازير شيوعيون»، بل خنازير ذوو حس بالشأن العام».

كما كان ناشراً آخر ممّن لجأ إليهم «أورويل» أثناء الحرب قد قبل الرواية مبدئياً، ثم رفضها لاحقاً بعد أن حذره مسؤول في وزارة الإرشاد البريطانية من مغبة فعل ذلك، و قد اتضح فيما بعد أنّ ذلك المسؤول كان جاسوساً سوفيتياً. و قد كتب ذلك الناشر إلى «أورويل»، يقول: «لو أنّ القصة كانت تتناول الديكتاتوريين و الديكتاتوريات على العموم لما كان في نشرها شيء، لكن القصة تتبع على ما يبدو لي مسار السوفيت الروس و ديكتاتوريتهم «لينين»، و«ستالين» بحيث لا تنطبق سوى على روسيا وتستثني الديكتاتوريات الأخرى. و شيء آخر: لكان الأمر أقلّ مدعاة للعداوة لو كانت الطبقة المسيطرة في القصة غير الخنازير. أرى أنّ تصوير الخنازير كطبقة حاكمة سيغضب بلا شك كثيرين، و خصوصاً سريعي التأثر، مثل الروس».



رواية 1984

في المعسكر الشرقي كانت كل من روايتي «مزرعة الحيوان»، و من بعدها رواية 1984 مدرجتين في قائمة الكتب المحظورة حتى الإصلاح في ألمانيا الشرقية عام 1989، و لم تكن قبلها متاحة سوى عبر شبكات سرية. وفي عام 1947 عُدت الطبعة «الأوكرانية» مثالا مبكراً على الاستخدام الدعائي للرواية، فقد طُبعت و وُزعت بين المواطنين السوفيت الأوكرانيين الذين كان كثير منهم مُهَجَّرين بانتهاء الحرب العالمية الثانية.

* * * *

أما رواية «1984» التي نتشرف بتقديمها إلى قُرَّاء مصر والعالم العربي، والصادرة عن «دار الطلائع للطبع والنشر والتوزيع»، فقد كان عنوانها الأصلي هو: «آخر رجل في أوروبا»، ولكن الناشر اقترح على «أورويل» تغييره، فأصبح Nineteen Eighty-Four، الذي تحوّل إلى «1984». وهناك العديد من الاجتهادات التي تحاول تفسير سبب اختياره لعام «1984» بالضبط كي يكون عنواناً للرواية، إلا أنّها كلّها غير مؤكّدة، والافتناع السائد الذي يُذكر - غالباً - بهذا الخصوص أنّ عنوان الرواية هو عكس آخر رقمين من سنة 1948، وهي السنة التي أتم فيها «أورويل» كتابة الرواية، والتي استغرقت كتابتها ثلاث سنوات بداية من عام 1945، حتى يونيو 1948 تاريخ نشرها. وليس من قبيل الميلودراما ما قيل أنّ «أورويل» أجهد نفسه حتى الموت كي ينتهي من كتابتها بحيث أنّه في سبيل إتمامها لم يسمح لنفسه بأي قسطٍ من الرّاحة، كما أنّه أهمل استشارة الطبيب لمُعالجته من مرض السل الذي أصبح يُهدّد حياته تهديدًا خطيرًا.

عندما صدرت الرواية كانت تُعد من الروايات الثورية والخطرة سياسيًا، ممّا أدى إلى منع تداولها في عددٍ من الدول التي كانت محكومة بحكومات شمولية كروسيا وحتى غيرها من الدول الأخرى. وبالرغم من ذلك لقيت الرواية نجاحًا هائلًا حتى قبل نشرها؛ ففي بريطانيا وحدها بلغ إجمالي مبيعات نسخ الكتب المحجوزة قبل النشر (11) ألف نسخة، ووصل عدد نسخ أول طبعة بريطانية إلى (30) نسخة.

وقد تم ترجمة الرواية إلى (62) لغة منها العربية والفرنسية والإسبانية وغيرها. وقد اختارت مجلة «تايم» الرواية كواحدة من أفضل مائة رواية مكتوبة بالإنجليزية منذ عام 1923 وحتى الآن، كما حدث مع رواية «مزرعة الحيوان». تم تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي، وقد كان توقيت عرض الفيلم مثيرًا جدًّا، فقد صدر الفيلم في عام 1984.



الرواية تدور في إطار تخيُّلي ولكنه مستقبلي، يماثل فيه «أورويل» بين كافة أشكال الأنظمة الاستبدادية، سواء: الشيوعية أو النازية والفاشية وبين عالمه المُتخيَّل، ذلك القائم على نظام الحزب الواحد الذي يتحكَّم في حياة الناس وضمائرهم. فسر الرواية البعض على أنَّها تتحدَّث عمَّا يحدث في الاتحاد السوفيتي الشيوعي، وأنَّ «أورويل» يُشير إلى «ستالين» عندما يتحدَّث عن «الأخ الأكبر»، لكن الأرجح أنَّ الروائي الذي عرف كيف يقرأ المستقبل «أورويل» ببصيرة وعبقريَّة مدهشتين إنَّما يتحدَّث عن المستقبل، ويتكلَّم عن خوفه من الأنظمة الشمولية عموماً، والتي ستستخدم التكنولوجيا والإعلام لطمس وتغيير الحقائق، ولتوجيه الناس بحسب رغبتهم عبر عملية «غسيل مخ» مكثفة، وهو الحادث في يومنا هذا، وحتى في أكثر البلاد التي يمكن أن نصفها بالديمقراطية. وقد قال الكاتب الأمريكي «نعوم تشومسكي» Noam Chomsky: «نعم، إنَّ نبوءات أورويل قد تحقَّقت، وإنَّ ما حذرنا منه قد وقع بالفعل، على الأقل في جوهره».

والرواية ليست مُجرَّد هجوم على النظم الشمولية لأنَّ مدلولها أعمق وأشمل من هذا بكثير، فهي تنطوي على تحذير للديمقراطيات الغربية بأنَّها ليست في مأمن من اندفاع العالم الحديث نحو تلك الأنظمة، بحيث يمكن القول بأنَّ هذه الرواية لونٌ من ألوان المدن الفاضلة المعكوسة، أو «اليوتوبيات التحذيرية»، في مُقابل «اليوتوبيات المثالية» التي يحلم مؤلِّفوها بأن تصل إليها الإنسانية يوماً ما.

ويمكننا القول بأنَّ «أورويل» في روايته هذه إنَّما كان يتنبأ بمصير العالم الذي ستحكمه قوى كبرى تتقاسم مساحته وسكانه، ولا تُحقق أحلامهم، أو

تليي طموحاتهم، بل تحوّلهم إلى مُجرّد أرقام في جمهوريات «الأخ الأكبر»، الذي يُراقب كُل شيء، ويعرف كُل شيء، فحكمه هو الحكم الشمولي بعينه. لقد وصف «جورج أورويل» بشكل دقيق تحوّل القيم البشرية إلى أشياء هامشية، ومن ثمّ سطوة الأحزاب السلطوية والشمولية على الناس والشعوب ومقدراتهم، ليصيروا في النهاية بلا مشاعر ولا عواطف، يفتقدون الآمال والأحلام، ويعملون كالآلات الخرقاء خوفاً من هذا «الأخ الأكبر» الذي يُراقبهم على مدار الساعة!!

تأثيرٌ كبيرٌ تركته رواية «1984» على قصص ورواياتٍ ظهرت بعدها، فقد أثّرت في رواية «فهرنهايت 451» للأديب الأمريكي «راي برادبري» Ray (Bradbury)، 1920 - 2012 و«الرجل الراكض» للكاتب الأمريكي «ستيفن كينج» Stephen King (المتوفى في عام 1948)، و«البرتقالة الآلية» للكاتب الإنجليزي «أنتوني بيرجس».

ومن جهةٍ أخرى تأثّر «أورويل» أثناء كتابته رواية «1984»، بروايتين، الرواية الأولى «نحن» للأديب الروسي «يفنجي زامياتين» (توفي في عام 1937)، ورواية «عالم جديد شجاع»، للكاتب الإنجليزي «ألدوس هكسلي» (1894 - 1963)، والروايتان تصف تمرد العقل البشري البدائي على عالمٍ غير عقلاني، كما أنّ الأحداث فيهما تجري في المستقبل.

أيضاً كان لرواية «1984» تأثيرٌ كبير على اللغة الإنجليزية، فقد شاع استخدام العديد من المفردات التي ابتكرت في هذه الرواية مثل: «الأخ الأكبر» Big Brother، «الغرفة 101» Room 101، «شرطة الفكر» Thought police، «التفكير المزدوج» Doublethink. وقد يكون «أورويل» هو أول من استخدم مصطلح «الحرب الباردة» في مقالته «أنتم والقنبلة الذرية» التي نشرت في صحيفة «المنبر» في 19 أكتوبر عام 1945 م. ولترك القُرّاء الأعزاء يستمتعون بقراءة الرواية الرائعة.

وختاماً نعيش مع بعض أقوال «جورج أورويل» الخالدة:

- في وقت الخداع العالمي يصبح قول الحقيقة عملاً ثورياً.
- من خلال الثورة نصبح أنفسنا أكثر وليس أقل.
- إن كان التحرر يعنى شيئاً فهو الحق في أن تقول للناس ما لا يؤذون سماعه.
- تصدر كلّ دعاية الحرب والصراخ والكذب والكراهية عمّن لا يحاربون.
- إذا أردت إلقاء نظرة على المستقبل فتخيّل حذاء يطأ وجه إنسان.. إلى الأبد.
- في سن الخمسين يكون لكلّ شخص الوجه الذي يستحقه.
- يتخيّل كلّ جيل أنّه أذكى من الذي سبقه، وأكثر حكمة من الذي يليه.
- لقد لاحظت في مرحلة مبكرة من حياتي أنّ الصحف لا تنقل أبداً أي حدث كما حدث فعلاً.
- أحياناً يكون الواجب الأوّل للذكي أن يُعيد ذكر الحقائق الجلية.
- لا يمكن أن تُوجد السعادة إلّا في الرضا.
- قد نكتشف على المدى الطويل أنّ الطعام المُعلّب سلاح أكثر فتكاً من البنادق الآلية.
- كلّ الحيوانات سواسية، لكن بعضهم أكثر مساواة من البعض الآخر.
- الدعاية: قعقة عصا داخل صندوق قمامة.
- إذا كان الفكر يُفسد اللغة، فيأمكن اللغة كذلك أن تُفسد الفكر.
- يُفترض أن تكون اللغة نتاجاً مشتركاً للشعراء والعمال اليدويين.
- التقدّم ليس وهماً، فهو يحدث كلّ يوم، لكنه بطيء ومُحبط للغاية.
- الرياضة الجادة حرب من دون إطلاق النار.
- ليس هدف النكات الحط من قدر الإنسان، بل تذكيره أنّه منحط بالفعل.
- مَنْ يتحكّم في الماضي يتحكّم في المستقبل، وَمَنْ يتحكّم في الحاضر يتحكّم في الماضي.

الجزء الأول

1984

دقيقتان من الكراهية!!

Two minutes of hatred!!

كان يومًا باردًا من أيام أبريل (نيسان) بسمائه الصافية، وكانت الساعة تُشير إلى الواحدة بعد الظهر، عندما كان «ونستون» سميث بذقنه المنكفئة على صدره اتقاءً لريح بارد ينسل مُسرّعًا عبر الأبواب الزجاجية بمبنى النصر الذي يقصده.

كان الممرُّ الذي يجتازه عابِقًا بروائح الكرنب (الملفوف) المسلوقة، والفراش المهترئ، وعند نهاية هذا الممرِّ غُلِّقت صورة ملوَّنة وذات حجم كبير لا يتناسب مع مثل ذلك الممرِّ الضيق، وكانت تُمثِّل وجهًا ضخمًا يرنو عرضه على المتر، وهو وجه رجل في الخامسة والأربعين، ذو قسَمات جميلة وإن كانت لا تخلو من خشونةٍ وصرامةٍ، ويبرز فيه شاربان أسودان كَثَّان.

مشي «ونستون» باتجاه السلالم للصعود، فالمصعد نادرًا ما كان يعمل، إمَّا بسبب عطل وإمَّا لانقطاع التيار الكهربائي معظم ساعات النَّهار، انسجَمًا مع خطة توفير الطاقة استعدادًا لفعاليات «أسبوع الكراهية».

كانت الشقة التي يقصدها «ونستون» في الطابق السَّابع وكان عليه أن يصعد سلَّمًا طويلًا، ولأنَّه في التاسعة والثلاثين من عُمره ويشكو من دوالٍ فوق كاحله الأيمن، فقد راح يرتقي درجات السِّلَّم بِخُطى وثيدة للاستراحة عدة مرَّات. وعند كُلِّ منعطف من منعطفات السِّلَّم السَّبعة، وعند كُلِّ محطة من محطات المصعد وبمواجهة الباب، كانت تتصب صورة الوجه الضخم

لُتُحَدِّقْ فِي كُلِّ وَجْهٍ قَادِمٍ. وَكَانَ يُوجَدُ أَسْفَلَ تِلْكَ الصُّورَةِ عِبَارَةٌ بَارِزَةٌ تَقُولُ:
«الْأَخُ الْكَبِيرُ يَرِاقِبُكَ».

عندما دخل «ونستون» إلى الشقة سمع صوتًا يسرد قائمة أرقام تتعلّق
بإنتاج الحديد الخام، وكان الصوت ينبعث من لوحة معدنيّة مستطيلة الشكل
تشبه مرآة معتمّة مُعلّقة على الحائط الأيمن. أدار «ونستون» مفتاحًا فخفتت
حِدَّةَ الصوت قليلًا وإن ظلَّ الكلام واضحًا، كان بمقدور «ونستون» تخفيض
صوت هذا الجهاز الذي كان يُسمى «شاشة الرصد»، ولكن لم يكن بوسعه
إيقاف تشغيله بشكل تام.

انتقل «ونستون» نحو النافذة بجسمه النحيل الضئيل الذي زاد من ضآلته
الزّي الأزرق، وهو لبّاس الحزب، وكان شعره مائلًا للشقرة ووجهه شديد
الاحمرار، أمّا بشرته فكانت خشنة من أثر الصابون الرديء وشفرات الحلاقة
غير الحادة وبرودة فصل الشتاء الذي كان قد شارف على نهايته.

ورغم أنّ الشمس كانت ساطعة والسماء داكنة الزُّرْقَة فقد بدا كما لو
أنّ كُلَّ شيء قد طمس لونها، ما خلا تلك الصورة التي كانت مُعلّقة في
كُلِّ مكان. فمن كُلِّ زاوية كان ذلك الوجه ذو الشارب الأسود يطل مُحدّقًا
في وجه المارة. وعلى واجهة المنزل المقابل كانت تنتصب واحدة من
تلك الصور المكتوب تحتها عبارة: «الْأَخُ الْكَبِيرُ يَرِاقِبُكَ»، وكانت العينان
السوداوان تنفذان إلى أعماق «ونستون». وفي الأفق البعيد للشارع كانت
تحوم طَوَافَة بين السطوح تقترب تارة وتبتعد تارة فتبدو أشبه بخنفساء زرقاء،
ثمّ تنطلق منعطفة في مسارٍ آخر. ولم تكن هذه الطَوَافَة غير دورية شرطة
تتلصّص على الناس عبر النوافذ، غير أنّ الطَوَافَة لم تكن ترهب الناس كما
ترهبهم «شرطة الفكر».

كان الصوت المنبعث من «شاشة الرصد» ما يزال يُكرّر إحصائيات إنتاج الحديد الخام ويُعيد نبأ تحقّق أهداف الخطة الثلاثية التاسعة. وكان الجهاز بإمكانه التقاط كلّ صوت يصدر عن «ونستون»، يتجاوز حد الهمسات الخافتة. فضلاً عن أنّه يبقى مُراقباً بالصّوت والصورة ما دام موجوداً في مدى رؤية هذه الشاشة المعدنية. ولم يكن هنالك بالطبع من طريقة لمعرفة ما إذا كنت في مرمى المراقبة أم لا في أيّة لحظة. أمّا كم مرّة أو كيف يمكن أن تخترق «شرطة الفكر» حياتك الخاصّة فهذا أمر لا يمكن التنبؤ به، وإن كان من المفروض أنّها ترصد الناس جميعاً بلا انقطاع.

وقف «ونستون» مُديرًا وجهه لـ «شاشة الرصد»، فقد كان يظنّ أنّ هذا أسلم عاقبة بالرغم من أن أمر المرء يمكن أن ينكشف من ظهره أيضًا.

وكان مركز عمله يبعد مسافة كيلو متر واحد عن وزارة الحقيقة، التي يرتفع مبناها ذو اللون الأبيض وسط منظر طبيعي كالحج. وفكّر «ونستون» وفي نفسه شيء من التقزّز والامتعاض: «أهذه هي لندن المدينة الرئيسة في القطاع الجوي رقم واحد؟ وثالث أكبر مقاطعات أوقيانيا سكانًا؟».

لقد حاول جاهداً أن يسترجع بعضاً من ذكريات الطفولة محاولاً أن يتبيّن ما إذا كانت هذه هي صورة لندن في كلّ الأوقات؟ أتراها كانت بمثل هذه الطرقات المزدهمة والمنازل المتهالكة؟ أكانت على هذه الحال في القرن التاسع عشر، حيث تظهر على جوانبها دعائم من الخشب، ونوافذها مرصّعة بقطع من الكرتون، وأسوار حدائقها مُهدّمة؟ أكانت موجودة تلك الأماكن التي أحدث القصف فيها حفراً كبيرةً تعبق بالغبار، وتبدو للعين أوراق الصنصاف مختلطة بأكوام النفايات، وقد ظهرت هناك مجموعة من الأكواخ الخشبية أشبه بأفخاص الدجاج؟ ولكن عبثاً حاول، فلم يكن باستطاعته أن

يتذكّر شيئاً عن ذلك الماضي؛ إذ لم يبق له من ذكريات الطفولة إلاّ صور غير واضحة المعالم.

كانت وزارة الحقيقة (مينيترو في اللغة الجديدة) تختلف اختلافاً كبيراً في مظهرها عن أي بناء آخر تقع عليه العين، فهي بناء هرمي ضخم من الأسمنت الأبيض اللامع، يرتفع عاليًا يناطح السحاب، طبقة فوق طبقة، ثلاثمائة متر في السماء، ومن مكانه، كان باستطاعة «ونستون» أن يقرأ على الحائط الأبيض كتابة ذات أحرف كبيرة بارزة، هي شعار الحزب المؤلّف من جملٍ ثلاث:

الحرب هي السّلام.

الحُرّيّة هي العبوديّة.

الجهل هو القوّة.

كانت وزارة الحقيقة تتألّف، حسبما يُقال من ثلاثة آلاف غرفة فوق الأرض، فضلاً عن أقبية تابعة لها تحت الأرض. ولم يكن في لندن سوى ثلاث بنايات شبيهة بها من حيث المظهر والحجم، وهذه البنايات كانت تحجب ما حولها من منازل، ولذا كان من الممكن لمن يقف فوق سطح مبني النصر أن يرى البنايات الأربع في آنٍ واحدٍ. وكان يشغل هذه البنايات أربع وزارات تُشكّل الجهاز الحكومي، فوزارة الحقيقة تختص بشؤون الأخبار ووسائل اللّهُو والاحتفالات والتعليم والفنون الجميلة، ثمّ وزارة السّلام التي تعني شؤون الحرب، ثمّ وزارة الحُبّ وهي المسؤولّة عن حفظ النظام وتطبيق القانون، ثمّ أخيراً وزارة الوفرة وهي ترعى الشؤون الاقتصاديّة.

كانت وزارة الحُبّ في الواقع مصدراً للرّعب والخوف، فهي بناء بدون نوافذ على الإطلاق. ولم يسبق لـ«ونستون» أن دخل هذه الوزارة، إذ كان لا يسمح بدخولها إلاّ في مهمة رسمية، وحتى الدخول يكون عبر سياج من

الأسلاك الشائكة والأبواب الحديدية مرورًا بمرابض للمدافع المخيفة، كما أن الطرقات المؤدية إلى المبنى كانت دائمًا مراقبة من قبل حرس ذوي وجوه كالحة يرتدون بزات سوداء ويحملون الهراوات المُدبَّبة.

استدار «ونستون» بعد أن رسم علاقات التفاؤل التَّام على وجهه، وهو ما كان يُستحسن فعله عندما يواجه المرء «شاشة الرصد»، واجتاز الغرفة إلى المطبخ الصغير، إذ فاته تناول الغداء في المطعم بسبب تأخره في الوزارة.

وكان يعلم أنَّ المنزل خالٍ من الطعام إلا من قطعة خبز سوداء كان تركها لتكون إفطارًا له في صباح الغد. تناول من أحد الأرفف زجاجة تحتوي على سائل لا لون له وقد ألصق على الزجاجة ورقة كُتب عليها «جن النصر» (نوع من الخمور).

وكانت تنبعث من هذا الشراب رائحة أشبه برائحة الزيت. ومع ذلك صبَّ «ونستون» لنفسه بعضًا منه في كوب شاي ثمَّ استجمع قواه وتجرَّعهُ كما لو كان يتجرَّع دواء.

وفي الحال انقلب وجهه قرمزياً وسالت الدموع من عينيه، فقد كان الشراب شبيهًا بحامض الصوديوم، فضلًا عن أنَّه عندما ابتلعه شعر كما لو أنَّه ضُرب على مؤخرة رأسه بهراوة من المطاط، لكن بعد لحظات أخذ الشعور بالراحة والانشراح يسري في جسده، وعندئذ مدَّ يده إلى علبة السجائر وهي أيضًا تحمل اسم «سجائر النصر»، واستل منها سيجارة، وما عاد يرفعها من العلبة حتى راح ما فيها من تبغ يتناثر على الأرض، فاستبدلها بأخرى كانت أحسن حالًا.

ثمَّ عاد إلى الغرفة فجلس إلى طاولة صغيرة كانت إلى يسار «شاشة الرصد» وفتح درجًا كان بها، فأخرج قلمًا ومحبرة ودفترًا صغيرًا ذا ورق سميك وخلفية حمراء وغلافًا رخامي اللون.

ولسبب ما، كان الجهاز في غرفة الجلوس موضوعًا في مكانٍ غير اعتيادي، فبدلاً من أن يوضع كما جرت العادة عند نهاية الجدار حيث يستطيع كشف الغرفة كُلِّها، وُضع الجهاز في الجدار الأطول مُقابل النافذة، الذي كان في جانب منه تقعُ خفيف جلس فيه «ونستون».

ولعلَّ هذا التقرُّر قد قصد به أن يكون مكانًا لخزانة الكتب وهكذا بجلوسه في ذلك المكان وظهره مُسنَدٌ إلى الوراء، كان «ونستون» خارج مدى رؤية «شاشة الرصد»، مع أنَّ الجهاز كان باستطاعته التقاط ما يصدر عن «ونستون» من أصواتٍ. وقد كان تصميم الغرفة وجغرافيتها هو الذي أوحى له وألهمه جزئيًّا بذلك العمل الذي كان ينوي القيام به في تلك اللَّحظة.

ولكن هذا الإيماء كان مصدره أيضًا ذلك الدفتر الذي أخرجه من درج المنضدة وقد كان دفتراً جميلاً للغاية، وكان ورقه الأبيض والذي أكسبه القِدم شيئاً من الاصفرار، من نوعٍ تمَّ التوقف عن إنتاجه منذ أربعين عاماً على أقلِّ تقدير.

وكان قد عثر عليه معروضاً في واجهة حانوت خردوات صغير في حي من الأحياء الفقيرة (لا يتذكَّر اسمه أو موقعه)، وما إن وقعت عليه عيناه حتى تملَّكته رغبة عارمة في امتلاكه. ورغم أنَّه لم يكن مسموحاً لأعضاء الحزب بالتردُّد على مثل هذه الحوانيت العادية الكائنة في الأسواق الحُرَّة، فلم يكن هذا القانون يُطبق بصرامة، لأنَّه كان هنالك أشياء كثيرة، مثل أربطة الأحذية وشفرات الحلاقة، يتعذر على المرء الحصول عليها بغير هذه الطريقة.

وكان «ونستون» وهو في طريقه إلى هذا الحانوت يتوجس خيفة، بل ولم يذلل إليه حتى اطمأن إلى أنَّ أحدًا لا يُراقبه، ثُمَّ اشترى الدفتر بدولارين ونصف الدولار، دون أن يكون لديه هدف مُحدَّد من وراء شرائه، وتأبط

الدفتـر مخفياً إياه بعنايةٍ وحمله إلى منزله كَمَنْ يحمل إثماً، إذ كانت مُجَرَّد حيازة مثل هذا الشيء مدعاةً للشبهة حتى لو كان خلواً من أي كتابات.

والفكرة التي راودته حينذاك هي أن يستعمله كُفكرةٍ، ولم يكن في ذلك ما يخالف القانون، ومع ذلك إذا ما افترض أمره فإنه كان حتماً سيعاقب بالإعدام أو السجن لخمس وعشرين سنة في معتقل من معتقلات الأشغال الشاقة. وضع «ونستون» ريشته في ماسكة القلم ثم مصَّها قليلاً ليُخلصها ممَّا علق بها. كان القلم أداة زخرفية قديمة نادراً ما استعمله حتى في التوقيع.

لقد حصل عليه بشكل سري وبصعوبةٍ بالغة؛ إذ كان يشعر أنَّ ورقاً ناعماً أبيض اللون مثل هذا الورق يجب أن يُكتب عليه بريشةٍ حقيقيةٍ لا أن يُخربش عليه بقلم جف حبره أو مدَّاده. كان «ونستون» غير معتاد على الكتابة باليد إلَّا في حال تدوين بعض الملاحظات القليلة، لقد كان معتاداً على أن يملي كُلَّ شيء على «الآلة الكاتبة الناطقة»، وهذه بالطبع كان من غير الممكن أن يسجل عليها ما يروق تسجيله في مفكرته. ثبَّت الريشة ثم غمسها في المحبرة، وبدأ كما لو كان مُتردِّداً في أمرٍ ما لبرهةٍ واحدةٍ وسرت القشعريرة في أوصاله، فمُجَرَّد أن يخط بيده على الورقة كان يمثل له قراراً حاسماً وخطيراً، وكتب بأحرفٍ صغيرةٍ غير مقروءة جيداً على صدر الصفحة:

4 أبريل 1984.

ثمَّ اعتدل في جلسته وقد تملَّكه شعور بالعجز التَّام، فقبل كُلَّ شيء لم يكن متأكداً أنَّ العام كان 1984، فقد يكون الزمان قريباً من ذلك التاريخ، لأنَّه كان متأكداً أنَّ عُمره لم يتجاوز التاسعة والثلاثين، وكان يعتقد أنَّه من مواليد 1944، أو 1945، ومع ذلك كان من المستحيل في هذه الأيَّام تحديد أي تاريخ مضى عليه سنة أو سنتان.

بعد ذلك راح يتساءل: لِمَنْ يكتب هذه المذكرات؟ أكتبها للمستقبل؟ أم للأجيال القادمة؟ وأطرق للحظة وهو يُفكر في هذا التاريخ المشكوك في صحته والذي دَوَّنَه في صدر الصفحة الأولى، وسرعان ما امتدت يده ليتناول قاموس اللغة الجديدة ويبحث باهتمام عن كلمة «التفكير المزدوج»، فلاوّل مرّة يستشعر خطورة ما هو مُقدم عليه، وتساءل في نفسه: كيف يمكن أن يتسنى له الاتصال بالمستقبل؟ إن مثل هذا العمل مستحيل في حدّ ذاته، إذ إن المستقبل إمّا أن يكون شبيهًا بالحاضر وبالتالي لن يتجاوب معه، أو مغايرًا له وحينئذ لن يكون لتكهّناته التي يعيش من أجلها أي معنى.

مضت لحظات وهو يُحدّق في الورقة التي أمامه ببلادةٍ. وكانت «شاشة الرصد» قد انتقلت لإذاعة موسيقى عسكرية صاخبة، وقد تولاه الفزع ليس لأنّه فقد القدرة على التعبير عمّا تجيش به نفسه فحسب، بل لأنّه نسي كليًا ما كان يعتمل في صدره، ويهيج له نفسه منذ أسابيع. لقد كان يظن أنّه لن يحتاج إلى شيءٍ آخر غير الشجاعة والإرادة. بيد أنّه في هذه اللحظة بدا له لو أن ينابيع الأفكار قد جفّت، بل لقد بدأ يشعر بألم الدوالي في ساقه اليمنى، ولم يجرؤ على حكها خوفًا من أن تلتهب كالسابق.

وفجأةً وجد نفسه يكتب، وقد تملّكته حالة من الرُّعب، لم يكن يُدرك تمامًا ما كان يفعله. كان خط يده الشبيه بخط الأطفال يميل في تعرّجاتٍ إلى أعلى وإلى أسفل وقد انفصلت الأحرف الأولى والنقط وعلامات الوقف عن الكلمات وقد كتب ما يلي:

«الرابع من أبريل» نيسان «1984» ذهبت إلى إحدى دور السينما وكانت جميع الأفلام التي تُعرض أفلامًا حربيةً، وكان الفيلم الذي يلقي إقبالاً هو ذلك الذي في مشهدٍ منه سفينة ضخمة تتعرّض وهي مُحَمَّلة باللاجئين لقصف القنابل في مكانٍ ما بالبحر المتوسط، وقد سرّ المتفرجون بمنظر

رجل ضخم يحاول النجاة بنفسه ويبتعد عن السفينة الغارقة فيما تلاحقه إحدى الطوَّافات.

في بادئ الأمر بدا وكأنه سلحفاة تسبح في الماء بصعوبة، إلى أن أمطر رماة الطوَّافة بطلقات ملأت جسمه بالثقوب فاصطبغ البحر من حوله بالأحمر القاني، ثم غرق فجأة كما لو أنَّ المياه قد تسربت داخله عبر الثقوب، وانفجر المشاهدون ضحكًا عندما كانت المياه تبتلعه.

ثمَّ رأيت قارب نجاة مُحمَّلًا بالأطفال وتلاحقه طوَّافة، وقد جلست في مقدمة المركب امرأة في أواسط عُمرها، ربما تكون يهودية؟ وكانت تحتضن طفلًا في الثالثة من عُمره وهو يصرخ خوفًا وهلعًا بينما يمسُّ رأسه بين ثدييها، وكأنه يُريد أن ينفذ إلى داخلها، والمرأة تُحيطه بذراعيها وتلاطفه رغم أنَّها كانت هي الأخرى ترتعد خوفًا ورُعْبًا. لقد كانت تحاول طوال الوقت أن تحتضن جسده لعلَّ ذراعيها تدرآن عنه طلقات مدافع الطائرات.

في هذه اللَّحظة أَلقت الطوَّافة قذيفة زنة 20 كيلو جرامًا على القارب فغرق بمنَّ فيه، ولم يظهر منه غير ذراع طفل تطاير إلى أعلى في الهواء، وقد بدا أنَّ الطوَّافة تحمل آلة تصوير في مقدمتها. وهنا علا التصفيق من مقاعد رجال الحزب، غير أنَّ امرأة من النساء الجالسات في مقاعد العمال أخذت تضرب الأرض برجليها وهي تصرخ: «لا يجوز عرض هذه المشاهد بحضور الأطفال». واستمرت في ذلك حتى تدخل رجال الشرطة وأخرجوها من القاعة، ولا أظنَّ أنَّ مكروهاً قد أصابها بسبب ذلك فليس ثمة من يابه أو يهتم لما يقوله الفقراء».

هنا توقف «ونستون» عن الكتابة وأغلب الظنَّ أنَّه كان يتألَّم من الدوالي ولم يكن يدري ما الذي جعله يكتب مثل هذا الهراء. غير أنَّ الشيء الغريب هو أنَّه بينما كان يقوم بذلك إذا بحادثة تلمع بجلاءٍ في ذاكرته إلى حدِّ أنَّه

انكبَّ على كتابتها بلا تردُّدٍ، وقد كانت تلك الواقعة كما تبَيَّن له هي التي دفعته لأن يُسرَّع إلى المنزل ويُسرع في تسجيل مذكراته في هذا اليوم.

لقد حدثت تلك الواقعة في صباح ذلك اليوم حينما كان موجودًا بالوزارة، إذا صحَّ أنَّ أمرًا غامضًا كهذا يمكن أن يحدث.

كانت السَّاعة قد قاربت الحادية عشرة، وفي دائرة السجلات حيث يعمل «ونستون»، كان الموظفون يجزُّون المقاعد من مكاتبهم حيث يصفُّونها في وسط القاعة المواجهة لـ «شاشة الرصد» استعدادًا لبدء فعاليات «دقيقتي الكراهية». كان «ونستون» قد اتخذ له مقعدًا في الوسط عندما دلف إلى القاعة شخصان يعرفهما من بعيد وإن لم يسبق له أن تكلم مع أيهما من قبل. لم يكن ثَمَّة أحد ينتظر قدمهما، أحدهما فتاة طالما التقاها في الممرَّات لم يكن يعرف اسمها، ولكنه كان يعرف أنَّها كانت تعمل في «دائرة الإثارة»؛ لأنَّه طالما رأى يديها ملطختين بالزيت وتحمل بعض المفكات أحيانًا. حيث تعمل في قسم الميكانيكا على إحدى الآلات الخاصَّة بطباعة الروايات. كانت فتاة جريئة الطلة، وفي السَّابعة والعشرين من العُمُر، شعرها كثيف ووجهها فيه نمش وحركاتها سريعة تنم عن جسم رياضي. وكانت تتمنطق بحزام قرمزي يحمل شارة «رابطة الشبيبة المناهضين للجنس»، وكان الحزام ملفوفًا عدة لفات حول خصرها.

وقد نفر منها «ونستون» من أوَّل نظرة. وكان سبب ذلك معرفته بالأجواء التي تُحيط بها، وبغيرها، أجواء ملاعب الهوكي، وحمامات الماء البارد، والرحلات الجماعيَّة، وعقيدة العفَّة التي كانت تعتنقها. لقد كان يمقت كُلَّ النساء تقريبًا وعلى الأخصَّ الشَّابات الجميلات منهن، فقد كن أكثر أعضاء الحزب إخلاصًا وتمسُّكًا بمبادئه، فمنهن الجاسوسات اللواتي يتلصَّصن على الناس ويحشرون أنوفهن بكُلِّ صغيرة وكبيرة بحثًا عن أي مظهر من

مظاهر الانحراف عن مبادئ الحزب. ولكن هذه الفتاة بصورةٍ خاصّة، كانت تبدو أخطرهن، ففي إحدى المناسبات عندما التقاها مصادفة في الممرِّ رَمَقَتْهُ بنظرةٍ جانبيةٍ وحادة، شعر على أثرها كما لو كانت قد اخترقت قلبه وملاأته رُعباً، وقد خطر له أنّها ربما تكون عميلة من عميلات «شرطة الفكر». ومع أنّ ذلك الظنّ كان بعيد الاحتمال، فإنّه ظلّ يشعر بعدم الارتياح الممزوج بالخوف وبعدايةٍ إزاءها كلّما رآها على مقربةٍ منه.

وأما الشخص الآخر فكان رجلاً يدعي «أوبراين» وهو عضو في الحزب الداخلي، ويشغل منصباً ذا أهمية كبيرة وصلاحيات واسعة، ولم يكن لدى «ونستون» فكرة واضحة عن طبيعته أو منصبه. وما كاد الحضور يرى البزة السوداء التي يرتديها أعضاء الحزب الداخلي حتى خيم الصمت عليهم للحظة. كان «أوبراين» رجلاً ضخّم الجسم، قوي البنية، غليظ العنق، وذا وجه وحشي ساخر، ولكنه مع ذلك فقد كان يحظى بشيءٍ من الجاذبية ودماثة الخلق. وكان «ونستون» قد التقى «أوبراين» عشرات المرّات على مدى سنوات، وكان يشعر في أعماقه بشيءٍ من الانجذاب نحوه، ولم يكن سبب هذا الانجذاب راجعاً في الأساس للتناقض الواضح بين أخلاق «أوبراين» المهدبة وشكل جسمه الذي يشبه أبطال المصارعة، وإنما كان بسبب اعتقاد داخلي، أو مُجرّد أمل يحدوه بأنّ ولاء «أوبراين» السياسي للحزب لم يكن تامّاً. فقد كان ثمة شيء في وجهه يوحي بذلك إيحاء لا يقاوم، ولكن ربما كان ما يبدو على وجهه ليس انحرافاً عن ولائه للحزب وإنما كان مُجرّد ذكاء. على أي حال كان يتمنّع الرَّجل بمظهر يوحي بأنّه شخص يمكنك أن تتحدّث إليه مطمئنّاً إذا استطعت خداع «شاشة الرصد» والانفراد به.

تطلع «أوبراين» إلى ساعته فرأى أنّها قاربت الحادية عشرة، فقرّر البقاء داخل قسم السجلات إلى أن تنتهي فعاليات «دقيقتي الكراهية». وقد جلس على كرسي في الصّف نفسه الذي جلس فيه «ونستون» يفصل بينهما كرسيان

كان يشغل أحدهما امرأة ذات شعر رملي تعمل في مكتب مجاور لمكتب «ونستون»، في حين جلست الفتاة ذات الشعر الأسود خلفه مباشرة. وفي اللحظة التالية انبعث صوت مزعج ومخيف من «شاشة الرصد» في طرف القاعة. كان صوتًا تصطك له الأسنان ويقف له شعر الرأس. ولم يكن ذلك إلا إيدانًا ببدء فعاليات الكراهية.

وكما جرت العادة ظهر على الشاشة وجه «إيمانويل جولدشتاين» عدو الشعب فتعالت الصيحات من كل أنحاء القاعة في حين صدر عن المرأة ذات الشعر الذهبي صرخة امتزج فيها الخوف بالاشمئزاز. كان «جولدشتاين» هو ذلك الخائن المرتد الذي كان في وقتٍ ما (وليس من أحدٍ يعرف متى كان ذلك)، واحدًا من رموز الحزب القيادية، وكانت مكانته تُضاهي مكانة «الأخ الكبير» نفسه، ولكنه تأمر على الحزب وتورط في نشاطاتٍ مُعدية للثورة فحكم عليه بالموت، لكنه تمكن من الهرب في ظروفٍ غامضةٍ واختفى عن الأنظار. وكانت برامج «دقيقتي الكراهية» تتنوع من يوم إلى يوم، ولكن لم يكن هناك برنامج إلا و«جولدشتاين» هو محوره الرئيس، إذ كان أول خائن للثورة، وأول من سعى إلى تشويه الصورة المشرفة للحزب. وهو ما زال يعيش في مكانٍ ما يُدبرُّ المكائد، ربما يكون في مكانٍ ما وراء البحار حيث يعيش تحت رعاية أسياده الأجانب الذين يُقدمون له التمويل اللازم.

بسبب الضغوط، لم يكن «ونستون» يرى وجه «جولدشتاين» إلا ويتتابه خليط من المشاعر المفعمة بالألم، كان وجهه وجه يهودي، هزيل البنية، تعلو رأسه هالة من الشعر الأشيب، وله لحية أشبه بلحية «تيس». كان وجهه يوحي بذلك صاحبه لكنه في مجمله صورة للخسة المتأصلة، ويظهر فيه أنف طويل ساخر تركز عليه نظارتان، وكان أشبه ما يكون بوجه خروف، وصوته كالغناء.

كان «جولدشتاين» يُلقي كالعادة خطابه الذي يشن فيه هجوماً ضارياً شريفاً على مبادئ الحزب، وكان هجومه مليئاً بالتحامل والمبالغات إلا أنها مع ذلك كانت معقولة لدرجة تُثير الفزع لدى المرء حينما يتنبه إلى أن هناك أناساً بسطاء، وأقل إدراكاً لحقائق الأمور، قد ينخدعون بها. كان يصيح متهجباً على «الأخ الكبير»، ويستنكر دكتاتورية الحزب، ويُطالب بإرساء السَّلام مع «أوراسيا» على الفور، كما كان يُطالب بحُرِّيَّة التعبير، وحُرِّيَّة الصحافة، وحُرِّيَّة عقد الاجتماعات، وحُرِّيَّة الفكر. وكان بحماس هستيري يُندد بالخيانة التي تعرَّضت لها الثورة من الداخل. كُلُّ ذلك بكلماتٍ سريعة متلاحقة في محاكاةٍ للأسلوب الخطابي الذي اعتاده خطباء الحزب، بل وكانت خطبة تتضمَّن كلمات من اللغة الجديدة تفوق ما اعتاد على استخدامه أي من أعضاء الحزب أنفسهم. وفي أثناء ذلك، ومخافة أن يكون البعض قد انخدع بكذبة، كانت تظهر على الشاشة وراء رأس «جولدشتاين» جحافل جرارة من جنود «أوراسيا»، صفوفٌ متراصةٌ من رجالٍ ذوي وجوه كالحة وحشية يظهرون على وجه الشاشة. وكان الإيقاع الرتيب لأحذيتهم العسكرية بمثابة الخلفية الصوتية لخطاب «جولدشتاين».

وقبل أن تمضي الثلاثون ثانية الأولى من فعاليات الكراهية، بدأت تتعالى صرخات غاضبة متفجرة من نصف الحضور في القاعة، إذ كان الوجه الأشبه لوجه الخروف والمعتد بنفسه لدرجة الغرور فضلاً عن الفزع الذي تثيره مشاهدة جيش «أوراسيا» على الشاشة أكثر ممَّا يمكن أن يحتمل، هذا إلى جانب أن رؤية «جولدشتاين» أو حتى مُجرَّد التفكير فيه كانت تملأ قلوب المشاهدين بحالةٍ من الخوف والغضب.

والغريب في الأمر أن «جولدشتاين» هذا، ورغم كونه مكروهاً من الجميع، ورغم أن نظرياته كانت في كُلِّ يوم تتعرَّض للنقد وتصبح مثاراً للاستهزاء على صفحات الصحف و«شاشات الرصد» ومنابر الحزب،

بالرغم من كُلِّ هذا، كان تأثيره شديدًا. فقد كان هناك دائمًا أفراد ينخدعون به، فلا يكاد يمرَّ يومٌ إلَّا وتلتقي «شرطة الفكر» القبض على جواسيس ومخربين يعملون تحت إمرته. لقد كان «جولدشتاين» قائدًا لجيش خفي وشبكة من المتآمرين تعمل في الخفاء ولا هدف لها إلَّا الإطاحة بنظام الحكم، والتي كان يُعتقد أنَّها تسمى بـ«رابطة الأخوة». كذلك كان الناس يتهامسون ويتناقلون القصص حول كتاب مُخيف يضمُّ كُلَّ الهرطقات⁽¹⁾ التي أَلَّفها «جولدشتاين»، والتي يتم تداولها بصورةٍ سريةٍ هنا وهناك. كان كتابًا بلا عنوان ولذا كان الناس يشيرون إليه، إذا أشاروا إليه أصلاً، باسم الكتاب.

وفي الدقيقة الثانية تصاعدت الكراهية حتى صارت سعارًا، وراح الناس يشبون إلى أعلى من مقاعدهم ثُمَّ يجلسون وهم يصيحون بأعلى صوتهم حتى يطغى على الصوت الثغائي الصادر من «جولدشتاين» من الشاشة.



وكان وجه المرأة الصغيرة ذات الشعر الذهبي قد احتقن واكتسى باللون الأحمر القاني فيما كان فمها يفتح ويُغلق كسمكةٍ طرحها الموج على الشاطئ. وكذلك احمرَّ وجه «أوبراين» الضخم. أمَّا «ونستون»

الجماهير تعيش دقائق الكراهية فكان يجلس منتصبًا فوق مقعده فيما كان صدره يعلو ويهبط مع كُلِّ شهيق وزفير كما لو كان يتأهب لمواجهة موجة عاتية. وراحت الفتاة ذات الشعر الأسود التي تجلس خلف «ونستون» مباشرة تصرخ: «وغدا.. وغدا..». ثُمَّ

(1) الهرطقة أو الزندقة heretic، هي تعيُّر في عقيدة أو منظومة معتقدات مستقرة، و خاصَّة الدين، بإدخال معتقدات جديدة عليها أو إنكار أجزاء أساس منها، بما يجعلها بعد التغير غير متوافقة مع المعتقد المبدئي الذي نشأت فيه هذه الهرطقة. (المعد).

فجأة التقطت معجماً للغة الجديدة وقذفت به الشاشة. وفي هذه اللحظة وجد «ونستون» نفسه يصرخ مثل الآخرين ويضرب الأرض وحافة المقعد بقدميه في عنفٍ.

ولعلّ أفظع ما في «دقيقتي الكراهية». هو أنّ المرء لم يكن مجبراً على تمثيل دور ما، ومع ذلك كان من المستحيل عليه أن يتجنّب الانخراط في هذا المشهد، ففي غضون ثلاثين ثانية لن تصبح المشاركة في «دقيقتي الكراهية» بالأمر الضروري، ذلك أنّ نشوة من الخوف والرغبة في القتل والانتقام والتعذيب وتهشيم الوجوه بالمطرقة، كانت تتمكّل الحضور وتسري في أوصالهم وكأنّها تيار كهربائي يدفع المرء رغماً عنه للصراخ والصياح كمنّ أصابه مسّ من الجنون. ومع هذا فإنّ الغضب الذي كان يشعر به المرء آنذاك كان انفعالاً طائشاً وغير مُحدّد الوجهة ومن الممكن تحويله من وجهةٍ إلى أخرى مثل لسان لهب متصاعد. وهكذا لم تكن كراهية «ونستون» في لحظة من اللحظات موجهة ضدّ «جولدشتاين» إطلاقاً، وإنما على النقيض من ذلك كانت موجهة ضدّ «الأخ الكبير»، والحزب، وضدّ «شرطة الفكر»، ففي مثل هذه اللحظات كان قلبه يخفق تعاطفاً مع هذا المنبوذ الذي يظهر على الشاشة متهمّاً بالهرطقة، وهو الوحيد الذي يقف حامياً للحقيقة والحكمة في عالم زاخر بالأكاذيب والتزوير. ومع ذلك فقد كان في اللحظة التالية يشعر بما يشعره الآخرون نحو «جولدشتاين» وبأنّ كلّ ما قيل عن «جولدشتاين» هو حقيقة لا ريب فيها. وفي تلك اللحظات كان مَقْتَهُ وكُرْهُهُ الملعون لـ «الأخ الكبير» ينقلب إعجاباً يُقارب العبادة، وكان «الأخ الكبير» حينذاك يعلو مقاماً ويصيح كحامي الحمى الجسور الذي لا يُقهَر وكأنّه طود عظيم يقف في وجه جحافل الجيوش الزاحفة من آسيا. بينما «جولدشتاين»، ورغم العزلة التي فُرِضت عليه وحالة العجز التي يعيشها بل ووجوده الذي أصبح موضع شكٍّ فإنّه يبدو مثل ساحر شرير قادر بقوة صوته أن يقوض ببيان الحضارة.

لقد كان بمقدور المرء أن يُحوّل كراهيته بهذا الاتجاه أو ذاك بمحض إرادته. وفجأةً وبالقوّة العنيفة التي يرفع المرء بها رأسه من على الوسادة حينما يستولي عليه كابوس، استطاع «ونستون» أن يُحوّل كراهيته من الوجه الظاهر على الشاشة إلى تلك الفتاة ذات الشعر الأسود الفاحم الجالسة وراءه، وطاقف برأسه تخيّلات جميلة وقوية. كانت تراوده الرّغبة في أن يضربها ضرباً يفضي بها إلى الموت بهراوة من المطاط، أو يُقيّد عارية إلى عمودٍ ثمّ يرميها بزخّة من السّهام مثل القديس «سباستيان». كم ودّ لو استطاع أن يغتصبها، ثمّ يحزّ رقبتها عند بلوغه لحظة النشوة. والآن أدرك «ونستون» أكثر من ذي قبل سبب كراهيته لها، لقد كان يبغيها لجمالها وصغرها وعزوفها عن الجنس، ولأنّه كان يمني نفسه بأن يكون معها في فراش واحدٍ لكن ذلك لم يكن ممكناً، فقد كانت تُحيط خصرها الممشوق الناعم الذي كان يغري المرء أن يلف ذراعه حوله، بحزامٍ قرمزي كرية هو رمز العقّة.

وبلغت الكراهية ذروتها، عندما تلاشى وجه «جولدشتاين» ليحلّ محله وجه جندي من جنود «أوراسيا» كان يندفع كالعملاق فينشر الرّعب وهو يحمل في يده بندقيّة آلية تهدر، ويبدو وكأنّه سيثب من الشاشة، حتى أنّ بعض المشاهدين الذين كانوا في المقاعد الأمامية كانوا يجفلون للوراء وهم في مقاعدهم. ولكن وفي اللحظة نفسها يتنفس الجميع الصعداء إذ تلاشت هذه الصورة وحلت محلها صورة «الأخ الكبير» بشعر رأسه الأسود وشاربه الكث ورزائنه الغامضة وقوّته الفياضة وكان وجهه من الضخامة بحيث ملأ الشاشة كلّها. لم يكن ثمة مَنْ يسمع ما كان يقوله «الأخ الكبير». فقد كانت مُجرّد كلمات تشجيعية معدودة من تلك التي يُتمتم بها في معمعة المعارك، بيد أنّها كانت تُعيد الثقة إلى النفس بمُجرّد التلفظ بها. ثمّ تلاشى وجه «الأخ الكبير» وظهرت شعارات الحزب الثلاثة بأحرفٍ بارزةٍ كبيرة:

الحرب هي السلام.

الحُرّيّة هي العبوديّة.

الجهل هو القوة.

لكن وجه «الأخ الكبير» ورغم زواله من الشاشة بقي منطبعا عليها لثوانٍ أخرى، كما لو أن تأثيره الذي تركه في أعين الحضور أقوى من أن ينمحي دفعةً واحد وعلى الفور. أمّا المرأة ذات الشعر الذهبي فقد انحنت في مقعدها إلى الأمام وصدرت عنها همهمة كأنّها تقول: «أيها المخلص». ومدّت ذراعيها باتجاه الشاشة، ثمّ دفنت رأسها بين راحتيها وكان يبدو من ذلك أنّها تتلو بعض الصلوات.



وفي هذه اللّحظة انخرط جميع الحاضرين في ترديد إيقاعي لترنيمة: الكبير.. الكبير. كانوا يرددونها ببطء ووضوح ويتوقفون للحظاتٍ بين المرّة والأخرى، كان صوت الهمهمة

ثقيلًا ومفعماً بشيءٍ من البربرية، ومن خلفيته كان ينبعث صوت يحسبه السامع وقع أقدام عارية أو دقات طبول بعيدة. استمر ذلك الصوت ثلاثين ثانية. إنّهُ عبارة عن لازمة تكرارية كتلك التي تُسمع عادةً في لحظات الانفعال الغامرة، أو ترنيمة تتغنى بحكمة «الأخ الكبير» وجلاله. والأرجح أنّه شكل من أشكال التنويم الذاتي المغناطيسي وحالة من تغييب الوعي من خلال الإيقاعات الرتيبة.

أمّا «ونستون» فقد بدا أنّ البرد قد أخذ يسري منه حتى نفذ إلى أحشائه، ومع ذلك لم يكن أمامه بُدٌّ من المشاركة في حالة الهيجان العامّة. أمّا تلك الترانيم: الكبير.. الكبير، فقد كانت دائماً تملؤه رُعباً. نعم لقد كان يُرنم مع الآخرين، فقد كان مستحيلاً أن يفعل غير ذلك، فأُن تخفي مشاعرك الحقيقية وأنّ تتحكّم في انفعالات وجهك، وأنّ تفعل ما كان يفعله كلّ شخص آخر، كلّ ذلك كان فعلاً غريزيّاً. ولكن هنالك لحظات يمكن فيها أن تكون

تعبيرات عينيه قد كشفت حقيقته. وفي هذه اللحظات تحديداً حدث ذلك الشيء المهم. هذا إن كان قد حدث فعلاً.

لقد التقت عيناه بعيني «أوبراين» الذي كان قد انتصب واقفاً وهو يرفع نظارته عن أنفه ثم يُعيد تثبيتها بإيماءته المميزة. ورغم أن عيونهما لم تلتق إلا لأجزاء من الثانية فقد كان ذلك كافياً حتى يدرك «ونستون» أنَّ «أوبراين» كان يُفكر في نفس ما يُفكر فيه «ونستون». لقد كانت تلك النظرة بمثابة رسالة لا يمكن أن يخطئها المرء وبدا كما لو أن عقل كُلٍّ منهما قد انفتح على عقل الآخر فتدفقت الأفكار من واحد لآخر عبر عيونهما. وخيّل لـ«ونستون» أنَّ «أوبراين» يقول له: «أنا معك، إنني على معرفة دقيقة بمشاعرك، وأعرف كُلَّ شيء مما تضمّره من ازدراءٍ وكراهيةٍ واشمئزاز، ولكن لا عليك فأنا في صفك!». عندئذ خبا بريق التخاطر الفكري وبدا وجه «أوبراين» خلواً من أي تعبير كسواه من وجوه الآخرين هذا كُلُّ ما حدث. ولم يكن «ونستون» متأكداً من أنَّ كُلَّ ذلك قد حدث فعلاً؛ لأنَّ مثل هذه الحوادث تمرّ عادةً دون أن تكون لها نتائج، وكُلُّ ما فعلته هو أنَّها أبتقت على اعتقاده أو أمله بأنَّ هنالك أيضاً آخرين لديهم مشاعر العداء نفسها نحو الحزب. ولربما كانت الشائعات عن وجود مؤامرات سرية واسعة النطاق صحيحة، بل ربما كانت «رابطة الأخوة» موجودة حقاً. لقد كان من المستحيل على المرء، بالرغم من الاعتقالات اللانهائية والاعترافات المتتالية وأحكام الإعدام، أن يؤمن بأنَّ الأخوة إنَّ هي إلا خرافة.

وكان «ونستون» يؤمن أحياناً بوجودها، وأحياناً بعدم وجودها. لم يكن هنالك دليل، بل مُجرّد شائعات قد تعني شيئاً وقد لا تعني شيئاً، فالمكالمات المسترقة، أو الكتابات المسجلة على جدران المراحيض العامة، أو حتى لقاء غريبيين، أو إشارة يد تبدو أنَّها إشارة سرية للتعارف، كُلُّ ذلك مُجرّد تكهّنات ومن المحتمل جداً أن يكون الأمر كُلُّه محض خيال لا يوجد إلا في مخيلة «ونستون».

عاد «ونستون» إلى مكتبه دون أن يلتفت مرّة ثانية إلى «أوبراين»، ولم تخطر بباله فكرة متابعة هذا التواصل العابر. كان الأمر ينطوي على مخاطر شديدة حتى لو عرف كيف يحتاط لها، لقد تبادلا نظرة غامضة وخاطفة لم تدم أكثر من ثانيتين وهذا كان كلّ ما في الأمر، ولكن حتى ذلك الأمر العابر كان حدثاً يستحق الذكر في مثل هذا الجوّ الانعزالي الذي كان يتحتّم على المرء العيش فيه.

نهض «ونستون» من مقعده ثمّ جلس منتصباً، ثمّ تجشأ، فقد كان الشراب يغلي في معدته. أعاد التحديق في الصّفحة التي أمامه فاكشف أنّه عندما كان مستغرقاً في التفكير كتب على الصّفحة شيئاً ما بدافع عفوي لا إرادي، ولم تكن الكتابة هذه المرّة كذلك التي كانت حروفها غير مقروءة جيداً، فقد جرى قلمه هذه المرّة بسهولة على الورق الناعم وبأحرف كبيرة أنيقة:

ليسقط «الأخ الكبير».

ليسقط «الأخ الكبير».

ليسقط «الأخ الكبير».

ليسقط «الأخ الكبير».

وظلّ يكتب هذه العبارة حتى ملأ بها نصف الصفحة. وما إن استفاق لما يخطه بيده تملكه شعور بالفزع والهلع. إنّ الأمر لا يعدو أن يكون هراء؛ إذ إنّ كتابة هذه الكلمات لم تكن أشدّ خطراً من مُجرّد اقتنائه مفكرة والبدء في تسجيل مذكراته. وقد راودته الرّغبة في تمزيق الصفحات التي كتبها ومن ثمّ التخلي عن ذلك المشروع المغامرة برمته.

ولكنه لم يفعل ذلك لإدراكه أنّ تمزيقها لن يجدي نفعاً، وسيان لو كتب: «ليسقط الأخ الكبير» أو أحجم عن كتابتها، وسواء احتفظ بالمفكرة أو لم يحتفظ بها، فإنّ «شرطة الفكر» ستعتقله. فقد اقترف، وما زال يقترب جرماً، بل وحتى لو لم يضع القلم على الورق فقد اقترف أمّ الجرائم التي تنطوي

على جميع الجرائم، إنهم يطلقون عليها «جريمة الفكر»، وهي جريمة ليست بالأمر الذي يمكن إخفاؤه إلى الأبد، فربما يمكنك مواراتها عن العيون لحين من الزمن أو لسنوات ولكن إن عاجلاً أو آجلاً لا بد أن تقع في قبضتهم.

كانت الاعتقالات تقع دائماً تحت جنح الليل، حيث يفزع صاحب الجرم من نومه على يد خشنة تهزه بغلظة، فيفتح عينيه على ضوء ساطع مُسلط على عينيه ليجد مجموعة من رجال ذوي وجوه عابسة يتحلقون حوله وهو ما يزال في فراشه. وكانت أغلب هذه الحالات تمرّ دون محاكمات أو حتى محاضر اعتقال، حيث كان الناس يخفون أثناء الليل.

وكان اسمك يشطب من السجلات وتشطب معه كل شيء يتعلق بك أو لك فيه ذكر، حتى إن النكران يطال فكرة وجودك أصلاً ثم يتم نسيانك لقد انتهيت، ثم تلاشي ذكرك وكأنك تبخرت، نعم إنك تبخرت. لقد كانت هذه هي الكلمة التي يصفون بها عادة ما حدث.

وانتابت «ونستون» للحظة من الزمن نوبة هستيرية، وراح يكتب بسرعة وبخط متعرج: سيرموني بالرصاص بيد أنني لا أبالي. سيطلقون النار عليّ من الخلف غير أنني لا أبالي وليسقط «الأخ الكبير»، إنهم دائماً يطلقون النار عليك من الخلف لكنني لا أبالي ليسقط «الأخ الكبير».

ثم اتكأ في مقعده وقد شعر ببعض الخجل من نفسه، ووضع القلم جانباً. وفي اللحظة التالية استأنف الكتابة بنشاط ولكن سرعان ما سمع طرقاً على الباب.

ظل «ونستون» على سكونه كفأر مذعور في جحره، يحدوه أمل وإيه بأن الطارق سينصرف بعد المحاولة الأولى، بيد أن الطرق توالى ولأن أسوأ ما يمكن أن يفعله في مثل هذا الظرف هو التلكؤ في الاستجابة، فقد أخذ قلبه يدق كالطبل. ولكن وجهه كان بحكم العادة جامداً وخلواً من أي تعبير.. ثم وقف ومشى متثاقلاً صوب الباب.

جواسيس من الأطفال الصغار!!

Spies of young children

عندما وضع «ونستون» يده على مزلاج الباب تذكر أنه ترك المفكرة على الطاولة مفتوحة، وعبرة «ليسقط الأخ الكبير» تكاد تغطي الصفحة بأحرف كبيرة بما يكفي لقراءتها عن بُعد. وهنا تنبه إلى أنه ارتكب حماقة تفوق الوصف، لكنه حتى مع هذا الفزع الذي انتابه لم يكن يريد طي الغلاف قبل أن يجفّ الحبر خشية أن تتلطخ الورقة.

استجمع شجاعته ثم فتح الباب، وسرعان ما استشعر موجة من الارتياح تسري في أوصاله، فالذي كان يطرق الباب امرأة شاحبة اللون، وذات شعر أشعث، ووجه غارق بالتجاعيد. ابتدرته المرأة بصوت مبحوح حزين قائلة:

- آه أيها الرفيق لقد شعرت بقدمك، هل بإمكانك المجيء لمعاينة مغسلة مطبخي، فالبالوعة مسدودة؟

كانت هذه المرأة هي السيّدة «بارصون» زوجة جاره في الطابق نفسه. كانت امرأة في الثلاثين من عُمرها على وجه التقريب، ولو أنّها تبدو أكبر من ذلك.

سارت، فتبعها «ونستون» عبر الممرّ متململاً، فأعمال الصيانة هذه كانت مصدر إزعاج شبه يومي له؛ لأنّ كلّ الشقق في بناية النصر قديمة، حيث يعود تاريخ بنائها إلى عام 1930 أو ما يقرب من ذلك التاريخ، وكانت بناية متداعية، فالأنابيب تنفجر بفعل الصقيع، وكان نظام التدفئة لا يعمل إلّا

بنصف طاقته. وأمّا الإصلاحات فكان يجب أن تمرّ معاملاتها عبر لجان كانت تتلّكأ في تنفيذ أي شيء.

ثمّ قالت السيّدة «بارصون» معذرة:

- ما حصل كان بالتأكيد بسبب غياب طوم عن البيت.

كانت شقة عائلة «بارصون» أوسع من شقة «ونستون»، ووضيعة مثلها، ولكن تتميز بأنّ كلّ شيء فيها مهشم ومحطم، والكثير من مستلزمات الألعاب الرياضية ملقاة على الأرض كمضارب لعبة الهوكي وقفازات الملاكمة، وعلى الطاولة كومة من الأطباق المتسخة والدفاتر ممزقة الزوايا، أمّا على الجدران فكانت تظهر أعلام رابطة الشباب واتحاد الجواسيس بلونها القرمزي، بالإضافة إلى صورة ضخمة لـ«الأخ الكبير»، وكانت هناك أيضاً تلك الرائحة المعتادة، رائحة الكربن المسلوق، التي تنتشر في كلّ أرجاء المبنى تختلط معها رائحة عرق يُفرزه جسم شخص ما، بيد أنّ هذا الشخص لم يكن موجوداً بالغرفة في تلك اللّحظة. أمّا في الغرفة الأخرى فقد كان هنالك شخص ما يحاول العزف مُقلّداً إيقاع موسيقى عسكرية كانت لا تزال تبعث من «شاشة الرصد».

وقد أشارت السيّدة «بارصون» بعد أن أطلت إطلالةً خاطفةً من باب الغرفة المجاورة:

- إنهم الأولاد، لم يخرجوا من البيت هذا اليوم..

كانت مغسلة المطبخ ممتلئة حتى نصفها بماءٍ متسخ مائل للاخضرار. جثا «ونستون» على ركبتيه وراح يتفحص كوع الأبواب. كان يكره استعمال

يديه، كما يكره الانحناء؛ لأنَّ ذلك يُسبِّب له نوبات من السعال. بينما كانت السيِّدة «بارصون» تنظر إليه بائسة، وهي تقول:

- لو أن طوم كان موجودًا لاستطاع أن يصلحها في لحظةٍ، إنَّه يهوى القيام بمثل هذه الأعمال، إنَّه ماهر اليدين..

«بارصون» هذا هو زميل «ونستون» في وزارة الحقيقة، لقد كان رجلًا مائلًا للسمنة، نشيطًا، ولكن تبدو عليه ملامح غباء مستحکم، هو كتلة من الحماس الأحمق، وواحدٌ من ذوي الولاء الأعمى للحزب. في الخامسة والثلاثين من عُمره، أبعد كارهاً عن رابطة الشباب، وكان قبيل أن ينتسب إلى هذه المنظمة قد التحق باتحاد الجواسيس لمدة سنة. أمَّا في الوزارة فكان يشغل منصبًا ثانويًا لم يكن يتطلب منه أي قدر من الذكاء، غير أنَّه من ناحية أخرى كان من القياديين في الهيئة الرياضية، وكُلَّ الهيئات المعنية بتنظيم الرحلات الجماعية والاستعراضات وحملات الادخار، وكان بإمكانه أن يقول لك بكلِّ فخر، وهو يدخن غليونَه، إنَّه ظلَّ على مدى الأربع سنوات الماضية يحضر جلسات الملتقى المجتمعي كُلَّ مساء، ورائحة عرقه النفادة كانت شهادة كافية على نوع الحياة التي يحياها حيث ترافقه أينما حلَّ، بل ويتركها وراءه بعد انصرافه.

وضع «ونستون» يده على البالوعة باشمئزازٍ وقال:

- هل يوجد لديكم مفتاح ربط؟

- لا أدري..

أجابت السيِّدة «بارصون» على الفور بينما انحنى لتتنظر..

- لا أدري أين أجدُه فالأولاد غالبًا..

كان هنالك صوت وقع أقدام وجلبة يُسمع عندما اندفع الأولاد إلى غرفة الجلوس. وكانت السيّدة «بارصون» قد وجدت مفتاح الربط وجاءت به. وهكذا تمكّن «ونستون» من تسريب الماء من البالوعة بعد أن أخرج وهو متأفف كتلة شعر بشري كانت تتسبّب بانسداد الأنبوب. ثمّ غسل أصابعه بقدر المستطاع بماءٍ باردٍ من الصنبور، وتوجه إلى الغرفة الأخرى المجاورة للمطبخ. لكنه فوجئ بصوتٍ وحشيٍّ يزعق فيه قائلاً:

- ارفع يديك فوق رأسك..

كان الصوت لصبيٍّ جميل ذي مظهر خشن، في التاسعة من عُمره، اندفع من خلف الطاولة، وهو يُهدّد بمسدسٍ زائف، بينما كانت شقيقته التي تصغره بستتين، تُقلّده وفي يدها قطعة خشب. كلاهما كان يلبس سروالاً أزرق وقميصاً رمادي اللون ورباط عنق أحمر، وهو الزي الرسمي للجواسيس.

رفع «ونستون» يديه فوق رأسه متبرّماً، فقد كان مظهر الصبي العدواني يوحي بأنّ الحكاية ليست مُجرّد مزحة.

- أنت خائن.. (صاح الصبي).. إنّك مجرم فكر، إنّك من جواسيس أوراسيا، سأطلق عليك النار.. سأزيلك من الوجود..

وفجأةً بدأ يقفزان من حوله وهما يصيحان:

- الخائن.. مجرم الفكر..

لقد كان الأمر مخيفاً، إذ ذكره بمنّ يُداعب صغار النمر التي تتحوّل حينما تكبر إلى آكلة لحوم البشر. لقد كان يلمح شراسة متمنّرة في عيني الصبي، ورغبة واضحة في أن يرفس «ونستون» أو يضربه، فضلاً عن شعوره

بأنّه صار في سن تسمح له بذلك. أدرك «ونستون» بأنّ من حسن حظه أنّ المسدس لم يكن مسدسًا حقيقيًا.

كانت السيّدة «بارصون» تجول بناظرها ما بين «ونستون» وولديها وعلامات الارتباك بادية عليها.

- إنّهما يحدثان جلبة شديدة..

هذا ما علقت به، واستطردت تقول:

- لقد استاءا لأنّهما لم يخرجوا اليوم لمشاهدة أحد أحكام الإعدام شنفًا، هذا هو السبب، فأنا مشغولة ولا يسمح لي وقتي بمرافقتهم، و طوم لا يعود من عمله في الوقت المناسب.

- لماذا لا نذهب لمشاهد عملية الشنق؟

صاح الولد بصوتٍ زاعقٍ وغازب.

وتغنّت الصغيرة وهي ترقص مرّحًا:

- نريد مشاهدة الشنق! نريد مشاهدة الشنق!

لقد كانت ستجري بالفعل عملية شنق بعض الأسرى من «أوراسيا»، أسرى متهمين بارتكاب جرائم حرب، وذلك مساء في الحديقة العامّة.

تذكّر «ونستون» أنّ مثل هذا كان يجري مرّة كلّ شهر تقريبًا وكان مشهد يحظى بشعبيةٍ عاليةٍ. استأذن «ونستون» من السيّدة «بارصون» وأخذ طريقه إلى الباب، ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى شعر بأنّ شيئًا قد ضربه على ظهره ورقبته مُسبّبًا له ألماً مبرحًا، فالتفت في اللّحظة نفسها ليري السيّدة «بارصون» تجرّج ولدها إلى الورا عبر الممرّ، بينما كان الولد يهم بإخفاء مقلاع حصي في جيبيه. وما إن أوصل «ونستون» الباب وراءه حتى صرخ الولد:

- جولدشتاين..

ولكن ما ألم «ونستون» حقًا، هو ذلك الخوف البائس الذي ارتسم على وجه المرأة الرمادي.

عاد «ونستون» إلى شقته واجتاز «شاشة الرصد» إلى كرسي قرب الطاولة وهو ما يزال يتحسس رقبتة. كانت الموسيقى التي تنبعث من الشاشة قد توقفت وحلّ محلّها صوت عسكري جاف يقرأ بلهجة وحشية بيانًا عسكريًا.

أدرك «ونستون» أنّه مع مثل هذين الطفلين لا بدّ وأن تحيّا هذه المرأة التعسة حياة رُعب دائم. فلن تمرّ سنة أو سنتان إلّا وسيكون طفلهما قد انتظما في سلك الجاسوسية، يرصدان تحرّكاتهما ليل نهار ترقبًا لأي علامات انحراف عن نهج الحزب قد تظهر عليها. إنّ معظم الأطفال في هذه الأيام قد باتوا مصدر رُعب لأهلهم. وأسوأ ما في الأمر أنّ الصّغار بانضمامهم إلى منظماتٍ مثل: «اتحاد الجواسيس» كان يتم تحويلهم بشكل منهجي إلى رعا عغار لا يمكن ضبطهم، وهذا بدوره يقتل فيهم أي ميل إلى الثورة ضدّ نظام الحزب، بل على النقيض من ذلك سيصبحون عبيدًا للحزب. إنّ الأغاني، والمواكب، وحمل الرايات، والرحلات الجماعيّة، والتدريب على الأسلحة الزائفة، والتهاتف بحياة «الأخ الكبير»، كلّ ذلك كان نوعًا من اللّعب الممتع بالنسبة لهم. أمّا ضراوتهم وشراستهم فكانتا توجّهان إلى الخارج، إلى أعداء الدولة، إلى الأجانب والخونة ومجرمي الفكر. وكان أمرًا طبيعيًا لمن هم فوق سن الثلاثين أن يخافوا أولادهم، فلم يكن يمرّ أسبوع إلّا وتشر فيه جريدة «التايمز» قصّة تحت عنوان «بطلٌ صغيرٌ» تروي كيف استطاع البطل، أن يتنصت على والديه ويشي بهما لشرطة الفكر بنقله ملاحظة تضعهم موضع الشبهات.

في مكان يغمره النور

In a place flooded with light

كان ألم رقبة «ونستون» قد خف وزال، وعندما أمسك بقلمه متململاً، وهو يتساءل عما سيكتب في مفكرته، ولكنه فجأة وجد نفسه يُفكر في «أوبراين» مرة ثانية.

قبل سنوات، لا يعلم على وجه التحديد، ربما سبع سنوات، رأى فيما يرى النائم أنه كان يجول في غرفةٍ حالكة الظلام، فسمع شخصاً ما، على مقربةٍ منه، يقول له وهو يجتازه:

- سنلتقي يوماً في مكانٍ يغمره النور حيث لا ظلام.

قيلت هذه الجملة بمتمهي الهدوء والاتزان، كانت خبراً ولم تكن أمراً، مشي هذا المتكلم دون أن يتوقف. الغريب أن هذه الكلمات التي سمعها في الحلم لم تكن ذات وقع شديد عليه أوّل الأمر، بيد أن ما ترمي إليه من معانٍ أخذ ينجلي له رويداً رويداً فيما بعد. إنه لا يتذكر الآن ما إذا كانت رؤيته لـ «أوبراين» للمرة الأولى قد جاءت قبيل هذا الحلم أم بعده؟ ولا هو استطاع أن يتذكر ما إذا كان الصوت صوت «أوبراين» نفسه، ولكن على أي حال كان يظن أنه ميّز الصوت، وأن «أوبراين» هو الذي كلمه في الظلام.

لم يكن «ونستون» متأكداً، وحتى بعد تلاقي شعاع عيونهما في ذاك اليوم، ما إذا كان «أوبراين» عدواً أو صديقاً. بل حتى هذا التحديد لم يبدو ذا أهمية كبيرة له. لقد جمعهما رباط من التفاهم، رباط أقوى من رباط العاطفة أو

الحزبية: «سنلتقي يومًا حيث لا يكون ظلام». لم يكن «ونستون» أن يفهم ما الذي يعنيه بهذا القول، لكنّه كان يعتقد بأنّه بطريقةٍ أو بأخرى سيأتي هذا اليوم.

توقّف الصوت المنبعث من الشاشة وملأت هواء الغرفة الساكن موسيقى صوت بوق جميل وصاف. ثمّ عاد الصوت الذي يُثير الأعصاب، يقول:

- انتباه من فضلكم، أعيروني انتباهكم، وردنا تويًّا نبأ مهم من جبهة مالابار. إنّ قواتنا في جنوبي الهند قد أحرزت انتصارًا باهرًا. لقد خولتني السلطات أن أعلن أن تقدّمنا على هذه الجبهة، والذي نذيعه لكم الآن، سيُمكننا من وضع نهايةٍ لهذه الحرب، فإليكم ما ورد في هذه الإشارة..

وهنا خطر ببال «ونستون» أنّها مقدمة لأنباء سيئةٍ، وهكذا كان، إذ بعد الوصف المروع لعملية الإبادة التي لحقت بجيوش «أوراسيا» والأرقام المذهلة لأعداد القتلى والأسرى، أردف البيان بأنّ ابتداء من الأسبوع القادم سيتم خفض حصّة الفرد من الشيكولاتة من ثلاثين جرامًا إلى عشرين.

هنا تجشأ «ونستون» ثانيةً، كان مفعول الشراب آخذًا في الزوال مُخلفًا شعورًا بالخزي، أمّا الشاشة، ربما احتفالًا بالنصر أو للتغطية على نبأ تخفيض حصّة الشيكولاتة، فقد انتقلت فجأة لبث نشيد: «يا أوقيانيا كُلّ هذا من أجلك..»، وكان من المفروض عندما تسمع النشيد أن تقف في حالة الاستعداد، ولكن «ونستون» لم يكن في مجال رؤية الشاشة.

مشى «ونستون» نحو النافذة وظهره إلى «شاشة الرصد». كانت السماء ما تزال صافية والهواء باردًا. تنهى إلى سمعه صوت قذيفة صاروخية انفجرت بعيدًا محدثةً دويًّا رجّ الأرض رجًّا، لم يكن ذلك غير مألوف، ففي الوقت الحاضر يسقط ما بين عشرين وثلاثين من أمثال هذه القذائف على لندن أسبوعيًّا.

في الشارع كانت الريح ما تزال تتلاعب بالصورة المُعلَّقة، وكانت عبارة الاشتراكية الإنجليزية المنحوتة بكلمة «ش إنج»، كما نحتت في قاموس اللغة الجديدة تظهر وتخفي مع كُلِّ هبة ريح. ومعها المبادئ المُقدَّسة التي تُشير إليها: «التفكير الازدواجي، إمكانية تغيير الماضي».

وقد شعر «ونستون» وكأنَّه تائه في غاباتٍ قاتمةٍ في أعماق البحار، وقد ضلَّ في عالمٍ وحشيٍّ، حيث هو نفسه ذلك الوحش. لقد كان وحيداً، وكان الماضي ميتاً، والمستقبل مجهولاً، كيف له أن يتأكَّد ما إذا كان هنالك إنسان يقف إلى جواره؟ وكيف يعرف أنَّ هيمنة الحزب لن تدوم إلى أبد الدهر، وغيرها من تساؤلات، وفجأةً عادت الشعارات الثلاثة المكتوبة على واجهة وزارة الحقيقة للظهور أمامه:

الحرب هي السَّلام.

العبودية هي الحُرِّيَّة.

الجهل هو القوة.



أخرج من جيبه
قطعة نقد، كان على
أحد وجهها هذه

صورة الأخ الكبير تلاحقك وتراقبك

العبارات نفسها وقد

نقشت بأحرفٍ دقيقةٍ واضحةٍ، بينما نُقش الوجه الآخر وجه «الأخ الكبير». كانت عيناه حتى من خلال قطعة النقود، تلاحقناك.. على العملة، على الطوايع، حتى على أغلفة الكتب، على الأعلام، على ألواح الإعلانات في كُلِّ مكانٍ، ودائماً عيناه تراقبانك وصوته يحيط بك. وسواء كنت مستيقظاً أو نائماً، تعمل أو تأكل داخل منزلك أو خارجه، في الحمام أو في الفراش لا

فرق، لا مهرب لك. أنت لا تملك سوى تلك الستيمترات المكعبة داخل جمجمتك.

مالت الشمس نحو الغروب فانحسرت عن نوافذ وزارة الحقيقة الكثيرة، والتي بدت كثيبة وأشبه بكوي في أسوار قلعة. كان قلبه يرتجف أمام هذا الشكل الهرمي الضخم. رآه حصيئاً لا يمكن اقتحامه. مرّة ثانية تساءل: لمن يكتب ما يكتبه في مفكرته، أترأه يكتب للمستقبل أم للماضي؟ أكتب لعصر ربما لن يوجد إلا في خيالاته؟ وأمام عينيه لم يكن الموت فحسب يقف متربصاً، بل الفناء. والمفكرة ستتحول إلى رماد وهو نفسه سيموت ويتحول إلى بخار. لن يكون هنالك أحد غير «شرطة الفكر» يقرأ هذه الأفكار وذلك قبل أن تمحوها من الوجود والذاكرة معاً.

كيف يمكن أن تكتب للمستقبل، إذا كان لا يمكن لأي أثر أن يبقى لهذا المستقبل ولا حتى كلمة على قصاصة ورق مجهولة الكاتب؟

دقت ساعة الشاشة الثانية بعد الظهر، وعليه أن ينصرف في غضون عشر دقائق ليعود لعمله مرّة ثانية في الدقيقة الثلاثين بعد الثانية ظهراً.

أحس أن دقائق الساعة بدت كأنّها قد بعثت في كيانه روحاً جديدة، كان كشيح وحيد يتمتم بينه وبين نفسه بالحقيقة دون أن يسمعه أحد على الإطلاق، ولكن ما دام يمكنه الاستمرار في ذلك فإنّ هذه التمتمة ستتواصل فليس بمجرّد إسماع الآخرين صوتك بل ببقائك سليم العقل يمكنك مواصلة حمل التراث الإنساني. عاد «ونستون» إلى الطاولة وجلس على الكرسي ثم تناول القلم وبدأ يكتب: «إلي المستقبل أو الماضي، إلى الزمن الذي يكون الفكر فيه حرّاً طليقاً، إلى زمن يختلف فيه الأشخاص عن بعضهم البعض ولا يعيش كلّ منهم في عزلة عن الآخر، إلى زمن تظلّ الحقيقة فيه قائمة ولا يمكن فيه لأحد أن يمحو ما ينتجه الآخرون. وإليكم، من هذا العصر الذي

يعيش فيه الناس متشابهين متناسخين لا يختلف الواحد منهم عن الآخر. من عصر العزلة، من عصر «الأخ الكبير»، من عصر «التفكير المزدوج».. تحياتي.

شعر آنذاك كأنه في عالم الأموات، وبدا له أنه في هذه اللحظة فقط، لحظة بات فيها قادراً على صياغة أفكاره، قد اتخذ الخطوة الحاسمة. إنَّ عواقب كلِّ عمل تكمن في العمل نفسه. وكتب: «إنَّ جريمة الفكر لا تفضي إلى الموت، إنَّها الموت نفسه».

الآن وقد أدرك أنه ميت لا محالة أصبح من الأهمية له أن يبقى على قيد الحياة قدر ما يُتاح له ذلك. نظر إلى يده فوجد أنَّ أصبعين من يمينه كانت ملطختين بالحبر. وهذه هي بالضبط الأشياء الصغيرة التي يمكن أن تشي به. فربما بسبب ذلك يبدأ بعض المتحمسين للحزب في الوزارة امرأة مثلاً كتلك المرأة ذات الشعر الرملي، أو تلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة في التساؤل لماذا؟ ما الذي يجعله ينصرف إلى الكتابة ساعة الغداء؟ ثمَّ لماذا يستعمل هذا النوع القديم من الأقلام في الكتابة؟ ثمَّ ما الذي كان يكتبه يا ترى؟ ثمَّ ترسل بتلك التساؤلات إلى المسؤول المختص. فأسرع إذ ذاك إلى الحمام، وراح يحاول أن يُزيل الحبر بتلك الصابونة الخشنة التي تقشط الجلد قشطاً وكأنَّها صُنعت خصيصاً لهذه الغاية.

وبعد ذلك أعاد المفكرة إلى درج المكتب، ليس لأنَّ إخفاءها أمرٌ ممكن، فمن العبث أن يُفكَّر في ذلك، بل ليكون قادراً على معرفة ما إذا كان أحد توصل إليها أم لا. إنَّ شعرة يضعها على نهاية تلك الصَّفحة يمكن كشفها بسهولة، ولذلك التقط بطرف أسنانه ذرة غبار أبيض ووضعتها على إحدى زوايا الغلاف، حيث يكفي مُجرَّد تحريك المفكرة لإزاحتها عن الغلاف.

حلم الريف الذهبي

Dream of the Golden countryside

كان «ونستون» يحلم بأُمّه. حرَّك ذاك الحلم ذكراها في داخله، وفكَّر أنَّها لابدَّ قد اختفت وهو بعد في العاشرة أو الحادية عشرة من عُمره.

كانت امرأة طويلة ممشوقة القوام كتمثال، تميل إلى الصَّمت، بطيئة الحركة. ولها شعر أشقر جميل. بعدئذ تذكَّر والده على نحو أكثر تشوُّشًا، فيما يذكره عن والده أنَّه أسمر البشرة، نحيف، ويرتدي دائمًا ملابس سوداء أنيقة، ويضع نظارة على عينيه. وقد قضى والده نحبّه في إحدى موجات التطهير الواسعة التي جرت في الخمسينيات من القرن المنصرم.

أمَّا شقيقته فلم يكن يتذكَّر شيئًا عنها على الإطلاق فيما عدا أنَّها كانت طفلة نحيلة، ضعيفة، دائمة الصَّمت، وذات عَيْنين واسعتين شاخصتين.

كانت أُمُّه وشقيقته على سطح سفينة تغرق وتظران إليه عبر ظلمة المياه. كان ما يزال هناك بعض الهواء الذي تنفسانه، وما يزال باستطاعته أن يراهما وترياه وكانتا تغرقان إلى الأعماق السحيقة حيث المياه الخضراء التي ستوريهما عن الأنظار إلى الأبد. كان هو في الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس، أمَّا هما ففي الماء الذي يشدهما نحو الموت. لقد كانتا حيث هما لأجل أن يكون هو في مكانه الذي هو فيه. كان يدرك ذلك كما تدركانه، ويراه على وجهيهما. لم يكن هناك ملامة في قلبيهما نحوه، كأنَّهما تعرفان

أنَّه كان يجب أن تموتا من أجل أن يظلَّ هو على قيد الحياة. وكان هذا جزءًا من مسارٍ لا مفر منه.

وما خطر لـ«ونستون» هو أنَّ موت أُمِّه منذ ثلاثين سنة تقريبًا، كان مأساةً مُحزنة بشكلٍ لم يعد موجودًا. فالمأساة، كما يفهمها، باتت شيئًا يخص العالم القديم، لزمانٍ كان ما يزال أفراد العائلة الواحدة يقفون فيه جنبًا إلى جنب دونما حاجة إلى معرفة السبب. كانت ذكرى وفاة أُمِّه تُمزِّق قلبه، فقد كانت تُحِبُّه، وماتت وهي تُحِبُّه، فيما كان هو صغيرًا وأنانيًا أعجز من أن يُبادلها حُبًّا بحُبٍّ. ولسببٍ لا يعرفه.

لم يكن يتذكَّر كيف ضحَّت بنفسها في سبيل مفهوم من الولاء كان خاصًّا بها وغير قابل لأن يتزعزع. ورأى أنَّ أشياء كهذه لا يمكن أن تحدث في هذه الأيام التي باتت زمانًا للخوف والكرهية والألم.

كُلُّ هذا بدا له أنَّه يراه في عيون أُمِّه وأخته عندما كانتا تتطلعان إليه عبر المياه الخضراء، وهما تغرقان لأسفل. وفجأة رأى نفسه واقفًا على أرض يكسوها عشب في نهاية نهار صيفي. إنَّه المشهد نفسه الذي يتكرَّر مرارًا في أحلامه حتى بات يشكُّ فيما إذا كان قد رأى ذلك في اليقظة أم في المنام.

في أوقات اليقظة كان يُسمى هذا المشهد: الريف الذهبي. إنَّه مرعي قديم، كانت ترعى فيه الأرناب. وعلى السياج في الجانب المقابل من الحقل كانت أغصان شجر الدردار تتمايل على نحوٍ خفيف مع النسيم. وعلى مقربةٍ ينساب جدول صافٍ حيث تسبح الأسماك في بركٍ تحت أشجار الدردار.

وعبر الحقل، كانت الفتاة ذات الشعر الأسود تسير نحوه. وبحركةٍ واحدة نزعت ثيابها ورمتها جانبًا دون اكتراث. كان جسدها ناعمًا وبشرتها بيضاء لكن ذلك لم يثر فيه أدنى رغبة، بل إنَّه بالكاد تطلَّع إليها لكن الذي استهواه من ذلك كُلُّه هو تلك الحركة التي نزعت بها ثيابها وطوَّحت بها أرضًا.

فبرشاقتها وعدم مبالاتها بدا كأنها تقوِّض ثقافة كاملة وت نقد نظامًا فكريًا بكليته، كما لو أن «الأخ الكبير»، والحزب، و«شرطة الفكر» يمكن أن تذهب أدراج الرياح بحركةٍ بارعةٍ كحركة ذراعها. لقد كانت هذه الحركة أيضًا من بقايا الزمن القديم.. واستيقظ «ونستون».

كانت «شاشة الرصد» ترسل صغيرًا يصم الآذان استمر على وتيرة واحدة لثلاثين ثانية. وكانت الساعة تدق السابعة والربع وهو وقت استيقاظ العمال بالمكاتب. قفز «ونستون» من فراشه عاريًا، لبس على عجل بعض الملابس الداخلية المتسخة وسرولاً كان مُعلّقًا على كرسي. كانت فترة التمارين الرياضية ستبدأ في غضون ثلاث دقائق. وفي اللحظة التالية تملكته نوبة سعال عنيفة، كانت تتابه تقريبًا بعد استيقاظه، أجهدت رئتيه بشدة حتى أنه لم يكن يستطيع التنفس إذ ذاك إلا بعد أن يستلقي على ظهره ويشهق عدة شهقات عميقة. انتفخت عروقه من أثر السعال، كما بدأت الدوالي تؤلمه.

ثمَّ تعالى صوت أنثوي قوي لامرأة ترزق:

- المجموعات من ثلاثين إلى أربعين! رجاء، خذوا أماكنكم!

قفز «ونستون» متخذًا وضعية الاستعداد أمام الشاشة. ظهرت امرأة شابة نحيفة، لكنّها مفتولة العضلات ترتدي بذلة وحذاء رياضيًا، ثمَّ صرخت:

- مع ثني الذراعين ومدّهما، تابعوا معي، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. هيا أيها الرفاق، لتكن حركاتكم أكثر حيوية.. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

لم يصرف ألم السعال ذهن «ونستون» عن الانشغال بما أثاره ذلك الحُلم داخله. بل إنّ تلك الحركات المتناسقة من التمرين الرياضي قد أبقت على هذا التأثير. فبينما كان يُحرِّك بصورة آلية ساعديه إلى الأمام وإلى الوراء، إلى فوق وإلى تحت، فتظاهر بالانشراح، كان يحاول استرجاع تلك الفترة

من طفولته المبكرة، وكان ذلك صعبًا، فبعد الخمسين يتلشى كل شيء من الذاكرة وإذا لم يكن هناك سجلات يمكنك الرجوع إليها، فإنَّ خط حياة الإنسان قد يُمحي أثره من الذاكرة.

لا يذكر «ونستون» على وجه التحديد وقتًا لم تكن فيه بلاده في حالة حرب، ولكن كان من الثابت له أنَّه كان هنالك فترة طويلة من السَّلام قد تخللت طفولته لأنَّ من ذكريات طفولته الأولى يذكر غارة جوية فاجأت الجميع فجأة ربما كان ذلك عندما أُلقيت قنبلة ذرية على كولشيستر. وهو لا يذكر الغارة نفسها، لكنه يذكر يد والده وهي تقبض على يديه بينما كانا يهرعان نازلين إلى مكان عميق تحت الأرض على سُلَّم حلزوني. فيما أمُّه بحركتها الهادئة الحاملة كانت في صف طويل وراءهما وهي تحمل أخته الصغيرة، أو لعلَّ ما تحمله كانت صرة من البطانيات. فهو ليس متأكدًا ممَّا إذا كانت أخته قد وُلدت أم لا. أخيرًا وصلوا إلى مكانٍ مزدحم يعج بالضجيج، وهو حسبما أعتقد، محطة قطار أنفاق.

استطاع «ونستون» وأمُّه وأبوه أن يجدوا لهم مكانًا وسط الزحام، وبالقرب منهم كان رجل وامرأة طاعنين في السن يجلسان جنبًا إلى جنب على مقعدٍ. كان الرجل العجوز يلبس بذلة سوداء وقبعة من القماش الأسود تنحسر للوراء كاشفة عن شعر ناصع البياض.

كان وجهه قرمزيًا وعينه زرقاوين ومغروقتين بالدموع، وتنبعث منه رائحة الخمر وكأنَّها تفوح من جسمه وليس من الشراب. ورغم كونه ثملًا قليلًا، فإنَّه كان رازحًا تحت أحزان حقيقة لا تُحتمل. وبطريقته الطفولية أدرك أنَّ ثمة واقعة مؤلمة، واقعة لا يمكن غفرانها قد حدثت. وبدا له أيضًا أنَّه قد عرف السبب. شخصٌ ما كان يُحبُّه العجوز، ربما حفيدة صغيرة، قد قضت نحبها. وكان العجوز يتمتم من حينٍ لآخر قائلاً: «كان يجب ألاَّ نشعر بهم،

هذا ما قلته، أليس كذلك؟ هذا ما جنيناه من ثقتنا بهم، لقد كنت أقول ذلك دائماً، ما كان ينبغي لنا أن نشق بهؤلاء الأندال».

لكن مَنْ هم هؤلاء الأندال الذين ما كان عليهم أن يثقوا بهم؟ أمرٌ لم يعرفه «ونستون». منذ ذلك الوقت كانت الحرب متواصلة. ولو أننا أردنا الدقة فإنها لم تكن دائماً الحرب نفسها. فعلى مدى أشهر، أثناء طفولته، كان قتال عنيف يدور في شوارع لندن نفسها. ولكن التاريخ لا يأتي حتى على إشارة لتلك الفترة. مَنْ كان يُحارب مَنْ وفي أي وقت؟ أمرٌ كهذا مستحيل طالما أنه لا سجل مكتوب قد أتت على ذكر أي تحالفات غير تلك القائمة في الوقت الراهن. ففي هذه اللحظة مثلاً في 1984 (إن كانت هذه اللحظة فعلاً في 1984)، «أوقيانيا» في حرب مع «أوراسيا»، بينما تُحالف «شرق آسيا»، لكن ما من بيان عام أو خاص اعترف يوماً بأن القوى الثلاث قد أقامت تحالفات مختلفة عمّا هو قائم اليوم. ولكن «ونستون» عرف جيداً، أنه من أربع سنوات فقط كانت «أوقيانيا» في حرب مع «شرق آسيا»، ومتحالفة مع «أوراسيا». كان ذلك مُجرّد إدراك مبهم. فعلى المستوى الرسمي لم يحدث أي تغيير في التحالفات. فإذا كانت «أوقيانيا» في حرب مع «أوراسيا»، إذًا فإن «أوقيانيا» كانت دائماً في حرب مع «أوراسيا». ذلك أن عدو اللحظة الراهنة يمثل الشرّ المُطلق، وهذا ما يؤكّد أن وفاقاً في الماضي أو المستقبل كان في حكم المستحيل.

كان الشيء المخيف. الذي خطر بباله للمرّة الألف، هو أن يكون ما انتابه من مخاوف صحيحاً! لو أن الحزب يستطيع أن يضرب يده في الماضي ليقول إنَّ هذا الحدث أو ذاك لم يحدث أبداً، لو كان ذلك لكان أشدّ إفزاعاً من التعذيب أو الموت.

إن الحزب يقول إنَّ «أوقيانيا» لم تدخل في تحالف مع «أوراسيا»، بينما «ونستون سميث» يعرف أن «أوقيانيا» كانت في تحالف مع «أوراسيا» منذ

وقت قريب، ولكن مثل هذه المعلومات أين يمكن أن نجدها. إنها فقط في ضميره الذي لا يلبث أن يُسحق، وإذا قبل الناس الأكذوبة التي ألزمهم بها الحزب، وإذا كانت كُلُّ السجلات تحكي القصة نفسها، فإنَّ الأكذوبة تدخل التاريخ وتصبح حقيقة.

وإحدى شعارات الحزب تقول: «مَنْ يُسيطر على الماضي يُسيطر على المستقبل، وَمَنْ يُسيطر على الحاضر يُسيطر على الماضي». لكن الماضي، الذي هو في طبيعته قابل لإعادة النظر، لم يحدث أبداً أن تغيّر. فما هو صحيح اليوم كان صحيحاً منذ الأزل وسيبقى كذلك إلى الأبد. إنَّ الأمر في منتهى البساطة، فكلُّ المطلوب هو سلسلة لا تنتهي من الانتصارات في ذاكرتك. «الاستحواذ على الحقيقة»، أو كما يسمونها في اللغة الجديدة «التفكير الازدواجي».

- استرح.

صرخت المُدرّبة وهي تبسم قليلاً.

أرعى «ونستون» ذراعيه وملأ رثتيه بالهواء ببطءٍ، بينما كان عقله ينزلق في متاهات «التفكير الازدواجي».. أن تعرف وأن لا تعرف، أن تعي الحقيقة كاملة، ومع ذلك لا تفتأ تقصّ الأكاذيب مُحكمة البناء، أن تؤمن برأيين في آنٍ وأنت تعرف أنَّهما لا يجتمعان ومع ذلك تصدق بهما. أن تجهض المنطق بالمنطق، أن ترفض الالتزام بالأخلاق فيما أنت واحد من الداعين إليها. أن تعتقد أنَّ الديمقراطية ضرب من المستحيل، وأنَّ الحزب وصيّ عليها. أن تنسي كُلَّ ما يتعيّن عليك نسيانه، ثُمَّ ستحضره في الذاكرة حينما تمس الحاجة إليه، ثُمَّ تنساه مرّة ثانية فوراً. وفوق كُلِّ ذلك أن تطبق الأسلوب نفسه على الحاليتين. ذلك هو الدهاء الكامل، أن تفقد الوعي عن عمدٍ ووعي ثُمَّ تصبح ثانية غير واع بعملية التنويم الذاتي التي مارستها على نفسك. بل حتّى إنَّ فهم عبارة «التفكير الازدواجي» تستدعي منك اللجوء لـ «التفكير الازدواجي».

ومرة ثانية دعتهم المدرّبة لاتخاذ وضع الاستعداد:

- والآن دعونا نرى مَنْ منا يستطيع أن يلمس أصابع قدميه؟

نادت بحماس، ثم أردفت قائلة:

- ابدأوا من فوق الوركين، رجاء أيها الرفاق.. واحد، اثنان، واحد، اثنان..

كان «ونستون» يكره هذا التمرين الذي يُسبّب له آلاماً حادة. لم يكن له غير تأملاته، ما يجعله مسروراً إلى حدّ ما. إنّ الماضي كما تراه له، لم يتغيّر فحسب، بل اجتثّ من جذوره. إذ كيف يمكن أن تبرهن على أكثر الحقائق جلاءً حينما لا يكون لديك أي سجل لها خارج ذاكرتك؟

هنا حاول «ونستون» أن يتذكّر في أي سنة سمع للمرّة الأولى بـ«الأخ الكبير». يُخيّل إليه أنّ ذلك كان في الستينيات، لكنه من رابع المستحيلات أن يتأكّد من ذلك. ففي سجلات الحزب يصوّر «الأخ الكبير» طبعاً باعتباره زعيم الثورة وحاميها، والقيّم عليها منذ أيامها الأولى، ومآثره تتوغل تدريجياً في الماضي حتى وصلت إلى عالم الأربعينيات والثلاثينيات الخرافي، عندما كان الرأسماليون، بقبعاتهم الأسطوانية الغربية، مازالوا يسيرون في الشوارع بسياراتهم الفارهة أو عربات الخيول ذات الجوانب اللامعة. لم يكن أحد يعرف عن هذه الأسطورة ما هو الحقيقي وما هو المختلق، بل إنّ «ونستون» نفسه لم يستطع تذكّر التاريخ الذي جاء فيه الحزب إلى الوجود.

كان الضباب يحجب كلّ شيء. وكان بمقدورك أحياناً أن تضع يدك على أكذوبة مُحدّدة. فعلي سبيل المثال، تزعم كتب تاريخ الحزب أن الحزب هو أوّل مَنْ اخترع الطائرات، فيما «ونستون» يذكر الطائرات منذ طفولته الأولى، ولكن لا يمكن الحصول على برهان لنقض هذا الادعاء. مرّة واحدة في حياته وقعت يده على دليل وثائقي لا يمكن دحضه، برهان على تزييف حقيقة تاريخية. وفي تلك المناسبة.. هنا قاطعه صوت غاضب آتٍ من شاشة الرصد:

- سميث، يا سميث رقم 6079، نعم أنت، انحنِ أكثر إلى الأسفل، إنك تستطيع أن تؤدي أداءً أفضل، لكنك لا تبذل جهدًا كافيًا، انحنِ أكثر، هذا أحسن أيها الرفيق. الآن استريحوا جميعاً وراقبوني..

وفجأةً تصبَّب كلُّ جسم «ونستون» عرقاً حاراً، ومع ذلك بقي وجهه خلوًا من أي انفعال. فليس له أن يُظهر الخوف، وليس له أن يُظهر الاستياء. كان «ونستون» واقفًا يراقب بينما رفعت المُدرِّبة ذراعيها فوق رأسها ثم انحنت، ثم وضعت أصابع يديها تحت أصابع قدميها.

- هكذا يا رفاق.. هكذا أريدكم أن تفعلوا. راقبوني ثانية. أنا في التاسعة والثلاثين من عُمرِي ولديّ أربعة أطفال. الآن انتبهوا..
وانحنت ثانية:

- لاحظوا ركبتي غير مشنيتين، باستطاعتكم جميعاً أن تفعلوا مثلي إذا أردتم.

قالت ذلك وهي تنتصب ثانية:

- إنَّ أي شخص لم يتجاوز الخامسة والأربعين يمكن أن يلمس أصابع قدميه، فنحن الذين لم نحظ بشرف القتال على خطوط الجبهة، علينا على الأقل أن نبقي متمتعين باللياقة. تذكروا أبناءنا على جبهة مالابار! والبحارة على القلاع العائمة! فكروا فقط في كلِّ ما عليهم أن يتحملوه. والآن حاولوا ثانية، هذا أفضل يا رفيق.

قالت مشجعة حين نجح «ونستون» بعد جهد عظيم في ملاسة أصابع قدميه دون أن ينثني ركبتيه للمرة الأولى منذ سنوات عديدة.

رسائل للتزييف

Messages for counterfeiting

بتنهيدة عميقة ولا إرادية، بدأ «ونستون» عمله اليومي، سحب جهاز التسجيل باتجاهه. لبس نظارتيه، وأخرج أربع لفافات صغيرة من الورق وثبتها بمشجب.

في حجرة مكتبه كانت هنالك ثلاث فتحات، عن يمين جهاز التسجيل أنبوب هوائي صغير للرسائل المكتوبة. وعن يساره أنبوب أكبر للصحف، وفي الحائط الجانبي، كوة كبيرة مستطيلة الشكل ومغطاة بشبكة سلكية وهذه الأخيرة كانت للتخلص من الأوراق التالفة. كانت هنالك عشرات الآلاف من هذه الكوى داخل البناء. وكانت تُسمى قبور الذاكرة. فعندما يتم إتلاف وثيقة، كان يتم رمي تلك الوثيقة بداخل أقرب قبور الذاكرة فيرفع غطاءها ثم يُرمي بها داخلها، حيث يحملها تيار من الهواء الدافئ إلى أفران ضخمة مخيفة في تجاويف البناء.

حلّ «ونستون» لفافات الورق الأربع وتفحصها، كانت كلّ واحدة منها تحتوي على رسالة من سطر أو سطرين فقط باللغة المختصرة، التي تستعمل في الوزارة للأغراض الداخلية. وكانت كالتالي:

الزمان، 17 - 3 - 84، خطاب لـ «الأخ الكبير» نُقل مغلوّطاً إلى إفريقيا نَقَّحه.

الزمان، 19 - 12-38، التوقعات 3، ي ب، الربع الرابع، 83، أخطاء مطبعية، دققوا الإصدار الحالي.

الزمان، 14 - 2-84 بى، وزارة الوفرة، حصل خطأ بالشوكلاته، تحققوا.

الزمان، 13 - 2-83، نقل أمر اليوم لـ خ ك خاطئ جداً، لا تشيروا إلى أشخاص، أعيدوا الكتابة وأتلفوا الأوراق السابقة.

بقليل من الرضا نَحَى «ونستون» الرسالة الرابعة جانباً، إذ كانت على درجةٍ من الأهمية تجعل من الأنسب إرجاء مُعالجتها إلى النهاية.

أدار «ونستون» أرقاماً خلفية على «شاشة الرصد» طالباً أعداداً مُعيّنة من صحيفة «التايمز». انزلت الصحيفة من الأنبوب الهوائي بعد بضع دقائق فقط. وكانت الرسائل التي تلقاها تشير إلى فقراتٍ إخباريةٍ سيتعين لسبب أو لآخر تعديلها أو تصحيحها. فعلي سبيل المثال نشرت «التايمز» أنَّ «الأخ الكبير»، في خطابه الذي ألقاه قبل يوم، تنبأ أنَّ جبهة جنوبي الهند ستظل هادئة، فيما ستشن «أوراسيا» هجوماً وشيكاً على شمال إفريقيا. ولكن ما حدث هو أن القيادة العليا الأوراسية قد شنت هجوماً على جنوبي الهند وليس على شمال إفريقيا. لذلك كان من الضروري إعادة كتابة الفقرة الموجودة في خطاب «الأخ الكبير» بالشكل الذي يُظهر أنَّه تنبأ بما وقع فعلاً. كما أنَّ «التايمز» قد نشرت التوقعات الرسمية لإنتاج أصناف مختلفة من السلع الاستهلاكية في الربع الأخير من العام 1983. أمّا عدد اليوم فقد احتوى على بيان بالإنتاج الفعلي الذي تبين من خلاله أنَّ التوقعات كانت خاطئة إلى حدٍّ كبير، وكانت مهمة «ونستون» تصحيح أرقام التوقعات الأصلية وجعلها تتفق مع الأرقام الجديدة.

أمّا بالنسبة للرسالة الثالثة فقد كانت تشير إلى خطأ صغير جداً يمكن تصحيحه في غضون دقيقتين. فقد كانت وزارة الوفرة قد أصدرت «وعداً»

أو «تعهدًا قاطعًا» بأنه لن يكون ثمة تخفيض في حصّة الشيكولاتة خلال عام 1984. بينما كان «ونستون» على معرفة بأنّ حصّة الفرد من الشيكولاتة سيتم تخفيضها فعلاً من ثلاثين جراماً إلى عشرين بنهاية الأسبوع الحالي. ومن ثمّ كان يتوجّب عليه استبدال كلمة «الوعد» بكلمة «تحذير» من احتمال اللجوء لتخفيض حصّة الشيكولاتة.

وحالما انتهى «ونستون» من معالجة هذه الرسائل، أرفق تصحيحاته بالأعداد الخاصّة بها من «التايمز»، ثمّ دفعها في الأنبوب الهوائي. وبعدئذٍ جعّد الرسائل الأصليّة، ثمّ رمى بها في أحد قبور الذاكرة لتلتهمها النيران.

وحالما كان يتمّ تجميع ومقارنة كافة التصحيحات كان يُعاد طبعة جديدة من «التايمز»، ويتمّ إتلاف النسخة الأصليّة، ووضع النسخة المُصحّحة في ملفات المحفوظات محلّها ولم تكن عملية التبديل المتواصلة هذه تنطبق على الصحف فحسب، بل كانت تطال الكتب، والدوريات، والنشرات، والأفلام، وأشرطة التسجيل، وأفلام الكرتون، والصور، وكذلك كلّ أنواع الأدب، أو الوثائق التي يمكن أن تحمل مضامين سياسية أو أيديولوجية⁽²⁾. فيوماً بيوم وربما دقيقة بدقيقة يتمّ تحديث الماضي بما يجعله يتوافق والحاضر، وهكذا، فإنّ كافة تنبؤات الحزب يتسنى، بالدليل الوثائقي، إظهارها باعتبارها صائبة. كما أنّ كلّ فقرة إخبارية تتعارض مع مجريات الحاضر كان لا يُسمح لها بالبقاء ضمن أي سجلات. فالتاريخ كلّ كان بمثابة

(2) الأيديولوجية Ideology هناك تعريفات عديدة تناولت جانباً أو أكثر من جوانب هذا المصطلح، بوصفه مفهوماً حديثاً، إلّا أنّ التعريف الأكثر تكاملاً الذي يوضح هذا المصطلح، هو: النسق الكلّي للأفكار، والمعتقدات، والاتجاهات العامّة الكامنة في أنماط سلوكيّة مُعيّنة. وهي تُساعد على تفسير الأسس الأخلاقيّة للفعل الواقعي، وتعمل على توجيهه. فضلاً عن أنّ الأيديولوجية أصبحت نسقاً قابلاً للتغير استجابة للتغيّرات الراهنة والمتوقعة، سواء كانت على المستوى المحلي أو العالمي. (المُعد).

لوح تمّ تنظيفه لإعادة النقش عليه بما تستلزمه مصلحة الحزب. وحينما يتمّ الانتهاء من عمل ما، فإنّه يصبح من المعتذر تمامًا على أي إنسان الإتيان ببرهانٍ على أنّ ثمة تزيفًا قد جرى.

وكان «ونستون» يعتبر ذلك ليس تزيفًا، بل مُجرّد استبدال تفاهات بتفاهات. فمعظم المواد التي كان يتعامل معها لم تكن تمتّ بصلّة لما يحصل على أرض الواقع، فالإحصائيات كانت وهمية في نسخها الأصلية شأنها شأن نسخها المعدّلة.

رفع «ونستون» ناظريه عبر القاعة. في الحجرة المقابلة لمكتبه على الجانب الآخر كان ثمة رجل ضئيل الجسم دقيق الملامح، ذو ذقن سوداء، يُدعى «تيلوتسون»، يعمل بدأب، واضعًا على ركبتيه صحيفة مطوية ومُقرَّبًا فمه من جهاز التسجيل. وكان يبدو من هيئته أنّه يحاول الاحتفاظ بما يقوله سرًّا، بينه وبين «شاشة الرصد». وعندما رفع رأسه لاحظ أنّ «ونستون» ينظر إليه، فبادله بنظرة عدا.



دائرة السجلات بوزارة الحقيقة

كان «ونستون» لا يعرف مَنْ هو «تيلوتسون» هذا، ولا العمل الذي يقوم به. فالناس في دائرة السجلات كانوا لا يميلون للتحدّث عمدًا يُسند إليهم من مهام.

ففي القاعة الطويلة الخالية من النوافذ، وحجراتها المصطفة على صفين، كان يعمل عشرات الموظفين الذين لم يكن «ونستون» حتى يعرف أسماءهم. مع أنّه كان يراهم يوميًا يروحون ويجيئون في أثناء «دقيقتي الكراهية». ولكنه كان يعرف أنّ في الحجرة المقابلة لحجرتة، تعمل المرأة ذات الشعر الرملي، التي تعكف يوميًا على تعقّب ومحو ما يرد في الصُّحف من أسماء تمّت

إزالتهم من الوجود، ومن ثمَّ ينبغي اعتبارهم وكأنَّهم لم يكونوا أبداً. وكان في ذلك شيء من الملاءمة لحالتها، إذ كان زوجها قد لاقى ذلك المصير قبل سنتين.

وعلى بُعد بضع حجرات كان هنالك شخص هادئ، يبدو كأنَّه يعيش في عالم من الخيال، هذا الشخص يُدعى «إمبلفورت» وهو ذو أذنين مغطاتين بشعر كثيف، ويتمتع بموهبة مدهشة في التعامل مع القوافي والأوزان. كان «إمبلفورت» يعكف على إنتاج نسخ مُحَرَّفة، أو نصوص نهائية كما كانت تُسمى، من القصائد التي أصبحت تتعارض مع أيديولوجية الحزب، ولكن لسبب أو لآخر كان ينبغي استبقاؤها في موسوعة المختارات الأدبية. وهذه القاعة التي تضم حوالي خمسين عاملاً كانت قسمًا فرعيًا واحدًا ضمن منظومة دائرة السجلات، بينما كان يوجد قاعات مثل: قاعة الطباعة بخبرائها واستوديوهاتها عالية التجهيز من أجل تزييف الصور. وهنالك قسم البرامج الإعلامية بمهندسيه. وفرق الممثلين الذين اختيروا خصيصًا لمهاراتهم في تقليد الأصوات.. وفي مكانٍ أو آخر، مجهول الاسم، كانت هنالك العقول المُدبَّرة التي يناط بها التنسيق بين الجهود وإرساء الخطوط العامَّة للسياسة التي تُقرَّر ما يجب الاحتفاظ به من الماضي، وما يجب تزويره أو محوه.

ولم تكن دائرة السجلات هذه إلَّا فرعًا من فروع وزارة الحقيقة، ولم تكن مهمتها الأساسية إعادة بناء الماضي فحسب، بل تزويد مواطني «أوقيانيا» بالصحف، والأفلام، والكتب. ولم يكن على وزارة الحقيقة أن تُلبى الاحتياجات المتنوعة للحزب فحسب، بل عليها أيضًا أن تؤدي الدور

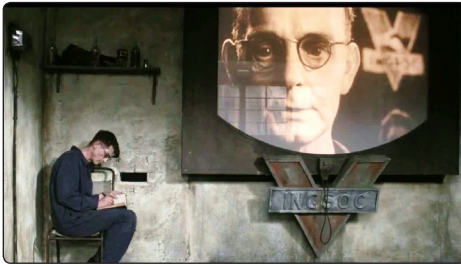
نفسه، ولكن بمستوى أدنى، لمصلحة «البروليتاريا»⁽³⁾. فهناك سلسلة كاملة من دوائر الوزارة التي تتعامل مع أدب «البروليتاريا» وموسيقاهم ومسرحهم ووسائل لهوهم. وهناك تصدر صحف تافهة لا تحوي شيئاً تقريباً إلا أخبار الرياضة والتنجيم والجرائم. وتنتج الروايات الجنسيّة، وأفلام الإثارة الجنسيّة، والأغاني العاطفية التي يتمّ تأليفها بوسائط آلية، مثل: جهاز «الكاليدسكوب» المعروف بناظم الشعر. وهناك أيضاً قسم فرعي اسمه في اللغة الجديدة «تورنوسيك» ويعمل على إنتاج أحط أنواع المواد الإباحية.

انزلت ثلاث رسائل من الأنبوب بينما كان «ونستون» يعمل، لكنها كانت تتعلّق بأمور بسيطة، واستطاع بالفعل الانتهاء من أمرها قبل أن يداهمه موعد «دقيقتي الكراهية». وحينما انتهت الدقيقتان عاد إلى حجرته، وتناول معجم اللغة الجديدة، ونظف نظارته حتى يفرغ لمهمته الرئيسة في ذلك اليوم. فضّ «ونستون» الرسالة وقرأ ما يلي: الزمان، 3-12-83 نقل الأمر اليومي لـ «الأخ الكبير» خاطئ جداً جداً، عدم الإشارة إلى أشخاص، أكتبه ثانيةً مصححاً، أرسله إلى فوق، لا تحفظه.

وفي اللغة القديمة تعني: أمر «الأخ الكبير» في جريدة «التايمز» يوم 3 ديسمبر وفيه إشارات لأشخاص غير موجودين فعلاً. أعد كتابته بشكل كامل وابعث بالمسودة إلى مرجع أعلى قبل وضعه في الملف وحفظه.

(3) البروليتاريا proletarius، هو مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر ضمن كتاب بيان الحزب الشيوعي لـ «كارل ماركس»، و«فريدريك أنجلز» يُشير فيه إلى الطبقة التي ستتولّد بعد تحوّل اقتصاد العالم من اقتصاد تنافسي إلى اقتصاد احتكاري، ويقصد «ماركس» بالبروليتاريا الطبقة التي لا تملك أي وسائل إنتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري، ويعتبر «ماركس» البروليتاريا هي الطبقة التي ستحرّر المجتمع وتبني الاشتراكية بشكل أممي. (المعد).

تفحص «ونستون» المقالة المثيرة للاعتراض، فأمر «الأخ الكبير» كما يبدو كان مخصّصًا للإشادة بعمل مؤسسة «إف إف سي سي»، التي كانت تزود البحارة في القلاع العائمة بالسجائر وبعض الكماليات الأخرى. ذكر أحد الرفاق ويُدعى الرفيق «وذرد» وهو عضو من الأعضاء البارزين في النخبة، مثنياً عليه ومنحه وساماً رفيعاً من الدرجة الثانية. وبعد ثلاثة أشهر حُلّت هذه المؤسسة فجأة. وكان بوسع المرء الظنّ بأنّ «وذرد» وشركاءه قد باتوا من المغضوب عليهم، ولكن لم تصدر أية إشارة إلى ذلك. كان ذلك هو المتوقع، لأنّه لم يكن من المعتاد أن يُحاكم السياسيون المنشقون أو حتى يدانون علناً. فحملات التطهير الكبرى التي تشمل آلاف الناس وتصحبها محاكمات علنية للخونة ولمجرمي الفكر وجرى إعدامهم فيما بعد، لم تكن سوى عينات خاصّة للعرض ولا تحدث غالباً أكثر من مرّة واحدة كلّ سنتين. أمّا الأمر المألوف فهو أن الأشخاص الذين يجلبون على أنفسهم غضب الحزب كانوا يخفون من الوجود ويختفي معهم ذكركم دون أن يُعثر على أي مفتاح يكشف سرّ اختفائهم. وفي بعض الحالات لا يكون هؤلاء قد ماتوا بعد. وربما يعرف «ونستون» ثلاثين شخصاً، فضلاً عن أبويه، ممّن اختفوا في هذا الوقت أو ذاك.



حك «ونستون» أنفه بملقط للورق في يده، بينما كان الرفيق «تيلوتسون» ما زال منكّباً على جهاز التسجيل بصورة توحى بسرية ما يفعله. تساءل «ونستون» عمّا إذا كان

ونستون يبدأ عمله اليومي في دائرة السجلات الرفيق «تيلوتسون» منهمكاً في المهمة نفسها التي تمّ إسنادها إليه. إنّ ذلك

من الجائز تمامًا، فمهمة على هذه الدرجة العالية من الدقة، لا يمكن أن يُعهد بها إلى شخص بمفرده، ومن جهة ثانية إذا أوكلت هذه المهمة للجنة معناه الاعتراف العلني بوقوع التزوير. لذلك من المرجح أن يكون هنالك عشرات من العاملين يعكفون الآن على عمل نسخ لما قاله «الأخ الكبير» بالفعل. وبعد ذلك يقوم بعض ذوي العقول المُدبَّرة من أعضاء النخبة في الحزب باختيار هذه النسخة أو تلك، وإعادة تنقيحها عبر عمليات مُعقَّدة من المراجعة، ثم يتم تمرير الكذبة التي وقع الخيار عليها إلى السجلات الدائمة لتصبح حقيقة.

لم يكن «ونستون» يدري أي جرم ارتكبه «وذرد»، ربما بسبب الفساد أو عدم الكفاءة، أو ربما لأنَّ «الأخ الكبير» كان يرغب في التخلص من أحد مرؤوسيه الذين يحظون بشعبية جارفة، أو قد يكون قد اكتشف أن لديه ميولاً انشقاقية، أو ربما، وهو الأرجح، أن ما حصل قد حصل فقط؛ لأنَّ حملات التصفيات والإبادة كانت جزءاً ضرورياً من آليات عمل الحكومة. المفتاح الوحيد الحقيقي لهذا اللغز يكمن في عبارة: «لا تشر إلى الأشخاص»، وهي ما تنطوي على إشارة إلى أنَّ «وذرد» قد مات فعلاً. لكن ليس لك أن تفترض دائماً بأنَّ هذه هي الحال مع كلِّ الذين يتم القبض عليهم، ففي بعض الأحيان يُطلق سراح بعضهم ويمنحون حُرِّيَّتَهُمْ لسنة أو سنتين ثمَّ ينفذ فيهم حكم الإعدام. وأحياناً كثيرة قد يظهر بعض منَّ تحسبهم في عداد الموتى ظهوراً خاطئاً عبر محاكمة علنية حيث يدلي بشهادة يورط بها مئات آخرين قبل أن يختفي، ولكن للأبد هذه المرة. أمَّا «وذرد» فلم يكن يُعد شخصاً على أي حال، وهذا يعني أنَّه لم يكن له أي وجود. وهنا قرَّر «ونستون» أنَّ مُجرَّد قلب اتجاه خطاب «الأخ الكبير» لن يكون كافياً، وأنَّ من الأفضل أن يجعله يعالج مسألة لا علاقة لها أبداً بموضوعه الأصلي.

كان في وسعه تحويل الخطاب إلى إدانة للخونة ولمجرمي الفكر، ولكن ذلك سيكون مكشوفاً، كما كان يمكنه أن يخلق انتصاراً تحقّق على الجبهة، أو نجاحاً في تحقيق فائض إنتاج في الخطة الثلاثية التاسعة، ولكن ذلك قد يُعقّد السجلات تعقيداً شديداً. إن المطلوب هو قطعة من الخيال الخالص. وفجأة خطرت على باله فكرة جاهزة. إنّها صورة الرفيق «أوغيلفي» الذي مات مؤخراً في ميدان المعركة وسط أجواء ملحمية. وما أكثر المناسبات التي كان «الأخ الكبير» يكرس فيها خطابه اليومي لإحياء ذكرى أحد أعضاء الحزب عديمي الذكر ليُجعل من حياتهم ومماتهم مثلاً يحتذى به.

واليوم يجب الإشادة بذكرى الرفيق «أوغيلفي». صحيح أنّه لم يكن هناك وجود سابق لشخص حقيقي اسمه «أوغيلفي» ولكن بضعة أسطر مكتوبة وصورتين مزيفتين له لكفيلة بأن تجعل له وجوداً.

جذب «ونستون» جهاز التسجيل باتجاهه، وشرع يُلمي بأسلوب «الأخ الكبير» المألوف، وهو أسلوب عسكري ومتحذلق في آنٍ. وبسبب لجوئه لحيلة طرح الأسئلة ثمّ تقديم الأجوبة الفورية عليها بنفسه (مثل: أتدرون أي الدروس يمكن أن نستخلصها أيها الرفاق؟ إن الدرس والذي يكون أحد مبادئ الاشتراكية الإنجليزية هو...) فقد كان من السهل تقليده.

في الثالثة من عمره ترك الرفيق «أوغيلفي» كافة لعب الأطفال ما عدا الرشاش. وفي السادسة التحق بمنظمة الجواسيس، وفي التاسعة أصبح قائد مجموعة. أمّا في الحادية عشرة فقد وشى بعمّه إلى شرطة الفكر. وفي السابعة عشرة أصبح منظم مقاطعة في رابطة مناهضة للجنس، وفي التاسعة عشرة صمم القنبلة اليدوية التي كانت تتبنى مشروعها وزارة السّلام، والتي تسبّب أوّل تجاربها في مصرع واحد وثلاثين أسيراً من «أوراسيا» عند تفجيرها. وفي الثالثة والعشرين قضى نحبه وهو يؤدي الواجب. فبينما كانت تلاحقه

طائرات نفثة مُعادية أثناء تحليله بطوّافته فوق المحيط الهندي حاملاً وثائق مهمة أثقل جسمه بالرشاش وقفز من طوّافته إلى أعماق المياه مع ما كان يحمله من وثائق. إنّها نهاية بطولية نموذجية، حسبما يقول «الأخ الكبير». بعدئذ أضاف «الأخ الكبير» بضع ملاحظات عن الطُّهر والإخلاص اللذين تمتّع بهما الرفيق «أوغيلفي» في حياته. فقد كان لا يقرب الخمر ولا يُدخن السجائر، فضلاً عن أنّه نذر نفسه للعزوبة معتقداً أنّ الزواج ورعاية الأسرة لا يناسبان شخصاً مثله، لقد وهب نفسه للواجب أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. ولا هدف له في الحياة إلّا إلحاق الهزيمة بالعدو الأوراسي وتعقّب الجواسيس ومجرمي الفكر والخونة.

فكّر «ونستون» في نفسه ما إذا كان سيمنح «أوغيلفي» وسام الاستحقاق، ولكنه عدل في النهاية عن تلك الفكرة لأنّها ستجر وراءها مراجعة سجلات هو في غنى عنها.. ومرة ثانية، رفع نظريه صوب منافسه في الحجرة المقابلة، وكان ثمة شيء في نفسه يقول له إنّ «تيلوتسون» منهك في العمل ذاته الذي يؤديه هو. لكن لم يكن ثمة طريقة لمعرفة أي عمل سيتم تنبيهه في النهاية، غير أنّه كانت لديه قناعة راسخة بأنّ عمله هو الذي سيتم اعتماده فالرفيق «أوغيلفي»، الذي كان منذ ساعة لا يردّ حتى على خيال، أصبح حقيقة راسخة الآن.

وفكّر «ونستون» كيف أنّه يمكنك أن تبث الحياة في الموتى دون أن يمكنك ذلك مع الأحياء. فالرفيق «أوغيلفي»، الذي لم يسبق أن كان له وجود في الحاضر، أصبح الآن موجوداً في الماضي، وحينما ينسى الناس عملية التزوير ويطويها النسيان، فلسوف يصبح وجوده يضاهي وجود كلّ من «شارلمان» أو «يوليوس قيصر» في صحّته وثبوته.

روعة تدمير الكلمات

The splendor of the destruction of words

في قاعة الطعام ذات السقف المنخفض، تحت سطح الأرض، كان الصّف يتحرّك ببطءٍ. فالقاعة كانت تغص بمَن فيها. ومن فوق قضبان طاولة توزيع طعام الغذاء كانت الأبخرة تتصاعد بقوةٍ، مصحوبة برائحة حمضية لاذعة. وفي الجانب الأقصى من القاعة كان هنالك ثقب صغير في الحائط، يستطيع المرء شراء قذح مترع بالخمر مقابل عشرة سنتات.

- ها هو الرّجل الذي كنت أبحث عنه.

صاح صوت يأتي من خلف «ونستون».

استدار «ونستون» وإذا به يجد صديقه القديم «ساييم» الذي يعمل في دائرة البحوث. كان «ساييم» لغويًا اختصاصيًا في اللغة الجديدة.

وكان «ساييم» مخلوقًا ضئيل الجسم أصغر حجمًا من «ونستون»، ذا شعر أسود وعينين عليهما مسحة من الحزن المفعم بالسخرية تبدوان كأنهما تتفحصان وجهك أثناء حديثه إليك.

ابتدره «ساييم» قائلاً:

- كنت أود أن أسألك ما إذا كان لديك شفرات حلالة.

- ولا واحدة.

قال «ونستون» بشيءٍ من العجالة والشعور بالذنب. واستطرد يقول:

- لقد بحثت في كُلِّ مكانٍ، لكنها لم تعد موجودة الآن.

كان الجميع لا يكتفون من السؤال عن شفرات الحلاقة، وكان «ونستون» في حقيقة الأمر لديه شفرتان لم يستعملهما بعد، غير أنَّه يدرهما لوقتٍ تمس فيه الحاجة. دائماً هناك سلعة من السلع الضرورية التي لم تعد متاجر الحزب تزود المواطنين بها.

وأضاف «ونستون» كاذباً:

- إنَّني أستعمل الشفرة نفسها منذ ستة أسابيع.

تحرك الصَّف مرةً أخرى للأمام. تناول كُلُّ منهما صينية معدنية. بادَر «سايم» بالسؤال:

- هل ذهبت ورأيت السجناء وهم يشنقون البارحة؟

قال «ونستون» بشيءٍ من اللامبالاة:

- كنت في العمل، الأرجح أني سأشاهدهم على الشاشة.

فردَّ سايم:

- إنَّ ذلك لا يغني أبداً.

وكانت عيناه الساخرتان تُحدقان بوجه «ونستون» وكأنَّهما تقولان له: «أنا أعرفك وأعرف جيداً لماذا لم تذهب لمشاهدة السجناء يشنقون».

على المستوى الفكري كان «سايم» شديد الولاء لأيديولوجية الحزب. أشاح «ونستون» بوجهه جانباً ليتحاشى النظرة الفاحصة لعيني «سايم».

قال «سايم» مُعقَّباً:

- كانت عملية شقق جيدة، غير أنهم قد أفسدوها بربط القدمين معاً، كنت أحب أن أراهم وهم يرفسون بها. لكن اللحظة الأكثر إثارة كانت تأتي في النهاية، وذلك حينما يتدلى اللسان إلى الخارج وقد أصبح داكن الزرقة. إن تلك اللحظة هي التي تحوز إعجابي.

- التالي من فضلكم.

صاح العامل ذو المربلة البيضاء ويده مغرفة.

رفع «ونستون»، و«سايم» بصينيته تحت القطبان، فوضع لكل منهما بسرعة الوجبة المقررة. قصعة معدنية من طعام مسلوق ذي لون قرمزي رمادي، وكسرة من الخبز، ومكعب من الجبن، وفنجان من قهوة النصر خالية من الحليب، وقطعة سكر واحدة.

قال «سايم»:

- هناك طاولة شاغرة تحت «شاشة الرصد»، لنأخذ في طريقنا إليها قدحين من الخمر.

وشقنا طريقهما عبر القاعة، ثم وضع كل منهما صينيته على الطاولة ذات الغطاء المعدني.

أخذ «ونستون» قدحه من الخمر، وبعد أن توقف لحظة ليستجمع قواه تجرّع تلك المادة ذات الطعم الزيتي جرعة واحدة. وعندما نفرت الدموع من عينيه أحس فجأة أنه كان جائعاً، فأخذ يتناول الحساء الذي كانت تخلطه مواد لزجة وبعض مكعبات اللحم.

سأل «ونستون» بصوت عالٍ ليتغلب على جلبة المكان:

- أين وصلت بالمعجم؟

قال «ساييم»:

- إنني أتقدّم ببطء. إنني في باب النعوت. إنه عمل جذاب.



«ونستون» وصديقه «ساييم» في قاعة الطعام

وتألق وجهه مباشرة
لدى ذكر اللغة الجديدة،
فأزاح القصة جانبًا
وتناول كسرة خبز بيدٍ
وباليد الأخرى قطعة جبن،
وانحنى برأسه على الطاولة
حتى يتسنى له الحديث
بصوتٍ منخفضٍ، وقال:

- الطبعة الحادية عشرة هي طبعة نهائية، إننا نصوص اللغة في شكلها النهائي. عندما نفرغ منه، فإنه سيتحتّم على الآخرين من أمثالك أن يتعلّموا من جديد مرّة ثانية. لعلك تظنّ أنّ مهمتنا الرئيسة هي ابتكار كلمات جديدة، لكن لا، إننا نقوم بتدمير مئات الكلمات، إننا نسلخ اللغة حتى العظام فالطبعة الحادية عشرة لن تحتوي على كلمة واحدة يمكن أن يبطل استخدامها قبل عام 2050.

ثمّ أضاف بعد تفكيرٍ:

- إنّ تدمير الكلمات شيء جميل. بالطبع فإنّ نسبة الفقد الأكبر تكون في الأفعال والنعوت، إلّا أنّ هناك الكثير من الأسماء التي يمكن التخلص منها أيضًا، إضافة إلى المرادفات والأضداد. ترى ما هو مُبرّر وجود كلمة هي مُجرّد نقيض لأخرى؟ فكلُّ كلمة تحمل نقيضها في نفسها. خذ مثلاً كلمة «جيد» إذا كان لديك كلمة مثل «جيد»، ما هي الحاجة إذاً إلى كلمة مثل

«رديء»؟ إنَّ كلمة «غير جيد» تؤدي المعنى تمامًا. ثمَّ إذا أردت تعبيرًا أقوى لكلمة «جيد» ما فائدة أن يكون لديك كُلُّ هذه السلسلة من الكلمات الغامضة غير المجدية مثل «ممتاز»، و«رائع»؟ ألا تغطي كلمة «جيد جدًّا» المعنى، أو كلمة «جيد جدًّا جدًّا» إذا كنت ترغب في معنى أقوى.. ألا ترى ذلك أمرًا رائعًا يا ونستون! لقد كانت الفكرة في الأصل من بنات أفكار «الأخ الكبير».

لاح شيء من الحماس المفتعل على وجه «ونستون» لدى سماعه كلمة «الأخ الكبير»، إلا أن «ساييم» استطاع أن يتبيَّن على الفور فتورًا في هذا الحماس. وأردف قائلاً وعلى وجهه علامات الأسف:

- يبدو أنَّك لا تُقدِّر اللغة الجديدة حق قدرها يا ونستون. إنَّني أقرأ تلك الفقرات التي تكتبها من حين لآخر في التايمز. إنَّها جيدة، نوعًا ما غير أنَّها تظلُّ أشبه بالترجمة. إنَّك في داخلِك تميل إلى استخدام اللغة القديمة رغم كُلِّ ما تحمله من غموض. أنت لا تدرك روعة تدمير الكلمات. هل تعرف أنَّ اللغة الجديدة هي اللغة الوحيدة في العالم التي تتناقص مفرداتها عامًّا بعد عام؟

كان «ونستون» يعرف ذلك بالتأكيد. فابتسم ولم يعلق، خوفًا من أن يخونه لسانه. قضَمَ «ساييم» كسرة أخرى من الخبز الأسمر ثمَّ ابتلعها سريعًا وتابع قائلاً:

- ألا ترى أنَّ الغاية النهائية للغة الجديدة هي التضييق من آفاق التفكير؟ بحيث تصبح جريمة الفكر في نهاية المطاف جرمًا مستحيل الوقوع من الناحية النظرية. فكلُّ مفهوم يحتاج إليه الناس سيتم التعبير عنه بكلمة واحدة مُحدَّدة المعنى وغير قابلة للتأويل، أمَّا معانيها الفرعية فيتم طمسها حتى تصبح في طي النسيان. ستبلغ الثورة أوجها حينما تكتمل اللغة ويتم إتقانها.

إنَّ «الأنجسوك» هي اللغة الجديدة. قال هذه العبارة وهو في غاية النشوة. ثمَّ أَرَدَفَ:

- هل خطر لك أبدًا يا ونستون أنَّه مع حلول عام 2050 على أقصى حد، لن يتبقى على وجه الأرض إنسان يمكنه فهم حديث كهذا الذي نتبادلُه معًا الآن؟

وعَلَّقَ «ونستون» قائلاً:

- ولكن دعنا نستثني.. قالها مراتبًا ولم يكملها.

لقد كان على وشك القول: «نستثني عامة الناس»، لكنه تدارك نفسه حينما استشعر أنَّ هذه الملحوظة قد تؤوّل بطريقةٍ ما باعتبارها نقصًا في الولاء لديه. ولكن «ساييم» قد استشف ما كان يهَمُّ بقوله. وقال غير عابئ:

- إنَّ أبناءَ عامة الناس ليسوا بشرًا. لكن مع حلول عام 2050 أو ربما قبل ذلك، سوف تكون المعرفة الحقيقية باللغة القديمة قد تلاشت، وسيكون كُلُّ التراث الأدبي القديم قد اندثر. وأمَّا أعمال شكسبير، وملتون، وبايرون فلن يكون لها وجود إلا عبر تراجم اللغة الجديدة. وحتى أدبيات الحزب ستتغير وشعاراته ستتبدل. إذ كيف يمكن أن تتبنى شعارًا مثل «الحُرِّيَّة هي العبودية»، فيما يكون مفهوم الحرية نفسه قد جرى نسفه. إنَّ المناخ الفكري سيكون كُلُّه قد تغير. وفي الحقيقة لن يكون هنالك تفكير على النحو الذي نفهمه الآن، فالولاء يعني انعدام التفكير، بل انعدام الحاجة إلى التفكير، الولاء هو عدم الوعي.

وفجأةً وبقناعة راسخةٍ فُكِّرَ «ونستون» أنَّ «ساييم» ستم تصفيته يومًا ما. إنَّه متوقد الذكاء. إنَّه يرى ببصيرةٍ نافذةٍ، ويتحدَّث بصراحةٍ شديدةٍ والحزب لا يرغب في وجود مثل هؤلاء. يومًا ما سيختفي من الوجود، ذلك ما أراه مكتوبًا على جبينه.

بعدما أنهى «ونستون» ما كان بين يديه من خبز وجبن، استدار جانبًا وهو على كرسيه ليحتسي قهوته. وعلى الطاولة الواقعة عن يساره كان رجل يتكلم بصوتٍ صاخب دون رادع أو وازع. وكانت تجلس إلى جواره فتاة شابة، ربما تكون سكرتيرة وظهرها إلى «ونستون». كانت تصغي إليه ويدو عليها أنَّها توافق بحماس على كُلِّ ما يقوله، وبين الفينة والأخرى كان «ونستون» يلتقط بعض ما تتلفظ به الفتاة من عباراتٍ مثل: «أعتقد أنَّك مجهد تمامًا»، «إنَّني أتفق معك كليا».

كانت تقول بصوت أنثوي سخيِّف وحيٍّ. لكن الصوت الآخر لم يتوقف عن الكلام ولو لحظة واحدة، حتى عندما تتكلم الفتاة.

كان «ونستون» يعرف هذا الرَّجل، لكنه لا يعرف عنه أكثر من أنَّه يشغل منصبًا مهمًا في دائرة الإثارة. كان يناهز الثلاثين من العُمُر ذا رقبة قويَّة العضلات، وفم واسع كثير الحركة، كان من عادته أن يلقي برأسه إلى الوراء قليلًا وهو يتحدَّث. وكان من المزجج في الأمر أنَّه كان من المستحيل تقريبًا أن تُميِّز كلمة واحدة من بين ذلك السيل من الكلمات المتدفقة من فمه. ومرة واحدة فقط تمكَّن «ونستون» من التقاط جملة: «إبادة تامة ونهائية لجولدشتاين» قيلت على نحو سريع جدًّا. وأيًا كان حديثه فإنَّ ما يمكن أن تكون على يقين منه هو أنَّ كُلَّ كلمة من حديثه كانت تنبع من ولاء خالص لمبادئ «الأنجسوك» الصحيحة.

وفيما كان «ونستون» يراقب ذلك الوجه الخالي من العينين، والفكين المتحرِّكين إلى أسفل وأعلى، أحس «ونستون» شعورًا غريبًا وهو أنَّ هذا الذي يراه ليس إنسانًا حقيقيًا وإنَّما نوع من الدُّمية، إذ لم يكن عقله هو الذي يتكلم بل حنجرتة. ولم يكن ما ينطق به حديثًا بالمعنى الحقيقي بل ألفاظًا معزولة، وصخبًا يصدر عن حالة من اللاوعي وأشبه بصوت بطة.

خَيَّم الصَّمْت على «ساييم» لحظة من الزمن، بينما واصل الصوت القادم من الطاولة الأخرى الجعجعة بسرعة، وكان يسمعه «ونستون» بسهولة رغم كُلّ الضجيج الذي تعج به القاعة.

وهنا تدخل «ونستون» قائلاً:

- هناك كلمة في اللغة الجديدة لا أدري ما إذا كنت تعرفها «يوقوق» أي يجعجع مثل البطة. إنها واحدة من الكلمات التي تحمل معنيين متناقضين، فإن نعت بها خصماً فهي سُبَاب، وإن نعت بها شخصاً تتوافق معه فهي ثناء.

وجال في خاطر «ونستون» مرّة أخرى أنّ «ساييم» ستتم تصفيته. خامرته هذه الفكرة وشعر بالحزن مع أنّه كان يعرف أنّ «ساييم» يكرهه نوعاً ما، ولديه القدرة على الوشاية به بتهمة «جريمة فكر» إذا رأى دافعاً لذلك. كان لدى «ساييم» بعض المثالب.

لقد كان يفتقر لخصال الحذر والتحفُّظ، ويفتقر أيضاً إلى بعض الغباء الذي يحفظ حياة صاحبه. ولا يمكنك القول بأنّ «ساييم» لم يكن صادق الولاء. فقد كان يؤمن بمبادئ «الأنجسوك»، ويهمل «الأخ الكبير»، ويهمل للانتصارات، ويكره المنشقين عن الحزب ليس بإخلاص عادي فحسب بل بحماس شديد. بيد أن سمعته كانت تحوم حولها الشكوك فقد كان يقول أشياء لا ينبغي أن يقولها، وقرأ كتباً كثيرة للغاية، وكان يرتاد مقهى شجرة الكستناء، منتدى الرسامين والموسيقيين. لم يكن ثمة قانون مكتوب أو حتى خبر مكتوب يحظر التردّد على هذا المقهى، ومع ذلك كان مكان لا يستساغ الذهاب إليه. لقد كان يلتقي فيه قادة الحزب القدامى الذين تمّ تشويه سيرتهم قبل أن تتم تصفيتهم أخيراً. ويُقال إنّ «جولدشتاين» نفسه كان يرى هناك منذ سنين أو عقود.

تطلّع «ساييم» وقال:

- ها هو ذا «بارصون» قادمًا.

وكان يبدو من لهجته وكأنه يود أن يستضيف الأحمق «بارصون».

كان «بارصون» جار «ونستون» في بنايات النصر، يشق طريقه عبر القاعة. إنه رجل بدين، قصير، متوسط الحجم، ذو شعر أشقر، ووجه كوجه الضفدعة، كان جسمه يحمل المزيد من الشحوم في رقبته وخصرته، إلا أنه ظل نشيطاً كصبي كثير الحركة، ولدى رؤيته يرى المرء دائماً صورة ركبتين مجوفتين وكمين يتدليان من ساعدين قصيرين ممتلئين.

تقدم نحوهما وحيّاهما مبتهجاً، ثم جلس إلى الطاولة تفوح منه رائحة عرق كثيفة، وتغطي وجهه القرمزي حبات من الرطوبة.

أخرج «ساييم» من جيبه ورقة تحوي قائمة طويلة من الكلمات التي يُدققها وقلمه الجاف بين أصبعيه. وقد علّق «بارصون» على ذلك غامزاً «ونستون»:

- انظر إليه إنه يدرس حتى في استراحة الغذاء، أي حرص هذا؟ ماذا هناك أيها الصبي العجوز؟ شيء ما يصعب عليّ فهمه، على ما أعتقد.

ثم قال لـ «ونستون»:

- أيها الصبي العجوز هل تدري لماذا ألاحقك؟ إنه التبرّع الذي نسيت أن تعطيني إياه.

ورد عليه «ونستون» متسائلاً:

- لأي شيء هذا التبرّع؟

قالها وهو يتحسس ما لديه من مالٍ في جيبه. إذ إن ربع الراتب يجب اقتطاعه لسداد التبرّعات التي يعجز المرء عن إحصائها.



"بارصون" جار "ونستون"

فأجابه «بارصون»:

- تبرُّعُ لأسبوع الكراهية. لعلك سمعت بصندوق البيوت، إنني أمين صندوق بنايتنا. إننا نبذل جهودًا جبارة لجمع المال من أجل إقامة عرض هائل. أود أن تعلم أنه لن يكون خطئي إذا لم تظهر بنايات النصر بالمظهر اللائق. ولم يُعلّق عليها أكبر عدد من الأعلام في الشارع كُلّه، من فضلك دولارين.

مدّ «ونستون» يده إلى جيبه وأخرج دولارين مجعدين ومتسخين، قام «بارصون» بتسجيلهما في دفتر صغير. ثمَّ أردف قائلاً:

- بالمناسبة، لقد علمت أنّ ولدي المشاغب قد قذفك أمس بمقلاعه الصغير، لقد عنفته وعاقبته على تلك الفعلة، وأكّدت له أنّي سأصادر المقلاع منه إذا عاد لمثل ذلك.

قال «ونستون»:

- أظنّ أنه كان مستاء لعدم ذهابه لمشاهدة حفلة الشنق.

فرد «بارصون»:

- ذلك صحيح، ولكنهما في ذلك يظهران ما لديهم من روح عالية، أليس كذلك؟ يا لهم من صغار ملاعين، لكنّها قوة الاندفاع، فكلّ ما يشغلها هو الجواسيس والحرب. هل تعرف ماذا فعلت ابنتي الصغيرة السبت الماضي حينما خرجت في رحلةٍ مع مجموعتها؟ لقد اصطحبت معها فتاتين صغيرتين وانسللن عن مجموعتهن وأمضين كلّ فترة الظهر في تعقّب رجل غريب. وعندما وصلن إلى إحدى القرى سلمته لإحدى الدوريات.

وسأل «ونستون» مشدوهاً:

- ولكن ما الذي دعاهن لذلك؟

فتابع «بارصون» حديثه وقد أخذته النشوة:

- لقد تحققت ابنتي من أنه عميل للأعداء ولقد لاحظت أنه يلبس نوعاً غريباً من الأحذية، لم تر أحداً يلبس مثلها من قبل. ومن هنا جاء ظنها أنه أجنبي. إنها ملاحظة ذكية من صغيرة مثلها في السابعة من عُمرها، أليس كذلك؟

قال «ونستون»:

- وماذا حدث للرجل؟

- هذا ما لا أعرفه على وجه التحديد. ولكنني لن أستغرب إطلاقاً إذا..

وهنا أكمل «بارصون» بالإشارة جاعلاً أصابعه على شكل مسدس، ثم طقطق بلسانه مقلداً صوت الرصاص.

- حسناً.

علق «ونستون» دون أن يرفع نظره من على الورقة التي بين يديه.

انبعث بوق من «شاشة الرصد» التي فوق رؤوسهم مباشرة، إنه مجرد بيان من وزارة الوفرة:

وصاح صوت شبابي متحمس:

- أيها الرفاق، انتبهوا، وردتنا أنباء رائعة لكم. لقد انتصرنا في معركة الإنتاج. فالتقارير تُظهر أنَّ مستوى المعيشة قد ارتفع بما لا يقل عن 20 ٪. عمّا كان عليه في العام الماضي. وقد عمّت أرجاء البلاد مسيرات عارمة وعفوية هذا الصباح في كلِّ أوقيانيا، حيث انطلق العمال من مصانعهم وساروا في الشوارع حاملين الرايات وهاتفين بحياة «الأخ الكبير» امتناناً له

على الحياة الجديدة السَّعيدة التي وهبهم إياها بفضل قيادته الحكيمة. وفيما يلي بعض هذه الأرقام: المواد الغذائية...

كانت عبارة الحياة الجديدة السَّعيدة من العبارات التي تتردَّد كثيرًا. جلس «بارصون»، وقد شد انتباهه صوت البوق، مصغيًا وقد ارتسمت على وجهه علامات الجدية المشدوَّهة والسَّأم المتعالي. لم يستطع متابعة الأرقام، لكنه كان يدرك أنَّها تبعث على الرُّضا وأخرج غليونه الذي كان محشواً حتى نصفه بالتبغ المفحَّم، فمع تخفيض حصَّة الفرد من التبغ إلى مائة جرام في الأسبوع، بات من الصَّعب أن تملأ غليونك حتى حافته.. أمَّا «ونستون» فكان يُدخن سيجارة النصر التي يمسكها بحذرٍ في وضع أفقي حتى لا يتناثر تبغها. والحصَّة الجديدة من السجائر لن يشرع في توزيعها إلَّا صباح غد، وهو لم يعد لديه سوى أربع سجائر. في هذه اللَّحظة سدَّ أذنيه عن الضجيج الَّآتي من بُعد وأرهف السمع إلى ما تذيعه «شاشة الرصد» عن مسيرات شكر لـ«الأخ الكبير» على رفعه حصَّة الشيكلاتة إلى عشرين جراماً في الأسبوع. فحدَّث نفسه: «كيف يكون ذلك؟ لم يكن قد مرَّ سوى يوم واحد على نَبأ تخفيضها إلى عشرين جراماً أسبوعياً! فهل يمكن أن يكون الناس قد تناسوا ذلك وابتلعوه في أربع وعشرين ساعة فقط؟ أجل لقد تناسوا».

واصلت الإحصائيات الوهمية تدفقها من «شاشة الرصد». فمقارنة بإحصائيات العام المنصرم، هنالك ازدياد في الغذاء والملابس والبيوت والأثاث والوقود والسفن والطائرات والكتب والمواليد، ازدياد في كُلِّ شيء ما عدا المرض والجريمة والجنون.

أمسك «ونستون» بملعقته وغمسها في المرق الأصفر ثُمَّ رفعها إلى فمه راسماً خطاً طويلاً من المرق على الطاولة. وتمعَّن باستياءٍ في الحياة التي يحيّاها. وتساءل: أهكذا كانت الحياة دائماً؟ وألقى نظرة حوله في المطعم

فوجد قاعة مزدحمة، امتلأت بكراسي وطاولات معدنية مهشمة، وملاعق
مشية، وصواني منبعجة، وأباريق خشنة. كانت كُلُّ السطوح ذات ملمس
لزوج من أثر الشحوم، كما كانت تفوح من القاعة رائحة حمضية تنبعث من
الخمرة والقهوة الرديئتين ومن الملابس المتسخة. كان المرء يحس دائماً
بأصوات احتجاج تنبعث من معدته ومن تحت جلده. لقد كان النقص
في الطعام دائماً.. لم يكن يوجد جوارب أو ملابس داخلية ليست مليئة
بالرتوق. والأثاث كان دائماً مهشماً عتيقاً، والغرف بلا تدفئة، وقطارات
الأنفاق مزدحمة، والبيوت متداعية آيلة للسقوط. لم يكن من شيءٍ وفير
ورخيص سوى الخمرة المصنعة كيماوياً. ولئن كانت الأوضاع تسير من
سيئٍ إلى أسوأ مع تقدُّمه في السن، فهل كانت هنالك دلائل تشير إلى أن
ذلك لم يكن الوضع الطبيعي للأمور؟ فإذا كان قلب المرء يتألم لوجود كل
هذه المنغصات: شتاءات طويلة، وقذارة جوارب، وطعام رديء ذو مذاق
غريب، وماء بارد، وصابون خشن، وسجائر تتفتت.. هل كان المرء يضيق
ذرعاً بتلك الأوضاع التي لا تطاق لو لم تكن لديه ذاكرة ما توحى إليه بأنَّ
الأمور كانت تختلف عمّا هي عليه الآن؟

وجال بخاطر «ونستون» أنَّ النموذج الجسدي الذي حدَّده الحزب هو
النموذج المثالي، حيث يكون الفتيان يافعين ومفتولي العضلات، وتكون
الفتيات العذارى مكتنزات الصدور وشقراوات الشعر ومفعمات بالحيوية.
أمّا في الواقع وبقدر ما يستطيع أن يحكم، فإنَّ غالبية الناس في القطاع الهوائي
رقم واحد كانوا ضئيلي الأجسام وذوي بشرة سمراء وقيحي الشكل.

اختتم بيان وزارة الوفرة ببوقٍ آخر، وحلت موسيقى خفيفة محله، وأخرج
«بارصون» وقد أثاره هول أرقام الإنجازات، غليونه من فمه. وقال وهو يهز
رأسه هزة العارف بالأمور:

- من المؤكد أنَّ وزارة الوفرة قد أبليت بلاءً حسنًا هذه السنة. بالمناسبة أيها الصبي العجوز، هل لديك شفرات حلالة يمكنك أن تعطيني واحدة منها؟
أجاب «ونستون»:

- لا، ولا واحدة، إنَّني استعمل الشفرة نفسها منذ ستة أسابيع، آسف.
ولسبب ما وجد «ونستون» نفسه يُفكِّر في السيِّدة «بارصون»: «أظنَّ أنه في غضون عامين سيُشي بها أطفالها إلى «شرطة الفكر». وبعدئذ سيتم تصفيتهَا، كما سيتم تصفية «سايم»، و«ونستون»، و«أوبراين». أمَّا «بارصون» فلن يحدث له شيء من ذلك أبدًا. كما أنَّ ذلك المخلوق صاحب الصوت المجمعع لن تتم تصفيته، وكذلك لن تتم تصفية هؤلاء الرِّجال القصار شبيهي الخفافس. وأيضًا الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة، لن تتم تصفيتهَا».

بدا له أنَّه يعرف بالفطرة مَنْ سيبقى وَمَنْ سيفنى. في هذه اللَّحظة أفاق من تأمُّلاته بهزةٍ عفيفةٍ. فالفتاة الجالسة إلى الطاولة المجاورة التفتت نصف التفاتة وهي تتطلع إليه، وكانت هي نفسها الفتاة ذات الشعر الأسود. كانت تنظر إليه بطرف عينيها ولكن بتركيز مستغرب. وكُلَّمَا التقت عيناها بعينه كانت تميد بطرفها عنه. أحس «ونستون» إذ ذاك بالعرق يتصبَّب من عموده الفقري وسرت في أوصاله نوبة فزع شديدة، وتساءل: ثرى ما الذي يجعلها تراقبه؟ ولماذا كانت تتبعه إلى كُلِّ مكان؟

ولسوء حظه لم يستطع أن يتذكَّر ما إذا كانت جالسة على هذا المقعد قبل مجيئه، أم أنَّها جاءت لاحقًا، ولكنَّها كانت بالأمس تجلس وراءه مباشرة أثناء «دقيقتي الكراهية». وعادته فكرته السابقة، فقد لا تكون عضوًا في «شرطة الفكر»، وفي هذه الحالة من المؤكَّد أنَّها من الجواسيس وهم الأمَّ أشدَّ خطرًا على الإطلاق. إنَّ ظهور تعبير انفعالي غير لائق على وجهك كأنَّ

تبدو عليك علامات الارتياح حينما يتم الإعلان عن أحد الانتصارات، هو مخالفة تستوجب عقابًا، بل لقد اشتق لذلك اسم في اللغة الجديدة: «جريمة الوجه»!!

عادت الفتاة وأدارت له ظهرها. ففكر ربما أنه لم تكن تلاحقه وربما كان جلوسها خلفه أو قريب منه خلال هذين اليومين محض مصادفة، وقد يكون الشخص الجالس إلى الطاولة المجاورة جاسوسًا لـ «شرطة الفكر»، وربما سيجد نفسه في غضون ثلاثة أيام نزيل إحدى زنانات وزارة المحبة.

بدأ «بارصون» يتكلم ثانية:

- هل سبق لي أن أخبرتك عمّا فعله الصغيران الشقيان، حينما قاما بإشعال النار في تنورة بائعة عجوز في السوق عندما رأياها تلف بعض الشجق بصورة الأخ الكبير؟ لقد تسللوا خلفها وأشعلوا في تنورتها النار مستخدمين علبة ثقاب.. آه من هذين الشقيين. لا شك أن التدريب الأولي الذي يتلقونه في منظمة الجواسيس هذه الأيام، وهو أفضل من ذاك الذي كنا نتلقاه نحن في أيامنا. هل تعرف ما الذي تم تزويدهم به مؤخرًا؟ سماعات بوقه للأذن يتنصتون بها من ثقب مفاتيح الأبواب. لقد أحضرت ابنتي واحدة منها أمس وجربتها على باب غرفة الجلوس ورأت أنها تستطيع بواسطتها أن تسترق السمع ضعفي ما تسترقه بوضع أذنها على ثقب المفتاح.. من المؤكد أن ذلك مجرد لعبة. لكن ألا تظن أن ذلك سيوحي لهم بأفكار مناسبة.

في هذه اللحظة أطلقت «شاشة الرصد» صفرة عالية إيدانًا بالعودة للعمل. فهبّ الرجال الثلاثة من فورهم وانطلقوا يشقون طريقهم وسط الزحام الزاحف بحثًا عن مصعد غير معطل..

شهوات مكبوتة

Stressed desires

كتب «ونستون» في مذكراته: «كان ذلك منذ ثلاث سنوات مضت، وكان الوقت مساء والظلام مخيمًا، وفي شارع جانبي ضيق قرب إحدى محطات القطار الكبيرة. إلى جانب باب عند حائط تحت ضوء قنديل ينبعث منه نور ضئيل، كانت تقف امرأة ذات وجه صغير عليه طلاء كثيف من النوع الذي يروقني في بياضه الذي يشبه القناع، وبشفتين حمراوين لامعتين نساء الحزب كنّ لا يطلين وجوههن أبدًا كانت الشوارع آنذاك خاوية من المارة ومن «شاشات الرصد». مدّت يدها وقالت:

- دولارين..

توقّف «ونستون» قليلاً، فقد صعب عليه مواصلة الكتابة. أطبق جفنيه وضغط عليهما بأصابعه محاولاً أن يمحو ذلك المنظر الذي ظلّ مطبوعاً في مخيلته. وضغطت عليه رغبة جامحة في أن يصيح بأعلى صوته متفوهاً بكلام بذيء أو أن يضرب رأسه بالحائط، ويركل الطاولة ويلقي بالمحبرة خارج النافذة..

ثم أخذ يُردّد بينه وبين نفسه: «إنّ ألد أعدائك هو جهازك العصبي. وما يعتمل في نفسك من توتر قد يورطك في عمل لا تحمد عقباه». تذكر رجلاً مرّ به في الشارع منذ أسابيع قليلة مضت. كان مظهره عادياً تماماً، عضو في الحزب يبلغ من العمر ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين، طويل القامة،

نحيف، ويحمل حقيبة صغيرة. لم يكن يفصل بينهما سوى بضعة أمتار عندما رأى الجانب الأيسر لوجه الرجل ينقبض في تشنُّج فجائي. كان من الواضح أنَّ تلك الحركة عادة عنده. ودار بخلده حينذاك أنَّ ذلك الرجل المسكين قد انتهى أمره. فقد كان المخيف في الأمر أنَّه من الجائز أن تكون تلك الحركة لا إرادية. أمَّا الأشدَّ خطرًا فهو أن يتكلم أثناء نومهِ، إذ لم تكن هنالك من وسيلةٍ للاحتراس من ذلك على حدِّ علمه.

استجمع شجاعته ثُمَّ عاد إلى الكتابة: «مضيت معها عبر البوابة ثم اجتزنا السَّاحة الخلفية إلى مطبخ في قبوٍ حيث كان هنالك سرير قرب الحائط، وعلى الطاولة قنديل خُفض نوره إلى أدنى درجة وهي ..».

وجز بأسنانه وود لو أستطاع أن يبصق. وفي تلك اللَّحظة ذاتها وفيما هو مع المرأة في المطبخ خطرت على باله زوجته «كاترين». فقد كان «ونستون» متزوجًا في وقتٍ ما، ومن المحتمل أنَّه كان لا يزال متزوجًا، فعلى حدِّ علمه أنَّ زوجته لم تكن قد ماتت بعد. وبدا أنَّه يستنشق ثانيةً الرائحة الساخنة المنبعثة من المطبخ، وهي رائحة تختلط برائحة البق والملابس القذرة والعطر الرخيص الذي مع ذلك كان مغريًا؛ لأنَّه ما من امرأة في الحزب تستعمل عطرًا على الإطلاق. وكانت تلك الرائحة تستدعي في ذهنه رغبة ممارسة الجنس دون أن يُدرك لذلك سببًا.

كانت مجامعته لتلك المرأة هي زلته الأولى منذ سنتين أو يزيد، فبُكِّل تأكيد كانت معاشره الساقطات أمرًا محظورًا. كانت مسألة محفوفة بالأخطار لكنَّها ليست مسألة حياة أو موت. فإذا تمَّ القبض عليك مع إحداهن قد يُحكم عليك بقضاء خمس سنوات في معتقل الأشغال الشاقة، لا أكثر من ذلك. وكانت الأحياء الفقيرة تغص بالنساء اللواتي كن على استعداد لأنَّ يعن أنفسهن. كان الحزب يميل لتشجيع الدعارة، ولكن بصورةٍ غير مُعلنة،

باعتبارها متنفسًا لغرائز لا يمكن كبتها كليةً. فالدعارة في حدّ ذاتها لم تكن تهم الحزب كثيرًا ما دامت تتمّ مع نساء الطبقة المحترقة المسحوقة في الخفاء، أمّا الجريمة التي لا تغتفر فهي ممارستها بين أعضاء الحزب.

لم يكن هدف الحزب مُجرّد منع الرّجال والنساء من تكوين ولاءات فيما بينهم، فقد يتعذر السيطرة عليها. لقد كان هدفه الحقيقي غير المعلن هو تجريد العملية الجنسيّة من كلّ لذة. إذ ليس الحبّ هو العدو بقدر ما هي الشهوانية، سواء كانت في إطار الزواج أو خارجه، وكلّ الزيجات بين أعضاء الحزب كان يجب، لكي تتم، أن تحصل على موافقة لجنة تشكلت خصيصًا لهذا الغرض. إنّ الغاية الوحيدة المعترف بها للزواج هي إنجاب الأطفال لخدمة الحزب. وكان ينظر إلى العملية الجنسيّة على أنّها عملية تافهة تدعو للاشمئزاز والتقرّز تمامًا كتعاطي حقنة شرجية. كما أنشئت منظمات مثل: «رابطة الشباب المناهض للغريزة الجنسيّة» التي كانت تدعو للعدوبة الكاملة لكلا الجنسين. فكلّ الأطفال يجب إنجابهم عبر التلقيح الاصطناعي، وتسمى هذه العملية في اللغة الجديدة «أرتسيم»، على أن يُعهد بهم بعد ذلك لمعاهد عامّة. كان «ونستون» يحاول وأد الغريزة الجنسيّة، وإذا تعذر ذلك، فعلى الأقلّ تشويبهها وتحقيرها.

مرّة أخرى لمعت في ذاكرته «كاترين». لا بدّ أنّه انقضت تسع أو عشر سنوات على انفصالهما، وعجب لنفسه كيف لا تخطر على باله إلّا نادرًا. بل وإنّه ولأيام متصلة كان يستطيع نسيان كونه متزوجًا بها، فالحزب لم يكن يسمح بالطلاق وإن كان بدلًا من ذلك يشجع الانفصال في حال عدم الإنجاب.

كانت «كاترين» فتاة طويلة القامة، ناعمة الشعر، هيفاء القَد، رشيقة الحركة، ذات وجه لا يتأثر بشيءٍ، وأنفٍ معقوف. كان وجهها يوحى بالنبل لأوّل وهلة. لكن إذا حدثت فيه لا تجد شيئاً. بعد زواجه بها أدرك أن عقلها هو الأكثر بلادة وتفاهة إلى حدٍّ لم يعرف له مثيلاً. فلم يكن في عقلها سوى الشعارات. «الكاسيت البشري» هكذا كان يلقبها بينه وبين نفسه. ومع ذلك كان بمقدوره أن يتجشم العيش معها لولا علة واحدة هي الجنس.



حكاية امرأة ساقطة

كان يُخيّل إليه أنّها تفرّج منه ويتيسر جسدها كلّما اقترب منها، فإذا احتضنها فكأنما يحتضن تمثالاً خشبياً شُدَّ بمفاصل. والغريب أنّه كان يشعر وهي تشدّه إليها تدفعه بعيداً عنها في الوقت نفسه، وكانت صلابة عضلاتها تساعد على نقل

ذلك الانطباع إليه وأخيراً تستلقي مغمضة العينين فلا تقاوم ولا تتجاوب بل تستسلم. لو أنّها فضّلت العزوف عن الجنس، لكان «ونستون» رضي بنصيبه وتحمل العيش معها، لكن العجيب أنّ «كاترين» هي التي رفضت ذلك بنفسها مُتعلّلة بالرغبة في إنجاب طفل. ومن ثمّ استمرت العملية تتكرّر بانتظام مرّة كلّ أسبوع، كما أنّها اعتادت أن تُذكّره بها في الصباح كشيءٍ يتعيّن القيام به في المساء ولا يجوز نسيانه. وكانت تطلق على هذه العملية اسمين: «أولهما» «صناعة طفل»، والثاني «واجبنا تجاه الحزب». وسرعان ما بات ينتابه شعور بالرعب الشديد كلّما حان الوقت الموعود لذلك. لكن من حُسن الحظ لم تثمر علاقتهما طفلاً ولذا فقد كف عن المحاولة وسرعان ما انفصلا.

بعد ذلك تنهد «ونستون»، وتناول قلمه مرّة أخرى وراح يكتب: «وألقت بنفسها على الفراش وفي الحال، وبدون أي نوع من المداعبات وبطريقة في منتهى اللامبالاة والخشونة رفعت تنورتها، وأنا...».

ووجد نفسه واقفاً هناك في ضوء المصباح الخافت وقد امتلأت أنفه برائحة البق والعطر الرخيص، وفي قلبه شعور بالانهزام والنفور ممزوجاً بالتفكير في جسد «كاترين» الأبيض الذي تجمّد إلى الأبد تحت تأثير قوة الحزب التخديرية. وتساءل: لماذا يضطر إلى ذلك؟ لماذا لا تكون له امرأة تخصه، بدلاً من تلك النزوات القذرة التي تتنابه على فترات متباعدة؟

لقد كان وجود علاقة حبّ حقيقية أمراً لا يمكن الطموح إليه، إذ كانت نساء الحزب كلهن متشابهات. كانت العفّة متجذرة فيهن تجدر ولائهن للحزب. كان عقله يخبره بأنّه لا بدّ أن هناك استثناءات لذلك، ولكن قلبه لم يصدقه، إذ كنّ جميعاً محصنات مثلما أرادهن الحزب. وكانت غاية آماله أن يسقط حصن الفضيلة ولو لمرة واحدة في حياته.

وإذا كان لا بدّ من كتابة القصّة فقد أخذ القلم، وكتب: «رفعت فتيلة القنديل لمزيد من النور. وعندما وقعت عيناى عليها في الضوء. بسبب الظلام المخيم بدا ضوء المصباح الزيتي الضعيف كأنما ازداد توهجاً. وكانت هي تلك المرّة الأولى التي يراها فيها بوضوح. تقدّم نحوها خطوة ثمّ توقف وقد تملكته رغبة فيها يشوبها الرعب. إذ كان يدرك تماماً المجازفة التي أقدم عليها بمجيئه إلى هنا. فمن الجائز تماماً أن يُقبض عليه أثناء خروجه، وربما يكون رجال الدورية في انتظاره أمام الباب الآن. بل وربما همّ بانتظاره خارج الباب في هذه اللّحظة للقبض عليه حتى لو غادر المكان دون أن يقربها.

لا بدّ من كتابة ما جرى، يجب الاعتراف به. اكتشف على ضوء المصباح أنّ المرأة كانت عجوزًا التصقت بوجهها طبقة سميكة من طلاء الزينة إلى حدّ بدا كأنّه سينهار عند أول ملامسة كقناع كرتوني، كما كان الشيب قد خط شعرها. وعندما فرغت فاها قليلًا لم يكشف إلّا عن فراغ كفراغ الكهوف يبعث على الخوف إذ كانت بلا أسنان.

وأخذ يكتب بسرعة، وبخطٍ غير منتظم: «وعندما رأيتهما في ضوء القنديل وجدتها عجوزًا لا يقلّ عُمرها عن الخمسين، لكنني مضيت قدمًا وباشرتها كالمعتاد».

وضغط بأصابعه على جفنيه ثانية. لقد أتمّ كتابة الحكاية أخيرًا، ولكن دونما أن يشعر بأي فارق، فذلك العلاج يخلصه من تلك الرّغبة الجامحة في الصياح بأعلى صوته مُطلقًا أقذر الكلمات.

* * * *

صورة الأخ الكبير

Big Brother Picture

وكتب «ونستون»: «إن كان هنالك من أمل، فالأمل يكمن في عامة الشعب. فمن هذه الكتلة البشرية المهمشة، والتي تمثل 85 ٪ من تعداد شعب «أوقيانيا» يمكن أن تُبعث القوّة التي تدمّر الحزب. لا يمكن إسقاط الحزب من داخله، فأعداؤه، إن كان له أعداء أصلاً، لا يمكنهم أن يجمعوا صفوفهم. لو أمكن لعامة الشعب أن يدركوا مدى قوّتهم لما كانت هناك حاجة للتآمر، فكلّ ما يحتاجه الأمر أن يتفوضوا مثلما يتفرض الحصان لإزالة الذباب بعيداً عنه. ولو شاءوا لمزقوا الحزب وأحالوه هشيماً وحطاماً بين عشية وضحاها».

وتذكّر كيف كان يسير ذات مرّة في شارع مزدحم عندما انبعث صياح مدوّ لمئات الأصوات (أصوات نساء) من شارع جانبي على مقربةٍ منه. لقد كانت صرخة غضب ويأس قويّة وعميقة أخذت تدوي كأنّها صدى أجراس تدق. وشعر بقلبه يثب من الفرح. لقد حانت اللّحظة! هكذا ظنّ. إنّهُ الهيجان! وما إن وصل ذلك المكان حتى رأى حشداً من الغوغاء يُقدّر بثلاثمائة امرأة وقد تجمهرن حول أكشاك سوق الشارع وبدت وجوههن ملتاعة. غير أنّه في هذه اللّحظات استحال ذلك القنوط الجماعي إلى مشاجرات فردية نشبت بين المتجمهرات. واتضح أنّ أحد هذه الأكشاك كان يبيع قدوراً من الصفيح ذات نوعية رديئة ورخيصة في حين كان من الصّعب الحصول على أوعية لطهي من أي نوع. فكانت بعض النسوة يحاولن الابتعاد بما فزن من أوعية

ويتعرّضن للضرب والدفع أثناء ذلك، فيما راحت عشرات أخريات يصحن حول الكشك متهمات البائع بالتحيز وإخفاء الأوعية. كان «ونستون» يراقب المنظر باشمئزاز وتعجب، وتساءل: لماذا لا يصرخن مثل هذه الصرخات من أجل شيء له قيمته؟

وهنا عاد إلى مذكراته ومضى يكتب: «لن يثوروا حتى يعوا، ولن يعوا إلا بعد أن يثوروا».

كان الحزب يزعم بالطبع، أنه حرّر العامة من أغلال العبودية، فقبل الثورة كانوا يلاقون أشنع أنواع الاضطهاد على أيدي الرأسماليين، كما يُضربون بالسياط ويتضورون جوعاً. وكانت النساء يُكرهن على العمل في مناجم الفحم (النساء ما زلن يعملن في مناجم الفحم)، وكان الأطفال يباعون إلى المصانع في سن السادسة. ولكن في الوقت نفسه ومما يتوافق مع «ازدواجية التفكير» كان الحزب في أدبياته يؤكّد على أنّ عامة الشعب طبقة وضیعة بالفطرة. في الحقيقة لم يكن ثمة ما يدعو لمعرفة المزيد عن العامة، فماداموا يعملون ويتكاثرون فتصرّفاتهم الأخرى غير ذات أهمية. لذلك فقد تُرك لهم الحبل على الغارب كقطيع من الأبقار تُرك طليقاً، يعيشون نمطاً من الحياة، يتناسب مع طبائعهم. كانوا يولدون ويكبرون في الأزقة الفقيرة ثمّ يذهبون للعمل في سن الثانية عشرة، وبعدئذ يتزوجون في العشرين، ويموت معظمهم في الستين. كلّ ما يشغل بالهم: العمل الجسدي، ورعاية الأطفال، والمشاغرات التافهة بين الحيران، ومشاهدة الأفلام، ولعب الكرة واحتساء الجعة (البيرة).. ومن ثمّ لم تكن السيطرة عليهم أمراً عسيراً. لم يكن هناك أية محاولة لغرس أيديولوجية الحزب فيهم، إذ لم يكن من المرغوب فيه أن يكون لدى عامة الشعب وعي سياسي قوي، فكلّ ما هو مطلوب منهم وطنية بدائية يمكن اللجوء إليها حينما يستلزم الأمر، وإقناعهم بقبول ساعات عمل أطول أو حصص أقلّ من السلع التموينية، بل وحتى عندما كان يتتابه

الشعور بالسخط ، فإنَّ سخطهم لم يكن ليفضي إلى شيء؛ كونهم يعيشون بلا مبادئ عامة.

لقد كانت لندن تغص بالجرائم، فكان فيها عالم كامل من اللصوص، وقُطاع الطرق، ومحترفي الدعارة، وتجار المخدرات، والمحتالين، ولكن ليس لذلك أي اعتبار ما دام يجري بين عامة الشعب. ولم يكن التزمت الحزبي فيما يخص الحياة الجنسيَّة يُفرض عليهم، والفحشاء كانت تمرّ دون عقاب، والطلاق كان مسموحاً به. ولذلك كان يُسمح لهم بممارسة الشئار الدينية وإذا ما أبدوا حاجة أو رغبة في ذلك فهم ليسوا موضع شكّ. وفي ذلك كان شعار الحزب يقول: «عامة الشعب والحيوانات أحرار».

انحنى «ونستون» وحكّ دواليه بحذر. والشيء الذي كان في ذهنه هو أنّه من المستحيل معرفة الصورة الحقيقية للحياة قبل الثورة. وأخرج من الدرج نسخة من نصوص التاريخ الخاصّ بالأطفال والذي استعاره من السيّد «بارصون»، وأخذ ينسخ قطعة منه إلى مذكراته: «في الأيام الغابرة قبل الثورة المباركة، لم تكن لندن جميلة كما نعرفها اليوم. لقد كانت مكاناً مظلماً قذراً بائساً، ألوف الفقراء يسرون حفاة وبلا مأوى، وكان الأطفال الذين في مثل أعماركم يُكرهون على العمل لاثنتي عشرة ساعة في اليوم لحساب سادة قساة يجلدونهم بالسياط إذا أبطأوا في عملهم ولا يطعمونهم إلا فتات الخبز والماء. ووسط هذا الفقر المدقع، كانت هناك بضعة بيوت كبيرة ورائعة يسكنها رجال أثرياء لدى كلّ منهم ثلاثون خادماً على الأقلّ وهؤلاء كانوا يسمون بالرأسماليين. وهم رجال سمان ذوو وجوه قبيحة. وباستطاعتك عزيزي الطفل أن ترى الرأسمالي وهو يرتدي معطفاً طويلاً أسود اللون، وقبعة غريبة لامعة تشبه مدخنة الموقد وكانت تسمى القبعة العالية، ذلك هو الزى الرسمي للرأسماليين ولم يكن يُسمح لأحدٍ سواهم بلبسه. وكان هؤلاء يملكون كلّ شيء: الأراضي والمنازل والمصانع والأموال. وإذا ما خرج

أحد عن طاعتهم فقد كان بمقدورهم أن يلقوا به في السجن، وإذا رغب أي شخص عادي في التحدث إلى رأسمالي كان عليه أن يجمع أطراف ثوبه وينحني ويخلع قبعته ويخاطبه بكلمة «سيدي»، وكان رئيس كل هؤلاء الرأسماليين يُسمى الملك...».

وكان «ونستون» يعرف بقية ما يحتويه الكتاب. إذ فيه إشارة إلى الأساقفة في أديتهم ذات الأكمام الواسعة، والقضاة في معاطفهم الفاخرة، وآلات التعذيب.. وكان هنالك أيضًا ما يجب عدم ذكره في كتب الأطفال. إنه القانون الذي كان يُعطي الحق لكل رأسمالي أن يضاجع أي امرأة تعمل في أحد مصانعه.

كيف كان يمكنك أن تعرف مقدار ما في ذلك من أكاذيب؟ إنه الشعور الغريزي بأن الأوضاع التي نعيشها لا تُطاق وبأنها لا بد كانت في وقت سابق مغايرة لما هي عليه الآن. وفكر أن ما يُميّز حقًا الحياة العصرية لم يكن قسوتها أو انعدام الطمأنينة، وإنما هو العُري والانحطاط واللامبالاة.



ولو أمعنت النظر فيما حولك لتبين لك أن الحياة لا تشبه في شيء تلك الأكاذيب المتدفقة على «شاشات الرصد»، ولا تلك المثل التي كان الحزب يسعى إلى إرسالها، تلك المثل غير المؤثرة، حيث هناك التراحم للحصول على موطن قدم في قطار الأنفاق، أو رتق جورب متهرئ، الأمل يكمن في عامة الشعب أو تسؤل قطعة سكر، أما المثل التي كان يروج لها في الحزب فقد كانت شيئًا ضخماً مخيفاً وبراقاً، وتوحي لك بأنك وسط أمة من المُحاربين والمتعصبين الذين يمضون قدمًا كبنيان مرصوص ويفكرون تفكيرًا واحدًا،

ويهتفون بشعاراتٍ واحدةٍ، ويعملون بلا كسل، ويقاطلون ويتصرفون، ويبلغ تعدادهم ثلاثمائة مليون من الأنفس ذوي الوجوه المتماثلة. أمّا الحقيقة فهي في المدن القدرة الكئيبة والآلة للسقوط يروح ويجيء فيها بشر جياع، يُعانون من سوء التغذية، بأحذيةٍ باليةٍ، وثيابٍ مهلهلةٍ، ويقطنون بيوتًا متداعية تفوح منها رائحة الكرب المسلوق ممزوجة بروائح قدرة.

سار «ونستون» مع أفكاره بين هذه الحياة البائسة وما يدعيه الحزب من أكاذيب. فليلاً ونهاراً كانت «شاشات الرصد» تصم أذنيك بالإحصائيات التي تبرهن على أنّ الشعب اليوم لديه طعام أكثر، وثياب أوفر، وبيوت ووسائل راحة أفضل. وأنّهم أصبحوا يعيشون أطول، ويعملون ساعات أقلّ، وأنّهم أكبر وأصح وأقوى وأسعد وأذكى وأكثر ثقافة من أولئك الذين كانوا على قيد الحياة منذ خمسين سنة مضت.

هذا ولم يكن من الممكن التدليل على صدق أو كذب كلمة واحدة من ذلك. فمثلاً كان الحزب يزعم أنّ 40 ٪ بين البالغين من عامة الشعب متعلمون، أمّا قبل الثورة فقد كانت النسبة 15 ٪ فقط. وعلى هذا المنوال كانت الإحصاءات تجري.

كلُّ شيء كان يلفّه الضباب، فالماضي تمّ محوه من الوجود، وما تمّ محوه بات في طي النسيان وصارت الكذبة حقيقة. مرّة واحدة في حياته، عثر على دليل مادي لا يرقى إليه شكّ على عملية تزييف وأمسك به بين أصابعه لثلاثين ثانية فقط. لا بدّ أن ذلك كان في عام 1973.

بدأت القصّة فعلاً في منتصف الستينيات إبان موجات التطهير الكبرى التي جرى فيها تصفية الزعماء الأصليين للثورة دفعة واحدة. وبحلول عام 1970 لم يكن قد تبقى منهم أحد، ما عدا «الأخ الكبير». حيث فرّ «جولدشتاين» إلى حيث لا يعرف أحد. فيما توزّع الآخرون. قلة منهم اختفت، وأغلبية

تمّ إعدامها بعد محاكمات علنية صورية اعترفوا خلالها بما نُسب إليهم من جرائم. وكان من ضمن مَنْ بقى على قيد الحياة ثلاثة رجال هم: «جونز»، و«أرونسون»، و«راذرفورد»، وكان هؤلاء الثلاثة قد أُلقي القبض عليهم عام 1965. وكما يحدث غالبًا فقد اختفوا لمدة عام، وبعدئذ وعلى نحو مفاجئ جيء بهم ليُجرّموا أنفسهم بالطريقة المعهودة، بحيث اعترفوا بالتجسس لصالح الأعداء، وباختلاس المال العام، وبقتل العديد من أعضاء الحزب، وتدمير الدسائس ضدّ زعامة «الأخ الكبير» للثورة، ولكن بعد اعترافهم بهذه الجرائم صدر أمر بالعفو عنهم وأعيدوا إلى الحزب ومنحوا مناصب بألقاب رنانة لكنها خاوية من الصلاحيات، وكتب ثلاثتهم مقالات مطولة وخسيسة يشرحون فيها الأسباب التي دفعتهم للانشقاق عن الحزب سابقًا، وقطعوا العهود على إصلاح أنفسهم.

وبعد فترة من إطلاق سراحهم رأهم «ونستون» في مقهى شجرة الكستناء. كانوا يكبرونه سنًا. كان عقب النضال السري والحرب الأهلية ما زال عالقًا بهم على نحو خافت. انتابه شعور آنذاك، رغم أنّ التواريخ والحقائق في ذلك الوقت كانت عرضة للعبث بها، بأنّه سمع بأسمائهم قبل سنوات من سماعه بـ «الأخ الكبير». لكنهم الآن خارجون على القانون ومحكوم عليهم بالزوال في غضون سنة أو سنتين. لقد كانوا جثثًا في انتظار مَنْ يُعيدّها إلى قبورها.

لم يكن من الحكمة أن يُرى أحد بجوار مثل هؤلاء الناس، لذلك خلت أقرب الموائد إليهم من رُؤاد المقهى. وكانوا يجلسون وقد خيم السكون عليهم وأمامهم كؤوس الخمر المعطرة بالقرنفل.. ومن بين الثلاثة كان «راذرفورد» وحده هو الذي ترك أثرًا خاصًا في «ونستون». فهذا الرّجل كان رسامًا كاريكاتوريًا شهيرًا، ألهمت رسومه الهزلية الفاسية الرأي العام الشعبي قبل وأثناء الثورة. وحتى الآن، وعلى فترات متباعدة كانت صورته الهزلية تظهر في جريدة «التايمز»، مُجرّد محاكاة لأسلوبه الأوّل، ولكنها عديمة

الروح ولا تبعث على الإقناع. كان «راذرفورد» رجلاً ضخماً الجثة، ذا غرة من شعر ذهني رمادي، ووجه منتفخ مجعد، وشفيتين سميكتين مكتنزتين.

ولم يستطع «ونستون» أن يتذكر الآن كيف أتى إلى المقهى في مثل هذا الوقت، إذ كانت الساعة السادسة مساءً، وكان المكان شبه خاوي، وثمة موسيقى خفيفة تنساب من «شاشة الرصد». بينما جلس الرجال الثلاثة في زاويتهم صامتين وبلا حراك.

وبعدئذ وربما لنصف دقيقة من الزمن طرأ تغيير على الشاشة، إذ تغير اللحن وتغيرت معه الموسيقى. كان شيئاً يصعب وصفه. كانت النغمة الجديدة نغمة تافهة متكسرة مزعجة، نغمة أسماها «ونستون» في عقله «نغمة صفراء»، وبعد ذلك صدح صوت من الشاشة بما يلي:

تحت شجرة الكستناء الوارفة

بعتك وبعثني

وها هم يرقدون هناك ونحن نرقد هنا

تحت شجرة الكستناء الوارفة

لم يُحرِّك الرجال الثلاثة ساكنًا. ولكن عندما تطلع «ونستون» إلى وجه «راذرفورد» المحطم مرّة ثانية رأى عينيه وقد اغرورقتا بالدموع. ولاحظ وللمرّة الأولى وقد استولت عليه رعشة داخلية لم يعرف مبعثها، لاحظ أنّ كلاً من «آرونسون»، «راذرفورد» كان أنفهما مكسورًا.

وبعد ذلك بوقت قليل ألقى القبض على ثلاثتهم من جديد، فقد ظهر أنّهم كانوا قد انخرطوا في مؤامرة جديدة بعدما أطلق سراحهم، واعترفوا أثناء محاكمتهم الثانية بجميع جرائمهم القديمة مرّة أخرى إضافة إلى سلسلة من الجرائم الجديدة، ثمّ أعدموا وجرى تسجيل ما أنزل بهم من عقاب في

تاريخيات الحزب ليكونوا عبرة للأجيال القادمة. وبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ أي في عام 1973 ، كان «ونستون» يُقَلَّب ملف مستندات، فَعَثَر على قصاصة ورق، وما إن دَقَّق فيها حتى أدرك أهميتها. إنَّها نصف صفحة قُطِعت من جريدة «التايمز» الصادرة منذ عشر سنوات، عليها التاريخ وعليها أيضًا صورة لمندوبي الحزب في فرع نيويورك. وكان يتوسط هذه المجموعة هؤلاء الثلاثة. وكانت أسماؤهم تظهر أسفل الصورة.

المهم في هذا الموضوع هو اعترافهم أثناء محاكمتهم الأولى والثانية بأنَّهم كانوا في ذلك التاريخ، تاريخ الجريدة، في «أوراسيا». وأنَّهم طاروا من مطار سرى في كندا إلى موعد حُدِّد لهم في مكانٍ ما من سيبيريا، وهناك التقوا أعضاء القيادة العامَّة لأوراسيا، وأفضوا إليهم بأسرارٍ عسكريةٍ مهمَّةٍ، وكان هذا التاريخ قد علق في ذاكرة «ونستون» لأنَّه كان يُصادف عيد منتصف الصيف ولا بدَّ أنَّ القِصَّة كُلَّها مسجلة في أماكن أخرى لا حصر لها أيضًا. وخلص «ونستون» من ذلك إلى نتيجةٍ واحدةٍ مفادها أنَّ الاعترافات كانت كاذبة وملفقة.

ومن الطبيعي أنَّ ذلك لم يكن يُعد في حدِّ ذاته اكتشافًا، فحتى ذلك الوقت، لم يكن «ونستون» يتخيَّل أنَّ الناس الذين تطالهم حملات التطهير قد ارتكبوا فعلاً ما يهتمون به من جرائم ولكنه كان دليلاً مادياً، إنَّه قطعة من الماضي الذي تمَّ مَحُوهُ، مثل عظام الحفريات، تظهر في طبقة غير طبقتها فتقوض نظرية جيولوجية. إنَّه دليلٌ كان يكفي لإحالة الحزب إلى هشيم تذروه الرياح فيما لو تمَّ عرضه أمام العالم وكشف مغزاه.

استمر «ونستون» في عمله عندما رأى الصورة وأدرك ما تعنيه، ثُمَّ غطاها بورقةٍ أخرى. ولحُسْن الحظ كان اتجاه الصورة بعكس «شاشة الرصد» حينما بسطها أمامه.

تناول «ونستون» دفتر الكتابة ووضع على ركبتيه، ودفع بالكرسي إلى الوراء حتى يصبح بعيداً قدر المستطاع عن «شاشة الرصد». وبعد عشر دقائق ودون أن يكشف الورقة ثانية. قذف بها إلى مقبرة الذاكرة مع أوراق أخرى لا لزوم لها. في خلال دقيقة ستصبح رماداً.

كان ذلك منذ عشر سنوات خلت، ولو أنَّ ذلك حدث اليوم لكان من المحتمل أن يحتفظ بتلك الصورة. والعجيب أنَّ مُجرَّد إمساكه بها بين أصابعه أثار فيه إحساساً مغايراً لما كان عليه من قبل، رغم أنَّ الصورة نفسها، وكذلك الحادثة التي سجلتها، كانت مُجرَّد ذكرى. وتساءل: «ترى هل أصبحت عندي قبضة الحزب على الماضي أقلَّ قوَّة بسبب دليل تافه لم يعد له وجود وكان قائماً في الماضي؟».

لكن في هذه الأيام وعلى افتراض أنَّ الصورة بعثت من رمادها بطريقةٍ ما، فإنَّها لا يمكن أن يُعتد بها كدليل. ففي زمن اكتشافه لهذا الدليل لم تكن «أوقيانيا» قد دخلت بعد في حربٍ مع «أوراسيا». ولا بدَّ أنَّ الرِّجال الثلاثة قد أفسحوا أسرار بلادهم لعملاء شرق آسيا، وبعد ذلك الوقت ظهرت اتهامات أخرى كما أنَّه من المحتمل أنَّ الاعترافات قد أُعيد تنقيحها مرَّات ومرَّات إلى أن أصبحت الحقائق والتواريخ الأصلية بلا معنى على الإطلاق. فالماضي لم يكن قد تغيَّر فحسب، بل كان في تغيُّر دائم. وأشدُّ ما كان يجثم على صدره أنَّه لم يفهم أبداً لماذا يمارسون علينا الخداع والدجل، فالقوائد المباشرة لتزييف الماضي واضحة لكن الغاية البعيدة من ورائها كانت غامضة. فأخذ قلمه ثانية وكتب: «إنَّني أفهم (كيف) لكن لا أدرك (لماذا)».

التقط «ونستون» كتاب التاريخ الخاص بالأطفال ثم تطَّلع إلى صورة «الأخ الكبير» التي تغطي الغلاف، حيث العينان المغناطيسيتان تحدقان فيه وكأنَّما كانت هنالك قوة هائلة تجثم عليك. شيءٌ يخترق الجمجمة ويدخل إلى دماغك فيزعزع معتقداتك، ويحملك على أن تنكر على حواسك ما تشعر به فمن الممكن في نهاية المطاف أن يُعلن الحزب أنَّ اثنين واثنين يساويان خمسة وعليك أن تصدق ذلك. وعاجلاً أم آجلاً سيحصل ذلك.

لقد كان الحزب يوصي بأن ترفض تصديق ما تراه عيناك وما تسمعه أذناك. كان هذا هو توجيهه الأكثر أهمية. ومع هذا فقد كان «ونستون» متيقناً أنَّه على صواب وهم على ضلال. وعليه الدفاع عن الواضح والحقيقي. فالبديهيات الواضحة عليك أن تتمسك بها. إنَّ العالم المادي موجود، وله قوانين لا تتغيَّر، فالحجارة صلبة والماء سائل والأشياء التي لا تتركز على شيءٍ تهوى نحو الأرض. وتحت تأثير شعوره بأنَّه يتحدث إلى «أوبراين» الذي كان يعرف بيقين أنَّه في صفه، كتب «ونستون»: «الحُرِّيَّة هي حُرِّيَّة القول بأن اثنين واثنين يساويان أربعة، فإذا سُلم بذلك سار كل شيء آخر في مساره السليم».

* * * *

في رحلة البحث عن الحقيقة

In the search for the truth

كانت رائحة بُنْ مُحَمَّص تفوح في أنحاء الشارع منبعثة من مكانٍ ما في أسفل الممرّ، بُنْ حقيقيّ وليس بُنْ النصر، توقف «ونستون» للحظات ربما عادت به ذاكرته خلالها إلى دنيا الطفولة المنسية، وبعدئذ أغلق باب فاخفت الرائحة على أثر ذلك فجأة.

كان قد جال عدة كيلومترات فوق الأرصفة حينما عادت دواليه تنفر عليه. وكانت هذه هي المرّة الثانية خلال ثلاثة أسابيع التي يتخلف فيها عن حضور الأمسيات في المركز الاجتماعي، وفي هذا تهوُّر لأنّ عدد مرّات الحضور كان موضوع مراجعة دقيقة. وكان إقدام العضو على عملٍ يوحي بميل للعزلة، حتى لو كان ذلك نزهة على الأقدام يقوم بها منفردًا، هو عمل فيه مخاطرة واضحة. وكان يُعبّر عن ذلك في اللغة الجديدة بكلمة «حياة خاصّة»، وهي تعني الفردية والتمركز حول الذات، ولكنه عندما انصرف من الوزارة في ذلك المساء أغراه نسيم أبريل العليل بمتابعة السير.

وصل «ونستون» إلى مكانٍ ما وسط الأحياء القذرة داكنة اللون والواقعة شمال شرق ما كان يُعرف ذات يوم بمحطة «القديس بانيراس». كان يسير في شارع مرصوف بالأحجار، على جانبيه تصطف بيوت صغيرة من طابقين مُحطمة الأبواب. وفي مداخل الأبواب المعتمة وفي الأزقة الضيقة المتفرّعة، كانت أعداد هائلة من الناس تتكوّم، فتياتٌ في سن الصّبّا وقد طلين شفاههنّ بطريقة فجّة، وشبابٌ يلاحقونهن، ونساءٌ مترهلات يسرن متهاديات، وأطفال في ثيابٍ مهلهلة وأقدام حافية يلعبون في برك الماء.. ولم يعر معظم الناس

اهتمامًا بـ«ونستون» عدا قلة منهم. وكانت تقف على مدخل أحد الأبواب امرأتان ضخمتان تتجاذبان أطراف الحديث، وما إن مرَّ بهما «ونستون» حتى لاذتا بالصَّمت فجأةً وهما تتفحصانه بنظراتٍ عدائيةٍ صامتة. أو بنظراتٍ حذرةٍ متخوفةٍ، إذ لم تكن رؤية اللباس الأزرق أمرًا مألوفًا في مثل هذا الشارع. ومن المؤكَّد أنه لم يكن من الحكمة في شيء أن يكون موجودًا في مثل تلك الأماكن في مثل تلك الأماكن ما لم تكن مُكلِّفًا بمهمةٍ مُحدَّدةٍ هناك.

وفجأةً امتلأ الشارع عويلاً وصراخًا، وانبعثت صيحات الإنذار، وأخذ الناس يتقاطرون إلى مداخل الأبواب كالأرانب. وفي لحظةٍ بعينها اندفع رجل يرتدي حُلَّة سوداء من زقاق جانبي وقفز نحو «ونستون» وهو يشير بفرعٍ إلى السماء ويصيح في وجهه:

- بارجة! احذر أيها المسؤول! إنَّها تدوي فوق رأسك، انبطح أرضًا بسرعة.

وكان العامة لسبب ما يستعملون كلمة بارجة للإشارة إلى القذائف الصاروخية. انبطح «ونستون» أرضًا وشبَّك ساعديه حول رأسه، ثُمَّ سُمِعَ أزيز مدوي بدا له كما لو أن الأرض قد ارتجت بقوةٍ وتساقط وابل من أجسام خفيفة على ظهره ثُمَّ تبيَّن له عندما وقف على قدميه أنَّها كانت شظايا من زجاج تطاير من النوافذ القريبة.

وبعدئذ تابع سيره، وكانت القبلة قد دَمَّرت مجموعة من البيوت بامتداد مائتي متر. أخذ شارعًا جانبيًا ليتحاشى الزحام، وفي غضون ثلاث أو أربع دقائق كان قد أضحي خارج المنطقة المنكوبة. وكانت السَّاعة قد بلغت الثامنة مساءً تقريبًا وقد غصَّت الحانات بروَّادها من عامة الشعب. وفي زاويةٍ أمام أحد المنازل وقف ثلاثة رجال وقد أمسك أوسطهم بجريدةٍ مفتوحةٍ كان واضحًا أنَّهم يقرأون نباءً على جانبٍ من الخطورة، وعندما أصبح على بعد خطواتٍ منهم تفرَّقوا فجأةً ودخل اثنان منهم في تالسن عنيف، فقد كانوا يتحدَّثون عن اليانصيب. وبعدما ابتعد عنهم مسافة ثلاثين مترًا نظر

خلفه فوجدهم ما زالوا يتشاحنون فمن المرجح أن هناك بضعة ملايين من العامة الذين يعتبرون اليانصيب هو السبب الرئيس، إن لم يكن الوحيد وراء تمسكهم بالحياة.

وما إن استدار «ونستون» إلى شارع متفرع حتى انتابه شعور بأنه جاء إلى هذا المكان من قبل وأن هناك طريقاً رئيساً غير بعيد حيث كان يوجد حانوت يبيع الأشياء القديمة الذي سبق أن اشترى منه مفكرته. ومن مكتبة صغيرة وقريبة كان قد اشترى ماسكة الريشة والحبر.

توقف لحظة حيث كانت هناك حانة قدرة. اندفع من الباب دائم الاهتزاز رجل حناه الكبير دون أن يفقد نشاطه. وكان ذا شارب أبيض أشعث مُدبباً إلى الأمام. عندما وقف «ونستون» يراقبه، خطر له أنَّ ذلك الرجل العجوز كان في أواسط عُمره عندما اندلعت الثورة، كما كان وأمثاله هم آخر الحلقات التي تربطنا بعالم الرأسمالية الذي تهاوى.

تملكته رغبة جنونية في أن يدلف إلى الحانة ويلقي إلى الشيخ بما يُحيره من تساؤلات: أخبرني عن حياتك عندما كنت صغيراً. ماذا كانت عليه الحال في تلك الأيام، هل كانت الأمور أحسن ممَّا هي عليه الآن أم أسوأ؟

دفع الباب أمامه حيث فاجأته رائحة الجعة البشعة، وما إن دخل «ونستون» حتى خفت حدة الضجيج وأحس أن الجميع يرمقون لباسه الأزرق. كان العجوز الذي تعقبه يقف عند البار منهمكاً في جدال مع السَّاقِي صاحب الأنف المعقوف. وبعد انتهاء الجدل الصاخب احمراً وجه العجوز، واستدار مبتعداً وهو يتمتم، ولكن «ونستون» أمسك ذراعه بلطفٍ، قائلاً:

- هل تسمح لي أن أقدم لك شراباً.

فرد العجوز قائلاً:

- إنَّك سيّد مهذب.

ونادى «ونستون» على السّاقى الذى صبّ لهما نصفى لتر من جعة داكنة اللّون في كأسين. كان المكان خلواً من «شاشات الرصد» وهو ما حرص «ونستون» على التحقّق منه فور دخوله المكان.

قال له «ونستون» متردّداً:

- لا بدّ أنّك شاهدت تغيّرات كبيرة منذ كنت شاباً؟

فأجاب العجوز:

- كانت الجعة أحسن وأرخص، كان ذلك قبل الحرب.

فسأله «ونستون»:

- أي حرب تقصد؟

فأجاب الرّجل بغموضٍ:

- كلّها.

فقال «ونستون»:

- إنّك تكبرني سنّاً بكثير ولا بدّ أنّك كنت رجلاً ناضجاً قبل أن أولد أنا، ويمكنك أن تتذكّر كيف كانت الحياة قبل الثورة فالذين هم في مثل سني لا يعلمون شيئاً عن تلك الأيام وليس أمامنا من سبيل لذلك سوى الكتب ومَنْ يدري ربما يكون ما سُجل في الكتب غير صحيح، ولذا أودّ معرفة رأيك في ذلك. إنّ كتب التاريخ تقول إنّ الحياة قبل الثورة كانت تختلف جذريّاً عمّا هي عليه الآن، فقد وصل الجور والفقر والعسف إلى حدٍّ من السوء لا يمكن تخيله، وكان غالبية العمال في لندن لا يجدون ما يسد رمقهم. كما كانوا يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وبنام العشرة منهم في غرفة، وفي الوقت نفسه كانت توجد فئة قليلة من الناس، تتمتع بالثراء والسلطة ويسمون بالرأسماليين. كانوا يسكنون قصوراً ذات أبهة، ويستقلون عربات تجرها الخيول، ويشربون الشمبانيا، ويرتدون القبعات العالية.

تهلّل وجه الرّجل العجوز فجأةً، وقال:

- قبعاتٌ عاليةٌ! لقد خطرت تلك القبعات ببالي بالأمس فقط ولست أدري لماذا؟ لم أر أي قبعة منذ سنين، فأخر مرّة ارتديت واحدة كانت في جنازة زوجة أخي. لا بد أن ذلك كان منذ خمسين عامًا، وبالطبع كانت القبعة مستأجرة، لعلك تفهم ما أقصد.

قال «ونستون» وهو يُخفي امتعاضه:

- إنني لا أهتم كثيرًا بموضوع القبعات العالية، فما يهمني هو أن هؤلاء الرأسماليين كانوا سادة الأرض. وكنتم أيها العمال عبيدًا لهم، ومن حقهم أن يفعلوا بكم ما يشاءون، فباستطاعتهم أن يناموا مع بناتكم إذا رغبوا في ذلك، وأن يأمرؤا بجلدكم. وكان عليكم أن ترفعوا لهم القبعات إذا ما مررتم بهم، كما كان كلُّ رأسمالي يجول مُحاطًا بعصابةٍ من الأذنان الذين..

وتهلّل وجه العجوز مرّة أخرى، وقال:

- الأذنان! لم أسمع بهذه الكلمة منذ زمن طويل، إنني أتذكّر أحد الخطباء وهو يتحدّث عن أذنان البرجوازيين⁽⁴⁾ وخدم الطبقة الحاكمة ويتحدّث عن الطفيليين. وكان يسميهم أيضًا الفعلة مشيرًا إلى ضرب العمال، لعلك تفهم ما أقول.

وشعر «ونستون» أن العجوز كان يُغني على ليله. فقال:

(4) البرجوازية The bourgeoisie، هي طبقة اجتماعيّة ظهرت في القرنين 15 و 16، تمتلك رؤوس الأموال والحرف، كما تمتلك كذلك القدرة على الإنتاج والسيطرة على المجتمع ومؤسسات الدولة للمحافظة على امتيازاتها ومكانتها بحسب نظرية «كارل ماركس». والجدير بالذكر هنا أن الطبقة البرجوازية هي التي قامت بالثورة الفرنسيّة بتحالف مع طبقة العمّال والفلاحين، وبعد ذلك انقلبت على مبادئ الجمهورية الأولى بدعم الجيش بقيادة «نابليون بونابرت»، وبالتالي سيطرت البرجوازية على إدارة الثورة الفرنسيّة، بعدما استطاعت الإطاحة بطبقة النبلاء ورجال الدين. (المعد).

- ما أريد معرفته منك هو هل تشعر أنك تتمتع الآن بحُرِّيَّةٍ أوسع ممَّا كنت تتمتع بها في تلك الأيام، هل تُعامل كإنسان؟ في الأيام الخوالي هل كان الأغنياء..

أضاف الرَّجل العجوز متذكِّراً:

- مجلس اللوردات⁽⁵⁾!

فقال «ونستون»:

- مجلس اللوردات إن شئت ذلك، ولكن ما أسألك عنه هو: هل كان هؤلاء الناس يعاملونك بازدراءٍ لمُجرَّد أنَّهم أغنياء وأنَّك فقير؟ وهل صحيح أنَّه كان يتعيَّن عليك مخاطبتهم بلقب «سيِّدي»، وخلع قبعتك كُلِّما مررت بهم؟

فقال العجوز:

- أجل، كانوا يحبون منك أن تخلع قبعتك لهم ففي ذلك إبداء للاحترام، ولم أكن شخصياً أوافق على شيء من ذلك، ولكنني كنت أفعله في كثيرٍ من الأحيان مضطراً.

وردَّ «ونستون»، قائلاً:

(5) مجلس اللوردات House of Lords هو المجلس الأعلى للبرلمان البريطاني في المملكة المتحدة، ثُمَّ يأتي من بعده مجلس العموم. ويضم مجلس اللوردات نوعين من الأعضاء: اللوردات الذين يمثلهم كبار الأساقفة في كنيسة إنجلترا. واللوردات الذين يمثلهم النبلاء. وهؤلاء الأعضاء لا يتم انتخابهم من قِبل الشعب، ولكن يتم تعيينهم من قِبل الحكومة، على العكس من مجلس العموم، الذي يتم انتخابه مرَّة كُلِّ خمس سنوات على الأقل. وفي الوقت الحاضر فإنَّ أهمية مجلس اللوردات يقلُّ أهمية عن مجلس العموم، فهو مثلاً ليس له أي سلطان أو أثر على تشكيل الحكومة، وليس من حقه أن يحول دون إصدار مشروعات القوانين المالية، أي القوانين المتعلِّقة بالإيرادات أو المصروفات، وسلطته على مشروعات القوانين محدودة فإذا أجاز مجلس العموم قانوناً ورفضه مجلس اللوردات فإنه يمكن أن يصدر بناءً على تصديق ملكي بعد مهلة مدتها عام. (المعد).

- وهل كان أمراً مُعتاداً لدى هؤلاء الناس وخدمهم أن يرموا بك من الرصيف إلى البالوعات؟

قال الرَّجل العجوز:

- حدث ذات مرّة أن رمي بي أحدهم، إنني أذكر ذلك وكأنّه بالأمس..

استولي على «ونستون» شعور باليأس، فقد كانت ذاكرة الرَّجل العجوز خالية إلّا من توافه التفاصيل، ولن يحصل منه على معلومات ذات قيمة. إذا فتاريخ الحزب قد يكون صحيحاً، ومع قليل من التعديل، قد يكون كلّ ما فيه صحيحاً. وأخيراً قرّر القيام بمحاولةٍ أخيرة. فقال للشيخ:



- ما أودّ قوله هو الآتي: إنك عشت شطراً من حياتك قبل الثورة، ففي عام 1935 مثلاً كنت قد بلغت رشذك، فهل برأيك، كانت الحياة سنة 1935 أحسن ممّا هي عليه الآن أم أسوأ؟ وإذا كان لك أن تختار فهل تفضل «ونستون» بصحبة «شارنجتون» صاحب الحانوت العيش في هذه الحياة أم في تلك؟

فقال العجوز:

- إنني أعلم ما تأمل مني أن أقوله، إنك تأمل أن أقول إنني أتمنى العودة إلى سن الشباب. كلّ الناس يتمنون أن يعودوا إلى ريعان الشباب. وأنا الآن أعاني من ألم خبيث في قديمي، ومثائتي في اضطرابٍ شديد. لكن من ناحية أخرى فإنّ للتقدّم في السن مميزات عظيمة، منها مثلاً أنّه لا يكون لديك هموم تنغص عليك حياتك، كما لن تشغل النساء بالك، وفي هذا فائدة جمة..

اتكأ «ونستون» على النافذة إذ لم تكن هناك جدوى من متابعة ذلك الحديث، فخرج من الحانة.

كان «ونستون» علي امتداد ما يقارب من عشرين سنة يُفكر في هذا السؤال السهل الممتنع محاولاً الإجابة عنه: هل كانت الحياة قبل الثورة أفضل ممّا هي عليه الآن؟ لكن سؤاله ظلّ بلا جواب حتى الآن.

وفجأةً انقطع حبل تفكيره وتوقف عن السير ونظر حوله، فإذا هو في شارع ضيق فيه عدد قليل من الحوانيت الصغيرة المعتمدة المنتشرة بين المنازل، وأحس أنّه يعرف المكان، فقد كان يقف خارج حانوت الخردوات الذي اشترى منه دفتر مذكراته، وسرت في أوصاله ارتعاشه خوف، ففي الأصل كان شراؤه ذلك الدفتر عملاً طائشاً وكان قد أقسم آنذاك ألاّ يقرب ذلك المكان مرّة أخرى. كلّ ما استرعى انتباهه الآن أن الحانوت لا يزال مفتوحاً بالرغم أن السّاعة بلغت التاسعة. دلف إلى الحانوت. وكان صاحبه قد قام لتوه بإشعال قنديل كانت تنبعث منه رائحة قدرة لكنها محتملة، وكان رجلاً في حوالي الستين من العمر يبدو عليه الضعف، وذات أنف طويل جميل، وعينين هادئتين شوهتهما نظارة غليظة. كان يغلب على شعره الشيب لكن حاجبيه كانا كثيفين وما يزالان أسودين. وكانت النظارة وحركاته المهدبة النشطة، فضلاً عن السترة المخملية السوداء التي يرتديها، تضيف عليه هيئة رجل فكر، كما لو كان أدبياً أو موسيقياً. وكان صوته ناعماً ولهجته أقلّ خشونة من لهجة غالبية العامة.

ابتدره الرّجل العجوز:

- لقد عرفتك وأنت تقف على الرصيف. أأنت أنت السيّد الذي اشترى دفتر السيّدة الحسناء ذي الورق الجميل؟

ثمّ حدج «ونستون» من فوق نظارته، وقال له:

- هل من خدمةٍ خاصّةٍ أسديها لك؟ أم تُراك تريد فقط أن تلقي نظرة؟

أجاب «ونستون» بغموضٍ:

- كنت مارًّا وأردت أن ألقى نظرة وليس في ذهني شيء مُعِين أطلبه.

قال الرَّجل:

- لا بأس، على كُلِّ حال لا أعتقد أنَّ عندي ما يرضيك.. لعلك ترى أنَّ الحانوت يكاد يخلو من البضائع ولا أخفيك سرًّا أنَّ تجارة القطع الأثرية القديمة على وشك الانقراض..

في حقيقة الأمر كان الحانوت غاصًّا بالبضائع، ولكن لم يكن بينها شيء ذو قيمة تذكر. إلاَّ أنَّه على طاولة صغيرة في إحدى الزوايا وضعت أشياء من العتائق والغرائب وهي توشي بأنَّه قد يكون بينها ما هو مفيد. وبينما كان «ونستون» يتجه نحو هذه الطاولة لاح أمام عينيه شيء أملس مستدير يلمع لمعانًا هادئًا تحت ضوء القنديل، فالتقطه. كانت قطعة ثقيلة من الزجاج مُحدَّبة من جانب ومُسَطَّحة من الجانب الآخر تكاد تُشكِّل نصف كرة، وكان لون الزجاج ومادته نقيًّا. وفي جوفه كان ثَمَّة جسم غريب ذو لون أحمر قاني يشبه وردة أو كُشبه بحر وقد بدا أكبر من حجمه الحقيقي بسبب السطح الزجاجي المُحدَّب.

سأل «ونستون» بافتتانٍ:

- ما هذا؟

وأجاب الرَّجل:

- إنَّها مرجان من المحيط الهندي، كانت العادة أن يحفظوها في زجاج. لعلها صُنعت قبل مائة عام وربما أكثر.

وأجاب «ونستون»:

- يا لها من شيء بديع!

قال الرَّجل مَبَاهِيًّا:

- إِنَّهَا بديعة الجمال لكن في هذه الأيام إذا فَكَّرْتُ في شرائها الآن
فستكلفك أربعة دولارات..

ودفع «ونستون» الدولارات الأربعة في الحال ودسَّ هذه التحفة في
جيبه. ولم يكن جمالها هو مدعاة انجذابه إليها بقدر ما كان ذلك العبق الذي
أحاط بها كونها تنتمي لعصر غير هذا العصر.. ورغم ثقلها الشديد في جيبه
فإنَّها لَحَسَنَ الحظ لم تُسَبِّبْ بروزًا واضحًا، فقد كان أمرًا غريبًا بل مدعاة
للريبة أن يحوز عضو الحزب أي شيء عتيق أو جميل. وتهلَّلت أسارير
الرَّجل العجوز بعدما تسلم الدولارات الأربعة وقال:

- توجد غرفة أخرى آخر الطابق في العلوي ربما يهملك إلقاء نظرة عليها.

صعدا إلى الغرفة، ولاحظ «ونستون» أنَّ أثاث الغرفة كان ما يزال
مرتبًا، وعلى الأرض قطعة من سجادة، فيما علَّق على الجدران صورة أو
صورتان، وبالقرب من المدفأة كان ثَمَّة مقعد ذو ذراعين، ومن فوق رف
المكتبة انبعث صوت ساعة زجاجية عتيقة الطراز. لم يستطع «ونستون» منع
نفسه من أن يتمتم قائلاً:

- لا يوجد هنا «شاشة رصد»؟

قال الرَّجل العجوز:

- آه.. لم يسبق أن كان لديَّ واحدة، إنَّها غالية جدًّا ولم أشعر أبدًا أنَّني
بحاجةٍ إلى واحدةٍ..

في إحدى الزوايا من الحجرة كانت توجد خزانة كتب، وجد «ونستون»
نفسه منجذبًا نحوها، ولكن لم يكن فيها سوى مهملات، إذ كانت عملية
ملاحقة الكتب وإتلافها قد طالت، وبنفس الشدة، الأحياء الشعبِيَّة. كان من

المستبعد تمامًا أن يعثر في كل أرجاء «أوقيانيا» على نسخة من كتاب طُبع قبل سنة 1960.

وكان الرَّجل العجوز يقف أمام صورة موضوعة في إطارٍ من خشب الورد، فقال بركة:

- والآن إذا كنت من مُحبي اللّوحات القديمة.

تفحّص «ونستون» الصورة التي كانت عبارة عن رسم محفور في الفولاذ لبناء بيضاوي ذي نوافذ مستطيلة وبرج صغير في المقدمة، وحول البناء سياج من القضبان الحديدية وفي الطرف شيء كالمثال. حدّق «ونستون» فيه بضع لحظات فبدا وكأنّه يعرفه.

بعد صمت قال «ونستون»:

- إنني أعرف ذلك البناء، إنّه الآن عبارة عن أنقاض وسط شارع بالقرب من قصر العدل.

أضاف الرَّجل:

- هذا صحيح، لقد كان عبارة عن كنيسة في يومٍ من الأيام وكانت تسمى كنيسة القديس «كليمنت دان»..

ثمّ ابتسم ابتسامة اعتزاز وكأنّه أدرك أنّه قال شيئًا سخيًّا، وأضاف:

- برتقال وليمون تقول كنيسة أجراس القديس كليمنت.

فقال «ونستون»:

- ماذا؟

- أوه.. برتقال وليمون تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت. إنّها أغنية كُنّا نردّها ونحن صغار ولا أتذكّر بقيتها، ولكنني أعرف أنّها كانت تنتهي بمقطع.. ها هنا تجد شمعة تستنير بها حتى الفراش، وها هنا منجل لحز رقبتك. لقد كان ذلك نوعًا من الرّقص، يرفعون أذرعهم لتمرّ من تحتها،

وعندما يصلون إلى مقطع.. وهنا منجل لحز رقبتك، يخفضون أذرعهم ليمسكوا بك.

تساءل «ونستون» إلى أي قرن يعود بناء الكنائس يا ترى؟ إذ كان يصعب أن تقدر عُمر أي بناية في لندن، فكل بناية كبيرة ولافتة للنظر كانوا يدعون تلقائياً أنها شيدت في عهد الثورة، وأي بناية أخرى يبدو انتمائها بوضوح إلى عهد قبل ذلك كانت تنسب إلى فترة غامضة تُسمى القرون الوسطى، وأمّا قرون الرأسماليين فكان ينظر إليها على أنها لم تنتج شيئاً ذا قيمة، لذلك كان باستطاعة المرء أن يعرف شيئاً عن تاريخ من الطرز المعمارية أكثر ممّا تعرفه من خلال الكتب. فكل ما يلقي ضوءاً على الماضي مثل التماثيل والنقوش والنصب التذكارية وأسماء الشوارع كان يتم تغييره وتحويره بصورةٍ منهجيةٍ.

قال «ونستون»:

- لم أكن أعرف أبداً أنها كانت كنيسة.

ورد الرجل العجوز قائلاً:

- في الواقع لا يزال يوجد الكثير منها ولكنها تستعمل لأغراضٍ أخرى.
ثم استدرك، قائلاً:

- ها لقد تذكّرت بقية الأغنية: برتقال وليمون تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت، وتقول أجراس كنيسة القديس مارتن أنت مدين لي بثلاثة فارذنج، هذا ما أتذكره الآن. والفارذنج كان عملة نحاسية صغيرة تشبه السنت.

وسأل «ونستون»:

- لكن أين كانت كنيسة القديس مارتن؟

- كنيسة القديس مارتن؟ إنها لا تزال قائمة وتقع في ساحة النصر أمام معرض الصور. إنها عبارة عن بناء بواجهته قبة مثلثة وأعمدة وسُلّم.

كان «ونستون» يعرف ذلك المكان جيداً، فقد كان متحفاً لعرض معروضات دعائية، كنماذج للقذائف الصاروخية والقلاع العائمة واللوحات الشمعية، تصور الفظائع التي ارتكبتها الأعداء..

رفض «ونستون» شراء الصورة فقد كانت حيازتها أكثر مدعاة للشبهة من حيازة قطعة الزجاج. ترك «ونستون» السيّد «شارنجنون» وهبط الدرج بمفرده. وكان قد عقد العزم على القيام بزيارةٍ أخرى للحنوت بعد فترة مناسبة، ليشترى لوحة كنيسة القديس كليمنت المحفورة بعد أن ينتزعها من إطارها، ويحملها إلى المنزل تحت سترة معطفه الأزرق.

وخرج إلى الشارع وكان قد بدأ يتمتم بنغمةٍ مرتجلةٍ تقول أجراس كنيسة القديس كليمنت برتقال وليمون، وأنت مدين لي بثلاث فارذنج.

فجأةً شعر أنّ دمه تجمّد في عروقه عندما رأى القادم نحوه وما عاد يفصله عنه سوى عشرة أمتار. لقد كانت الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة. نظرت إلى وجهه مُحدقة به ثمّ أكملت مسرعة كأنّها لم تره.

لبضع ثوانٍ شعر «ونستون» أنّه فقد القدرة على الحركة فاستدار يميناً وابتعد متثاقلاً دون أن ينتبه إلى أنّه يسير في الاتجاه الخطأ. على أي حال فقد اهتدى إلى حقيقة أمرها، فقد تبدّد كلّ شكٍّ لديه في أنّها كانت تتجسّس عليه، إذ ليس من المعقول أن يكون تجوالها في المساء ذاته وفي الشارع الخلفي المعتم، محض مصادفة، لقد كان ذلك أكثر من مُجرّد مصادفة. ولم يعد يهم إذا كانت جاسوسة لـ «شرطة الفكر»، أو مُجرّد جاسوسة هاوية. المهم أنّها كانت تراقبه وربما رأته وهو يذلف إلى الحانة أيضاً.

توقف «ونستون» عن السير، خطر بباله أن يلحق بالفتاة حتى يصل إلى مكانٍ منزّلٍ هادئٍ فيحطم رأسها بحجرٍ أو ربما تقي قطعة الزجاج التي في جيبه بهذا الغرض، لكنه تخلى عن الفكرة بعد لحظات، فقد كان خائر القوى وليس بمقدوره أن يوجه ضربةٍ لأحدٍ، وفوق ذلك كانت الفتاة قوية وفي سن الشباب. ثمّ خطر على باله أيضاً أن يهرع إلى المركز الاجتماعي ويبقى فيه حتى يغلق أبوابه كدليل يثبت مكان تواجده في هذا المساء. لكن ذلك كان أيضاً مستحيلاً لقد انتابته حالة من الإعياء الشديد وكان كلّ ما يريده هو أن يعود إلى المنزل بسرعةٍ ويستلقي بهدوءٍ.

كانت السَّاعة قد تجاوزت العاشرة مساء حينما عاد إلى شقته. دلف إلى المطبخ حيث تناول فنجاناً من خمرة النصر ثُمَّ توجه إلى الطاولة وأخرج دفتر مذكراته من الدرج، لكنه لم يفتحه في الحال إذ كان ينبعث من «شاشة الرصد» صوت أنثوي نحاسي يزعق بأغنية وطنية. فراح يُحدق في غلاف الدفتر، ذي اللون المرمرى محاولاً دون جدوى أن يخرج ذلك الصوت من رأسه، لقد كانوا دائماً يأتونك ليلاً، والأفضل لك أن تقتل نفسك قبل أن يقبضوا عليك، ومن المؤكد أنَّ كثيراً سبقوك لذلك، لكن الأمر يستلزم شجاعة اليأس حتى قتل نفسك، في عالم يتعذر فيه الحصول على سلاح ناري أو على سُم سريع المفعول وأكيد الأثر.

شعر «ونستون» بضرورة أن يكتب شيئاً ففتح المفكرة، لكن ذاك الصوت الأنثوي كان قد بدأ أغنية جديدة. ثُمَّ حاول أن يُفكر في «أوبراين» الذي من أجله أو إليه كانت المذكرات، ولكنه وبدلاً من التفكير في «أوبراين» راح يُفكر فيما سيحدث له بعدما تقبض عليه «شرطة الفكر».

نجح «ونستون» قليلاً في استحضار صورة «أوبراين»، فقد قال له في الحُلُم: «سنتلقي في مكان لا ظلمة فيه»، فالمكان الذي لا ظلمة فيه هو المستقبل المتخيَّل الذي لن يراه وإن كان يمكن استشرافه والمشاركة فيه! إلاَّ أنَّه لم يستطع متابعة تسلسل أفكاره أبعد من ذلك بسبب الصوت الصادر من «شاشة الرصد». وسرعان ما غمر مخيلته وجه «الأخ الكبير» طارداً صورة «أوبراين». أخرج «ونستون» قطعة معدنية من جيبه ونظر إليها فحدججه الوجه بنظرة فيها هدوء ورزانة، ولكن أي ابتسامة تلك التي كان يخفيها تحت شاربه الأسود، وكدقات أجراس نعي الموتى ترددت أصداء الكلمات في ذهنه..

الحرب هي السَّلام.

الحُرِّيَّة هي العبودية.

الجهل هو القوَّة.

الجزء الثاني

1984

الفتاة ذات الشعر الأسود

The girl with the black hair

كان الوقت ضحى عندما غادر «ونستون» مكتبه. وإذا بشخص مقبل نحوه من الطرف الآخر للممرّ الطويل. كانت الفتاة ذات الشعر الأسود. وكانت قد انقضت أربعة أيام منذ التقاها خارج حانوت الخردوات. عندما اقتربت منه لفت انتباهه أنّ ذراعها اليمني مُعلّقة في رقبتها. ربما قد سحقته يدها وهي تدور حول آلات «كاليدوسكوب» الكبيرة التي تتمّ فيها الحكمة القصصية.

كانت تفصل بينهما مسافة أربعة أمتار تقريبًا عندما تعثرت الفتاة وسقطت على وجهها فصرخت صرخة ألم مدوية، لا بدّ أنّها سقطت على ذراعها المُصابة. توقف «ونستون» عن سيره في حين كانت الفتاة قد نهضت على ركبتيها وقد شحب وجهها وبدت شفتاها أكثر احمرارًا، وكانت عيناها تحدقان بوجهه وقد ارتسمت فيهما نظرة تطلب منه أن يُساعدها.

خفق قلب «ونستون» بعاطفة غريبة، فالتى أمامه هي عدو كان يسعى للفتك به، لكنها أيضًا مخلوقة من لحمٍ ودمٍ تتألم. وبغريزة إنسانية تقدّم نحوها ليأخذ بيدها. وسألها:

- هل أصابك أذى؟

- لا، لا شيء.. إنّها ذراعي.. سوف تصبح على ما يرام في الحال.

كانت تتكلم وقلبها يخفق بشدة، أمّا وجهها فقد شحب شحوبًا شديدًا. ومدّت له يدها الثانية، فأعانها على النهوض.

وعادت تُكرّر بعد قليل:

- لم يحدث شيء يستحق الذكر، فكلّ ما في الأمر أن معصمي ارتطم بالأرض. شكرًا لك أيها الرفيق.

وعاودت السير في الاتجاه نفسه الذي كانت تسير فيه من قبل، سارت بخطى نشطة ورشيقة وكأنّ شيئاً لم يحدث على الإطلاق.

لم تستغرق من هذه الحادثة سوى نصف دقيقة فقط. لقد كان الحرص على ألاّ تطفو مشاعر المرء على وجهه بمثابة عادة باتت أشبه بالغريزة، فقد كانا يقفان أمام «شاشة الرصد» مباشرة عندما وقع الحادث ومع ذلك كان من الصّعب على «ونستون» أن يكبت شعور الدهشة الذي ارتسم على وجهه، إذ أثناء الثانيتين التي أعان خلالها الفتاة على النهوض حدث أنّها أودعته شيئاً في يده ولم يكن هناك شكّ في أنّها فعلت ذلك عن قصد. لقد كانت قصاصة ورق مطوية.

فتح الورقة وقال في نفسه: «لا شكّ في أنّها تحمل رسالة ما بداخلها». وراودته نفسه للحظة أن يقرأ الرسالة في التوّ واللّحظة، ولكنه سرعان ما تنبه بما تنطوي عليه هذه الخطوة من حماقة، إذ من المؤكّد أن «شاشات الرصد» تعمل ليل نهار في هذا المكان، فرجع إلى مكتبه.

جلس وألقى بقصاصة الورق بغير اهتمام بين الأوراق الأخرى المرسومة فوق مكتبه، وأحس بقلبه يخفق خفقات مدوية، وكان من حُسن حظه أنّ المهمة المسندة إليه في تلك اللحظة. كانت عملاً روتينياً لا يتطلب انتباهاً شديداً.

وقال في نفسه: «أيّما كان ما هو مكتوب في الرسالة، فلا بدّ أنّه سيكون ذا مغزى سياسي». فكّر في تلك اللّحظة باحتمالين، أولهما، وهو الأكثر رجحاناً، أنّ الفتاة تعمل جاسوسة لحساب «شرطة الفكر»، وهو ما كان يخشاه، لكنه لم يفهم لماذا تلجأ «شرطة الفكر» لهذه الطريقة لتوصيل رسائلها، لعلّ لديهم من الأسباب ما يُفسّر ذلك. فلربما في الرسالة تهديد أو أمر بالانتحار أو فخ ما ينصب له. أمّا عن الاحتمال الآخر فقد كان أكثر جنوناً، ومفاده أن هذه الرسالة ليس ثمة ما يربطها بـ «شرطة الفكر» على الإطلاق إذ إنّها مرسلة من إحدى المنظمات السرية فعلل لـ «جماعة الإخوة» وجود، ولعلّ الفتاة منخرطة في عضويتها. ولم تكن تمرّ دقيقتان حتى كان

التفسير الأول والأرجح قد خطر بباله ثانيةً. وحتى الآن ورغم أن عقله أوحى إليه أن هذه الرسالة قد تعني موته فإنه لم يُصدق ذلك وظلّ متشبّثاً بأهداب أملٍ واهٍ، في حين أخذ قلبه يدق بعنفٍ محاولاً كبت أثر ارتعاشه على صوته وهو يهمهم بالأرقام إلى آلة التسجيل.

لفّ رزمة كاملة من أوراق العمل ثمّ زج بها في الأبواب الهوائي. ثماني دقائق قد مضت حين أعاد تثبيت نظارته فوق أنفه وتنهّد، ثمّ جذب مجموعة أخرى من أوراق العمل وقد وضعت قصاصة الورق فوقها وما إن فضها حتى رأى الكلمة التالية مكتوبة فوقها بخطٍ كبير: «أحبك».

تملكه ذهول شديد لعدة لحظات. ثمّ أعاد قراءة الورقة مرّة ثانية، حتى يطمئن قلبه إلى أن الكلمة موجودة حقاً.

وكان من العسير عليه أن يواصل العمل لما تبقي من وقتٍ في ذلك الصباح. حاول إخفاء ما يختلج وجهه من انفعالٍ أو اضطراب عن «شاشة الرصد»، وشعر كأن ناراً اشتعلت بين ضلوعه. كان تناوله لطعام الغداء في المطعم الحار والغاص بالموظفين والمليء بالضوضاء بمثابة عملية تعذيب. فقد كان يأمل أن يختلي بنفسه أثناء ساعة الغداء، ولكنه ولسوء حظه، فإنّ الأحمق «بارصون» قد حشر نفسه بكلّ سماجة بجانبه، وقد مضى يثرثر حول الاستعدادات لـ «أسبوع الكراهية»، مبدئياً حماسه لنموذج كان يُعدّ بواسطة فرقة الجاسوسيات، التي تنتمي إليها ابنته، خصيصاً لهذه المناسبة وقد أعد لوجه «الأخ الكبير» عَرَضُهُ متران.

لمح «ونستون» الفتاة وهي جالسة مع فتاتين أخريين حول إحدى الموائد في الطرف الآخر من قاعة الطعام. ويبدو أنّها لم تره، أمّا هو فلم ينظر في اتجاهها مرّة ثانية.

كان «ونستون» أفضل حالاً في فترة ما بعد الظهر. فقد أسند إليه مهمة تتطلّب عدة ساعات وتستلزم منه تركيزاً بحيث يُنحي كلّ ما عداها جانباً. كان عليه تزوير بعض تقارير الإنتاج الصادرة منذ سنتين بطريقةٍ تثير علامات استفهام حول نزاهة عضو بارز في قيادة الحزب وقد غدا في وضع مزعزع.

كان «ونستون» يجيد أداء هذا اللون من العمل، بالتالي فقد تمكن من إقصاء الفتاة عن تفكيره لأكثر من ساعتين. ولكن عادت ذكرها ترتسم أمام عينيه مصحوبة برغبة جامحة في الاختلاء بنفسه حتى يمكنه التفكير في هذا التطور الجديد وهو ما سيكون مستحيلًا دون أن يختلي بنفسه. كانت تلك الليلة هي إحدى الليالي التي يتعين عليه فيها الذهاب إلى المركز الاجتماعي.

سارع إلى المركز الاجتماعي وشارك في سخافة من سخافات مجموعة النقاش، ثم لعب شوتين من كرة الطاولة، وشرب عدة كؤوس من الخمر، وجلس نصف ساعة يستمع لمحاضرة بعنوان: «علاقة الأنجسوك (الاشتراكية الإنجليزية) بالشطرنج». ورغم أن الملل قد أمسك بتلابيب روحه، فإنه وللمرة الأولى يشعر بعدم الرغبة في التملص بأمنية من تلك الأمسيات. إذ بعد رؤيته لكلمة «أحبك» شعر برغبة عارمة في أن يظل على قيد الحياة، وبدا له فجأة أن من الحماقة أن يجازف بنفسه في مثل هذه المجازفات البسيطة. لم تكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة مساء حينما عاد إلى شقته واستلقى على فراشه في الظلام حيث يكون بمأمن من «شاشة الرصد» إن هو التزم الصمت، لكن كان في مقدوره أن يسترسل في التفكير دون توقف.

كان يفكر: كيف يتصل بالفتاة ويرتب لقاء معها. وكان قد أبعد احتمال أنها تنصب له شركًا، وقد تأكد له ذلك بسبب ما اعترأها من اضطراب حينما أودعته القصاصه. رغم أنه كان يفكر قبل خمس ليالٍ في تهشيم رأسها بحجر. لكن ذلك لم يعد ذا أهمية الآن. وراح يفكر بجسدها العاري البض مثلما رآها في الحلم. كان يحسبها حمقاء كبقية الفتيات برأس محشو بالحقد والأكاذيب. ولذا فقد انتابته نوبة من حُمى الخوف حينما خطر بباله احتمال فقدانه لها وإفلات جسدها الأبيض البض من بين يديه! وكان أخشى ما يخشاه هو أن يتغير رأيها إذ هو لم يبادر إلى الاتصال بها. ولكن الصعوبات العملية التي كانت تحول دون تحقيق ذلك اللقاء كانت جمّة. كان من الجليّ أنه من غير الممكن أن يجمع بينها لقاء كاللقاء الذي جمع بينهما في ذاك الصباح؛ لأنه لا يعرف على وجه التحديد أين توجد دائرة الإثارة التي تعمل بها في المبنى، وليس لديه ما يتذرّع به للذهاب إلى هناك. ولو أنه كان يعرف أين تقطن،

وفي أي وقت تنصرف من العمل لتعمّد مقابلتها، بيد أن تتبّعها إلى منزلها لم يكن أمراً مأموناً؛ لأنّ ذلك يعني التسكّع خارج الوزارة وهو أمر يحتمل أن يلفت إليه الأنظار. وأمّا فكرة أن يبعث لها برسالة عبر البريد فأمراً غير ممكن بتاتاً، إذ كانت الرسائل تُفتح عند نقلها طبقاً لنظام متبع ومعلن، ومن ثمّ ما كان يُقدم على كتابة الخطابات إلا قلة من الناس. وفي نهاية المطاف استقر رأيه أن أفضل مكان يلتقيان فيه هو المطعم. فإذا استطاع أن يُشير إليها لكي تجلس بمفردها إلى منضدة في منتصف قاعة الطعام بعيداً عن «شاشة الرصد» ووسط طنين كاف من الأصوات ليغطي على الحديث بينهما، إذا أمكن تحقيق هذه الشروط في مدى زمني مقداره 30 ثانية في إمكانهما أن يتبادلا بعض الكلمات.

انقضى أسبوع كانت حياته خلاله بمثابة حلم يشوبه القلق. ففي اليوم التالي لم تظهر الفتاة في المطعم إلا حينما كان يهيم بمغادرته واجتاز كلاهما الآخر دون تبادل نظرات. وفي اليوم الذي تلى ذلك، كانت الفتاة في المطعم في الوقت نفسه، لكنها كانت بصحبة ثلاث فتيات وكنّ يجلسن أسفل «شاشة الرصد» مباشرة. ثمّ مرّت عليه ثلاثة أيام ثقيلة لم تظهر خلالها على الإطلاق، وبدا له أن عقله وجسده قد أصيبا بحساسية مفرطة أو بنوع من الشفافية جعل كلّ لفظة وكلّ صوت وكلّ كلمة كان لزاماً عليه أن ينطق بها أو يصغي إليها، لوناً من ألوان العذاب. وحتى في نومه لم يبارحه طيفها. وفي خلال هذه الأيام لم يمس مفكرته. وإذا كان من راحة فقد كان يلتمسها في أوقات عمله. كان واضحاً أنّه ليس لديه أي دليل أو تفسير لما عساه قد لحق بالفتاة، ولا يمكن أن يسأل عنها. ربما تكون قد راحت ضحية عملية تصفية أو ربما تكون قد أقدمت على الانتحار أو نقلت إلى الطرف الآخر من «أوقيانيا». ولكن أسوأ هذه الاحتمالات وأرجحها على الإطلاق أنّها ربما غيرت رأيها وقرّرت أن تتحاشى لقاءه.

وفي اليوم التالي عاودت الفتاة الظهور وقد حرّرت ذراعها من رباطه مكتفية بوضع ضمادة حول معصمها. وكانت رؤيته لها مبعثاً لارتياح غامر لديه حتى أنّه لم يستطع مقاومة الرّغبة في النظر إليها مباشرة لعدة ثوانٍ. وفي

اليوم التالي كان قاب قوسين أو أدنى من إمكانية التحدث إليها، إذ عندما دلف إلى المطعم كانت تجلس إلى مائدة بعيدة عن الحائط وكانت بمفردها. ولما كان الوقت مبكراً. فإنَّ المطعم لم يكن قد امتلأ بعد بروَّاده. وعندما أكمل «ونستون» صينيته وبدأ يسير متظاهراً بعدم الاكتراث بينما كانت عيناه تبحثان في المكان عن مائدة تقع خلفها. وسار نحوها حتى بات لا يفصله عنها سوى ثلاثة أمتار. ولم يبق غير اثنتين ويتحقق مراده. وعندئذ تنأهى إلى سمعه صوت قادم من خلفه يُنادي: «سميث»، فتظاهر أنه لم يسمع. فعاد الصوت يُكرِّر النداء: «سميث»، فأدرك أنه لا فائدة من التظاهر بعدم السماع، واستدار يتطلع وراءه، فإذا به يرى ذلك الشاب أشقر الشعر، الغبي، الذي يُدعي «ويلشر» والذي بالكاد كان يعرفه، يدعوهُ مبتسماً لمكان شاغر بجانبه. فجلس مرغماً مع «ويلشر» وعلى شفثيه ابتسامة غير ودية. وتهلَّل لذلك وجه الشاب الغبي. وعندئذ تراءى لـ «ونستون» أن يحطم هذا الوجه بفأس فيشقّه نصفين. وما هي إلا دقائق قليلة حتى كانت مائدة الفتاة قد امتلأت. حديث خافت بين ونستون والفتاة ذات الشعر الأسود.

وفي اليوم التالي حرص «ونستون» على المجيء إلى المطعم مبكراً، فوجدها جالسة بمفردها في المكان نفسه. وكان يتقدمه في الطابور مباشرة رجل ضئيل الجسم، سريع الحركة أشبه بالخنفساء وما إن ابتعد عن طاولة التوزيع وهو يحمل صينيته حتى اتجه إلى مائدة الفتاة كالسهم فضاعت آمال «ونستون» الذي تبعه وقد تجمَّد الدَّم في عروقه، ولكن لا جدوى من لقاءه بالفتاة ما لم يكن على انفراد. وفي هذه اللحظة سمع صوت ارتطام وإذا بالرجل الضئيل قد هوى أرضاً على أطرافه الأربعة بينما طارت الصينية في الهواء. نهض الرجل وهو يرمق «ونستون» بنظرات عدائية. كان واضحاً أنه يشك في أنَّ «ونستون» قد عرقله من الخلف. غير أن كل شيء مرَّ بسلام. وبعد خمس ثوان كان «ونستون» يجلس إلى مائدة الفتاة بينما راحت دقائق قلبه تدوي كالرعد.

لم يرفع نظره إلى عينيها. بل أخذ ينقل أوعية الطعام من الصينية إلى الطاولة وشرع في التهام طعامه على الفور. كان أمراً بالغ الأهمية أن يبادر

بالحديث إليها قبل مجيء أي شخص آخر، ولكن شعورًا فطريًا بالخوف قد انتابه، فقد انقضى أسبوع كامل على أولى بوادرها نحوه ولربما تكون قد غيّرت رأيها، بل لابدَّ أنَّها غيّرت رأيها! كان من المستحيل أن تُكَلِّل مثل هذه العلاقات بالنجاح. إنَّ ذلك لا يحدث على أرض الواقع. ولعله كان سيحجم عن الحديث إليها لولا رؤيته «أمبلفورث» في تلك اللحظة، الشاعر ذا الأذنين كثيفتي الشعر، وهو يتجول في أنحاء قاعة المطعم على مهل ومعه صينية باحثًا عن مكان شاغر. كانت ثَمَّة وشيخة غامضة تربط «أمبلفورث»، بـ«ونستون» ومن المؤكَّد أنه لن يتردَّد في الجلوس معه إنَّ هو رآه. لم يكن أمام «ونستون» غير دقيقة واحدة للعمل. كان «ونستون» والفتاة منهكين في التهام الطعام دون توقف. وبصوتٍ هادئٍ وأشبه بالغمغمه كسر «ونستون» حاجز الصَّمْت بينهما دون أن يرفع أي منهما عينيه عن صينيته مواصلين تناول حساء الفاصوليا. وبين ملعقة وأخرى تبادلًا بعض الكلمات الضرورية بصوتٍ خفيضٍ ودون أن يعتري وجهيهما أي انفعال.

- أي ساعة تتركين عملك؟

- السَّادسة والنصف مساءً.

- أين يمكن أن نلتقي؟

- ساحة النصر قرب التمثال.

- إنَّها مليئة بـ«شاشات الرصد».

- لا خوف إذا كانت مزدحمة بالناس.

- هل من إشارة؟

- كلا. لا تقترب مني إلَّا إذا رأيتني بين حشد من الناس. ولا تنظر نحوي بل ابقِ على مقربةٍ مني.

- في أي وقت؟

- السَّابعة مساءً.

- حسنًا.

لكن «أمبلفورث» لم ير «ونستون»، فجلس إلى مائدةٍ أخرى. أمّا «ونستون» والفتاة فلم يتبادلا كلمة واحدة بعد ذلك. وكانا يتحاشيان تبادل النظر. فرغت الفتاة من غذائها على عجلٍ وانصرفت في حين بقي «ونستون» يدخل سيجارة.

ذهب «ونستون» إلى ساحة النصر قبل حلول الموعد المُحدّد وراح يدور حول النصب هائل الحجم ذي الشكل الأسطواني، المنتهي بتمثالٍ ضخّم لـ «الأخ الكبير» وهو يُحدق جنوبًا في الأفق حيث عُقد له النصر على الطائرات الأوراسية (قبل سنوات كانوا يقولون طائرات شرق آسيا). في الشارع وأمام التمثال كان هناك تمثال آخر لرجلٍ يمتطي جوادًا يُفترض أنّه «أوليفر كرومويل».

مضت خمس دقائق على الموعد ولم تظهر الفتاة فانتاب «ونستون» خوف جديد إذ ظنّ أنّها لن تأتي، وأنّها قد عدلت عن رأيها. راح يتقدّم ببطءٍ إلى الطرف الشمالي من الساحة وقد علا وجهه نوع من السرور الباهت عندما وقعت عيناه على كنيسة «القديس مارتن» التي كانت أجراسها، حينما كان لها أجراس، تدق نغمات: أنت مدين لي بثلاث فارذنج، ثمّ فجأة رأى الفتاة واقفة عند قاعدة التمثال وهي تتظاهر بقراءة ما كيت على قاعدة التمثال، ولم يكن من المأمون أن يقترب منها قبل أن يتجمّع المزيد من الناس حولها، فـ «شاشات الرصد» تملأ المكان. بيد أنّه في هذه اللحظة انبعث صوت هتافات وسمع أزيز عربات ثقيلة تنطلق من الناصية اليسرى. وفجأةً سادت حالة من الهرج والمرج في الساحة. تسللت الفتاة من بين تماثيل الأسود عند قاعدة النصب ثم غرقت في الزحام. وتبعها «ونستون» بينما كان يُعلن أن قافلة من أسرى الحرب الأوراسيين كانت تمرّ.

كانت جماهير كثيفة من الناس قد تقاطرت على الساحة حتى أغلقت طرفها الجنوبي. فرأى «ونستون» نفسه، يدفع ويلكز ليشق طريقه إلى وسط الحشود. وسرعان ما بات على مبعدة ذراع واحدة من الفتاة ولكن الطريق

كان مسدودًا برجل ضخمة الجثة من العامة وامرأة بحجمه تقريبًا، ربما تكون زوجته، وكأنَّهما يشكَّلان معًا حائطًا بشريًّا لا يمكن اختراقه. شق «ونستون» طريقه بصعوبة حتى حشر كتفه بينهما بعنف. وأخيرًا نجح في اختراقهما وقد تصبَّب عرقًا. ثمَّ وجد نفسه إلى جانب الفتاة كنفًا لكتف، وكلاهما يحقد أمامه دون أن يلتفت إلى الآخر.

كان هناك رتل طويل من الشاحنات تحمل حراسًا ذوي وجوه خشبية ومسلحين بالبنادق الآلية يقفون منتصبين في كل زاوية من زوايا الشاحنات، يمرّ ببطء في الشارع. وفي الشاحنات كان يجلس رجال ذوو أجسام ضئيلة وذوو بشرة صفراء، وثياب خضراء رثة اكتظت بهم الشاحنات، وكنت تسمع من حين لآخر قعقة الأغلال الحديدية التي سُرِّبلوا بها كُلُّما تأرجحت شاحنة. كان «ونستون» يشعر بوجود هذه الوجوه لكنه كان يراهم على نحو متقطع، إذ كانت الفتاة تقف بجانبه وقد التصقت ذراعها اليمنى بمرفقه، وكانت وجنتها قريبة منه بحيث كان يحس حرارتها. وسرعان ما أمسكت الفتاة بزمam الموقف ومثلما فعلت من قبل. وابتدته بالكلام وبالصوت نفسه الخالي من الانفعالات كالعادة، حيث كانت شفتاها لا تتحرَّكان إلا بالكاد ولا يخرج منها إلا همس يكاد يضيع وسط طنين الأصوات وقرعة الشاحنات.

- هل تسمعي؟

- أجل.

- هل يمكنك الحصول على إذن من العمل ظهر الأحد؟

- أجل.

- إذا، أضغ إليَّ بعناية وانتبه جيدًا لكلِّ ما سأقوله. اذهب إلى محطة بادنجتون...

وبدقة عسكرية أدهشته، أخذت توضح له الطريق الذي يسلكه، وكأنَّها كانت تحمل خريطة داخل رأسها. وأخيرًا سأله بصوت خفيض:
- هل يمكنك تذكُّر كلِّ ذلك؟

- أجل، لكن في أي وقت؟

- حوالي السّاعة الثالثة. ربما ستضطر للانتظار لأنني سأسلك طريقاً آخر.
لكن هل أنت متأكد أنك تتذكر جيداً كل ما قلت؟

- أجل.

- إذا، ابتعد عني بأسرع ما يمكن.

لم تكن تحتاج إلى قول ذلك. فقد ظلا لفترة من الزمن عاجزين عن تخليص نفسيهما من الجماهير المحتشدة. كانت الشاحنات لا تزال تتابع والناس فاغرين أفواههم دهشةً وعجباً. وغابت الوجوه المنغولية المستديرة لتحل محلها وجوه أوروية قدرة ذات لحى يظهر عليها أثر الإرهاق. ومن فوق حدود ناتئة العظام كانت عيونهم تنفذ إلى عيني «ونستون». وبينما كان رتل الشاحنات يقترب من نهايته رأى «ونستون» في آخرها عجزاً كهلاً، وقد اكتسى وجهه شعر أشيب كثيف، يقف منتصباً وقد عقد معصميه معاً بشكل متقاطع أمام صدره كما لو كان قد اعتاد أن يجدهما موثوقيتين معاً. وكان الوقت قد حان لافتراق «ونستون» والفتاة. ولكن في اللحظة الأخيرة وفيما كانت الجماهير مازالت محتشدة شبكت يده بيدها وضغطت عليها.

لم يستغرق هذا التشابك بين يديهما أكثر من عشر ثوان، ومع ذلك بدا أنهما قد تشابكتا مدة أطول. وكان في ذلك ما يكفي «ونستون» لمعرفة كل تقاطيع راحة يديها تفصيلاً. فقد تلمس الأصابع الطويلة والأظافر المهذبة، وراحة اليد التي أصابتها الخشونة من أثر العمل، كما تلمس اللحم الناعم عند المعصم.

وفي اللحظة ذاتها خطر بباله أنه لم يعرف لون عينيها. ربما كانتا بنيتين ولكن ذوي الشعر الأسود قد تكون عيونهم زرقاء اللون أحياناً. وكان من الحمق الشديد أن يلتفت لينظر إلى عينيها. فقد ظلا يحدقان أمامهما باستمرار حتى حين تشابكت يداهما. وبدلاً من أن يتطلع «ونستون» في عيني الفتاة، رأى عيني الأسير الكهل تُحدقان بكآبة في عينيهِ من خلال شعر وجهه الكثيف.

بين العشب والزهور المتساقطة

Between grass and falling flowers

وجد «ونستون» نفسه يسير عبر ممرٍ يُخيم عليه الظل ويغمره الضوء حيناً آخر، وعندما كان يُسرّع الخطى زلت به قدمه في بركٍ من الماء أكسبتها أشعة الشمس المتسربة من خلال أغصان الأشجار لوناً ذهبياً. وكان يبدو أن الهواء يُداعب الوجوه، لم لا واليوم هو الثاني من مايو. ومن مكانٍ ما في قلب الغابة كان ينبعث هديل الحمام.

كان «ونستون» قد وصل إلى المكان المتفق عليه دون أن تواجهه أية صعوبات أثناء الطريق، إذ يبدو أن الفتاة كانت ذات خبرة واسعة تجعلها موضع ثقة في تخير الأماكن الآمنة. ومع ذلك ليس للمرء أن يحسب أنه أكثر أماناً في الريف ممّا هو في لندن.



«جوليا» في لقاء «ونستون» في الغابة

نعم، يخلو الريف من «شاشات الرصد»، بيد أن الخطر الأكبر يكمن في الميكروفونات المخبأة عن العيون والتي يمكنها التقاط صوتك وتمييزه، فضلاً عن أنه لم يكن من السهل أن تقوم برحلة بمفردك دون أن تلفت

إليك الأنظار. كما أن محطات السكك الحديدية تكون أحياناً مرتعاً لرجال الدورية، فإذا ما صادفت هنالك أحد أعضاء الحزب فإنّها تستوقفه لفحص

أوراقه واستجوابه بأسئلةٍ محرّجةٍ. غير أنّه لم تعترض «ونستون» في رحلته أي دوريات. كان القطار مزدهجاً بالعامّة، وكانت العربّة ذات المقاعد الخشبيّة التي استقلها «ونستون» تغصّ بأسرةٍ واحدةٍ كبيرة العدد، كانت ذاهبة لقضاء بعض الوقت لدى بعض أقربائهم في الريف، وأيضاً للحصول على قليلٍ من الزبد من السوق السوداء.

وجد «ونستون» نفسه أمام الطريق الذي حدّثته عنه الفتاة. لم يكن يحمل ساعة ولكنه كان يُقدّر أنّ الوقت لم يبلغ الثالثة مساءً بعد. وكانت الزهور الزرقاء التي تشبه الأجراس تكسو الأرض بشكلٍ كثيفٍ. ركع «ونستون» على ركبتيه وجعل يقطف بعضها ليقفل الوقت من ناحيةٍ، ولأنّه من ناحيةٍ أخرى كانت تراوده فكرة غامضة وهو أنّ يُقدّم للفتاة باقة من الزهور لحظة لقائه بها. وكان «ونستون» قد جمع باقة كبيرة وراح يشمّ رائحتها الذكيّة عندما أتاه صوت من ورائه جمّد الدّم في عروقه. كان الصوت صوت وقع أقدام تطأ الحشائش. ولكنه تجاهله وواصل قطف الزهور حتى أحس بيدٍ تربت على كتفه برقةٍ.

رفع وجهه فإذا بالفتاة أمام عينيه. وأشارت إليه مُحدّرة أن يتفوه بكلمةٍ، ثمّ شقت طريقها عبر الشجيرات لتنفذ إلى داخل الغابة عبر مممرٍ ضيق. لم يكن ثمة شكّ في أنّها سارت في هذا الممرّ من قبل. وتبعها «ونستون» وهو ما يزال يقبض على باقة الزهور. في البدء شعر «ونستون» بالارتياح، بيد أن مراقبته لهذا القوام الممشوق القوى وهو يتبختر أمام عينيه وقد شدّ على الخصر ذلك الزنّار⁽⁶⁾ القرمزي شدّاً يبرز مفاتن الردفين قد كرّست لديه الشعور بالدونيّة وخيّل إليه أنّها ربما تراجع نفسها فيما هي مُقدمة عليه إنّ هي استدارت ونظرت إليه.

(6) الزنّار، هو حزام أو وشاح يشدّ على الخصر أو الصدر لتثبيت الرداء على الجسد. (المعد).

كانت شمس مايو في المسافة التي قطعها من محطة القطار قد أثارت لديه شعورًا بالخجل من قذارته وشحوبه كمخلوقٍ لا يرى الشمس، وقد اندست مسام جلده بفعل سخام⁽⁷⁾ لندن الذي يكسوها. وتنبه إلى أنَّ الفتاة ربما لم تره حتى الآن في وضوح النهار. وبلغا الشجرة المتداعية التي حدَّثته عنها فتجاوزتها الفتاة وشقت لنفسها طريقًا بين الشجيرات التي بدت مسدودة، وسار «ونستون» في أثرها، وسرعان ما وجد أنَّهما يقفان في مرجةٍ من العشب الأخضر الصغير تُحيط بها أشجار وارفة الظلال تحجب الرؤية. هنا توقفت الفتاة، ثُمَّ التفتت قائلة:

- ها نحن قد وصلنا.

وقف مُحدقًا فيها تاركًا بينه وبينها خطوات. فهو لم يجرؤ على الاقتراب منها لأكثر من ذلك.

واستطردت تقول:

- لم أשא أن أُحدِّثك بشيءٍ ونحن في الطريق خشية أن يكون ثمة ميكروفون مخبأ في مكانٍ ما. وإن كنت أعتقد أن ليس هناك شيء من ذلك ولكن يجب أخذ الحيطة على أي حال، فاحتمال التقاط صوتك وتمييزه من قبل أحد الأوغاد يظل احتمالًا قائمًا على الدوام. أمَّا هنا فنحن في أمان.

ولم يجد «ونستون» في نفسه من الشجاعة ما يكفي ليتجرأ به على الدنو منها حتى الآن. فجعل يُردّد عبارتها في غباءٍ:

- ها نحن في أمان.

(7) سخام، هو ضباب من جسيمات الكربون. (المعد).

- أجل، انظر حولك إلى الأشجار.. لا توجد أشجار كبيرة يمكن إخفاء ميكروفون فيها. عدا عن ذلك فقد جئت إلى هذه البقعة من قبل.

كان ذلك تمهيداً لبدء حديثهما. وتغلب «ونستون» على ما تملكه من رهبة ودنا منها. كانت تقف أمامه منتصبه القامة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة باهته ومفعمة بالسخرية وكأنها تتساءل عن سبب إحجامه عن أي فعل حتى الآن.

وهنا حدث أن سقطت باقة الزهور التي بين يديه أرضاً وبدأ أنها سقطت من تلقاء نفسها، فأمسك بيدها وقال:

- أتصدقين لو قلت لك أنني لم أعرف لون عينيك إلى الآن.

ولاحظ للتو أنها بنيتان أو بالأحرى فيهما ظلال بنية خفيفة، أما أهدابها فكانت سوداء. وسألها:

- أمّا وقد رأيتني في وضوح النهار، فهل ما زلتِ تحتملين النظر إلى وجهي؟

- أجل بسهولة.

- إنني في التاسعة والثلاثين من عمري، ومقترن بزوجة لا أستطيع التخلص منها، وأعاني من الدوالي، ولي خمس أسنان اصطناعية.

فقالت الفتاة:

- إن هذا لن يقلل من اهتمامي بك.

وفي اللحظة التالية، ودون أن يدري كانت الفتاة بين ذراعيه. في البداية لم يكن «ونستون» يصدق ما يجري. فها هو الجسد الغض مشدود إلى جسده، والشعر الأسود يُغطي صفحة وجهه، ورفعت الفتاة وجهها فأخذ يمطر

شفتيها الحمراروين بالقُبَلات، وأحاطت عنقه بذراعيها وهي تُناديه بأعذب الكلمات. جذبها إلى الأرض فلم تبد أي مقاومة، فكان باستطاعته أن يفعل بها ما يحلو له. لكن الحقيقة أنه لم يكن لديه أي رغبة جسدية تذهب إلى ما هو أبعد من مُجرّد التماس بينهما. فقد استولت عليه مشاعر الزهو وعدم التصديق.

كان مسرورًا بما يحدث لكنه لم يكن يشعر بأية رغبة جسدية. لقد حدث كُلّ شيء بسرعة خاطفةٍ إلى حدٍّ أن شبابها وجمالها قد أرباه، بعد أن كان قد أَلِف العيش بدون نساء، وهو يجهل سبب ذلك. وقامت الفتاة عن الأرض واستلت زهرة من شعرها، وجلست ملاصقة له وهي تلف ذراعها حول خصره، وقالت:

- هدى من روعك يا عزيزي. لسنا في عجلةٍ من أمرنا. وما زال لدينا متسع من الوقت. ألا ترى أن هذه الخلوة رائعة. لقد اكتشفتها عندما ضللت طريقي ذات مرّة في إحدى الرحلات الجماعيّة. ولو جاء أحدهم لأمكنا سماع وقع خُطاه وهو على بعد مائة متر.

سألها «ونستون»:

- ما اسمك؟

فأجابت:

- جوليا.. إنني أعرف اسمك، إنك ونستون! ونستون سميث.

- وكيف تسنى لك معرفة ذلك؟

- أظنّ أنني أبرع منك في اكتشاف الأشياء يا عزيزي. هل أخبرني بمشاعرك نحوي قبل أن أعطيك الرسالة في ذلك اليوم؟

لم يشعر «ونستون» بأي دافع للكذب عليها، وكان يعتقد أن أفضل بداية لحُبِّها هو أن يفضي إليها بأسوأ ما كان يَكُنَّ لها. فأجاب:

- كنت أكره مُجرَّد رؤيتكِ، وراودتني كثيرًا الرَّغبة في اغتصابكِ ثم قتلكِ بعد ذلك. بل ومنذ أسبوعين كنت أفكّرُ جدًّا في تحطيم رأسكِ بحجر. وإذا كنتِ تودين معرفة السبب، فقد ظننت أن بينكِ وبين «شرطة الفكر» رباطًا ما. ضحكت الفتاة مبتهجة إذ اعتبرت ذلك ثناء على براعتها في التخفي. وقالت:

- هل حقًا ظننت أنني أعمل مع «شرطة الفكر»؟ أكنت جادًا في ذلك الظنّ؟
فأجاب:

- قد لا يكون ذلك بالضبط. ولكن مظهركِ العام وكونكِ في ريعان شبابكِ وجمالكِ، جعلني أظنّ أن ذلك محتمل.
قالت:

- إذا، كنت تظن أنني عضوة بالحزب وصادقة في قلبي وفعلي. ولعلكِ اعتقدت أنني من الذين يشاركون في حمل الأعلام وترديد الشعارات والسير في المسيرات والخروج في الرحلات الجماعيّة، وظننت أنه لو سنحت لي أدنى فرصة للوشاية بك كمجرم فكر لفعلت ذلك حتى يقتلوك؟
- نعم، لقد خامرني أشياء من هذا القبيل. فكما تعلمين هناك فتيات كثيرات يقدمن على ذلك.

فقالت وهي تخلع الزنّار القرمزي، شعار اتحاد الشبيبة المناهض للجنس وتُعلقه على غصن الشجرة:

إنَّها «شرطة الفكر» اللعينة هي التي تبث هذا الانطباع.

بعدئذٍ، وكما لو أن ملامستها لخصرها قد ذكَّرتها بشيء ما، تحسست جيب معطفها وأخرجت منه قطعة شيكولاتة وقسمتها شطرين وأعطت «ونستون» أحدهما. وقبل أن يمدَّ يده أدرك من رائحتها أنَّها من نوع غير عادي، فقد كانت ذات لون غامق ولامع وملفوفة بورق فضي. فالشيكولاتة التي يعرفها كانت ذات لون بُني كئيب ومُتفتتة وكان طعمها أشبه ما يكون بطعم الدخان المنبعث من حرائق أكوام القمامة. ومع ذلك فقد كان من حين لآخر يتذوق شيكولاتة مثل تلك الشيكولاتة.

وسألها:

- من أين لك هذا؟

فأجابت غير عابئة:

- من السوق السوداء.

ثمَّ استطردت:

- إنَّني من الفتيات اللواتي يلفتن إليهن الأنظار. إنَّني رياضية. كما أنَّني كنت قائدة مجموعة في منظمة الجواسيس. وكنت أقوم بثلاث مهمات تطوعية كلَّ أسبوع ضمن اتحاد الشبيبة المناهض للجنس. لقد كنت أمضى السَّاعات الطويلة أجوب أنحاء لندن لألصق ملصقاتهم اللعينة، وكانت مشاعر البهجة بادية على مُحيائي دائماً ولم يحدث أن تهربت يوماً من شيء يُسند إليَّ، وأشارك الجماهير في هتافها. إنَّ هذه وحدها هي طريق السلامة.

وذابت أوَّل قزمة من الشيكولاتة على لسان «ونستون». كان الطعم لذيذاً. لكن ثمة ذكرى ظلت تتحرَّك في أطراف وعيه. وكان يحاول أن يطردها عنه وهو يعي أنَّها ذكرى شيء ما ودَّ لو لم يفعله لكنه لم يستطع ذلك.

قال لها:

- إنَّكَ لا تزالين في مقتبل عُمرِكَ. فأنتِ أصغر مني بعشر أو خمس عشرة سنة. فما الذي أعجبكِ في رجل مثلي؟

ردت قائلة:

- إنَّه شيء ما في وجهك شجعني على خوض المغامرة. إنَّني ماهرة في اكتشاف الأشخاص الذين لا انتماء لهم. فما إن رأيتك حتى أيقنت أنَّك ضدهم.

وأدرك «ونستون» أنَّها تعني الحزب بقولها (ضدهم)، وبالأخص قيادة الحزب التي كان حديثها عنها ينم عن كراهيةٍ ممزوجة بالسخرية، وهذا ما جعل «ونستون» يشعر بالقلق رغم علمه بأنَّها أكثر أماناً في هذا المكان من أي مكان آخر. بيد أن ما أدهشه هو خشونة عبارتها. فقد كان من المفترض أن أعضاء الحزب لا يتلفظون بالسُّباب حتى إن «ونستون» نفسه كان نادراً ما يفعل ذلك بصوت عالٍ على الأقل.

أمَّا «جوليا» فقد بدا أنَّها لا تستطيع أن تأتي على ذكر الحزب، وعلى الأخص قيادة الحزب، دون أن تستخدم ذلك اللَّون من الكلمات التي تُرى مرسومة بالطباشير على جدران الأزقة الضيقة الفقيرة. ولم يستقبح «ونستون» منها ذلك، فهذا علامة على ثورتها على الحزب وكُلِّ أساليبه، بل ويبدو دليلاً على العافية والصحَّة، إنَّه أشبه بالحصان الذي يعطس حين يشم رائحة تبين فاسد.

كانا قد تركا البقعة الطبيعية وأخذا بجولان ثانيةً عبر الظلال المتقطعة وقد لفَّ كُلُّ منهما ذراعه حول خصر الآخر كُلمَّا كان بإمكانهما أن يسيرا جنبًا إلى جنب. ولاحظ أنَّ خصرها قد غدا أكثر ليونة بعدما خلعت عنه الزنَّار

القرمزي. كانا يتحدثان همسًا. فخارج البقعة وحسبما قالت «جوليا»، يُحسن بهما أن يلزما الهدوء. وكان قد بلغا حافة الغابة الصغيرة فاستوقفته قائلةً:

- لا تخرج إلى الأرض المكشوفة، فقد يكون هنالك شخص يترصدنا. إنَّنا نَظَلَّ في أمانٍ ما دمنا وراء أغصان الأشجار.

لقد كانا يقفان تحت ظلّ شجيرات البندق بينما كانت أشعة الشمس المتسربة عبر أوراق الشجر الغزيرة تلوح وجهيهما. وما إن نظر «ونستون» إلى الحقل الممتد وراء الغابة حتى أخذت جسمه رجفة بطيئة وغريبة، فقد عرف هذا الحقل بمُجرَّد أن وقع بصره عليه.

كان مرعى قديمًا مُغطى بالعشب ويتخلله ممشى. وعلى الجانب الآخر من الحقل تدلت أغصان أشجار الدردار متمائلة مع النسيم وتتحرك أوراقها ببطءٍ وكأنَّها خصلات شعر امرأة. وفي مكان قريب، لكن خارج مجال النظر، لا بدَّ أن هناك جدولًا ذا برك خضراء تسبح فيها الأسماك؟

وهنا همس متسائلًا:

- ألا يوجد جدول ماء بالقرب من هنا؟



«جوليا» تُعانق «ونستون»

- أجل، ثَمَّة جدول عند حافة الحقل التالي. إنَّ فيه سمكًا كبير الحجم حتى ليتمكنك أن تراه فوق صفحة البرك يُحرِّك ذيله أسفل أشجار الصفصاف.

فغمغم قائلاً:

- إنَّه الريف الذهبي تقريبًا.

- أي ريف ذهبي هذا؟

- لا شيء، لكنه مشهد طبيعي كنت أراه أحياناً في الحلم.

وهمست «جوليا»:

- انظر!

كان طائر «الحُسُون»⁽⁸⁾ قد حط على غصن لا يبعد أكثر من خمسة أمتار عنهما وعلى مستوى وجهيهما تقريباً. ويبدو أنَّ الطائر لم يرهما، فقد كان هو في الشمس وكانا هما في الظلّ. نشر الطائر جناحيه ثُمَّ أعادهما بعناية إلى وضعهما الأوّل، وخفض رأسه للحظة، كما لو كان يؤدي فرضاً من فروض الطاعة والتبجيل للشمس، وأخذ يصدح بأغانيه. ووسط هدأة ما بعد الظهيرة بدا أنَّ الصوت قد جعل «ونستون»، و«جوليا» يجفّلان فاحتضن كُلّ منهما الآخر مبهورين بذلك الصوت العذب. وانساب الموسيقى دقيقة تلو أخرى مع تنويعات تبعث على الدهشة، فلم يكرّر أي نغمة طوال ذلك وكأنّما كان يعتمد استعراض براعته في الغناء كان «ونستون» يراقبه ولديه شيء من التبجيل الغامض. وتساءل في نفسه: تُرى لمن كان الطائر يُغرّد؟ ولماذا؟ لم يكن بجواره رفيق أو غريم. وما الذي يجعله يحط على غصن من أغصان غابة مهجورة كهذه ويصدح في العراء وما من أحد يسمعه؟

وتساءل: أيكون هنالك بعد كُلّ هذا ميكروفون مخبأ في مكانٍ ما على مقربةٍ منهم؟ إنّه و«جوليا» قد حرصا على أن يكون كلامهما همساً، ولن يستطيع الميكروفون التقاط ما قالاه، لكنه حتماً سيلتقط تغريد الحُسُون. ثُمَّ توقف «ونستون» عن التفكير مكتفياً بما يعتمل في داخله من أحاسيس. كان

(8) الحُسُون، هو طائر يتميَّز بوجهه الأحمر القرمزي، ورقبته السوداء، وظهره البني، وجناحاه الأسودان، وبتنه البيضاء، وهو طائر جميل الصوت. (المعد).

خصر الفتاة الذي يُحيط بذراعيه لينًا ودافئًا. جذبها نحوه حتى صار صدره ملاصقًا لصدرها وأحس بجسدها يمتزج بجسده. وأينما تحسّست يدها كان جسدها مستسلمًا كالماء. وتلاقت شفاههما بقبّلات مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الجافة التي تبادلها قبل ذلك. وعندما انفك ذلك العناق وتنهّد كلاهما تنهيدة عميقة، جفل الطائر وفزع فأطلق لجناحيه العنان.

واقترب «ونستون» من أذن «جوليا»، وهمس:

- الآن.

فهمست هي أيضًا:

- ليس ها هنا، هيا بنا إلى المخبأ فإنّه أكثر أمانًا.

ومع طقطقة الأغصان تحت أقدامهما راحا يشقان طريقهما نحو الخلوة. وعندما دلف إلى حلقة أشجار الدردار استدارت نحوه وكان كلاهما يتنفس أنفاسًا سريعة متلاحقة، لكن لم تلبث الابتسامة أن ارتسمت على ثغر الفتاة من جديد. أخذت تتمعن في وجهه للحظة ثمّ تحسّست أزرار ثيابها.

أجل، كان الموقف أشبه بما رآه في الحلم. فبسرعة كنتلك التي تخيلها نزعت عنها ثيابها وحينما طرحتها جانبًا كان ذلك بالحركة الرائعة نفسها التي بدا وكأنّها تقوّض أركان حضارة بكاملها. وبدا جسدها ناصع البياض تحت ضوء الشمس، ولكنه لم يتطلّع إلى جسدها من فوره فقد كانت عيناه معلقتين بذلك الوجه الأنمش ذي الابتسامة الخافتة الجريئة. رقع أمامها ثمّ أخذ بيدها بين يديه.



- هل فعلت ذلك من قبل؟

- بالطبع مئات المرّات أو قل عشرات المرّات.

- مع أعضاء الحزب.

- نعم، دائماً مع أعضاء الحزب. «ونستون» و«جوليا» في طريقهما نحو الخلوة

- مع أعضاء القيادة الحزبية.

- كلا، ليس مع أولئك الأوغاد. لكن هناك كثيرين منهم تقتلهم الرغبة فيما لو سنحت لهم أدنى فرصة. إنهم ليسوا بهذا العفاف الذي يدعونه.

قفز قلب «ونستون» ابتهاجاً. إذاً، لقد أتت ذلك الفعل عشرات المرات، وتمني لو أنها فعلته مئآت أو آلاف المرات. فكل شيء يُشير إلى الفساد كان يملؤه بأمل مجنون. فمن يدرى، ربما كان الحزب يوارى فساداً مستشرياً تحت هذه القشرة، وما تعاليمه عن التقشف ونكران الذات إلا ستار يخفي وراءه ألوان العسف والجور. وكم ستكون سعادته لو استطاع أن ينقل لهم العدوى بالبرص أو الزهري وأن يفعل كل ما من شأنه أن ينشر الفساد والانحلال في الحزب حتى يمكن تقويضه! ثم جذبها نحو الأرض بحيث أصبحت وجهاً لوجه وقال لها:

- كلما ازداد عدد الذين يضاجعونك منهم ازداد حُبِّي لك. هل تفهمين ما أعني؟

- نعم، تمامًا.

- إنني أكره التبتل، وأمقت القداسة! ولا أريد بقاء لأي فضيلة في أي مكان. أريد أن يستشري الفساد في كل شخص حتى النخاع.

- حسنًا لابد إذاً أنني أناسبك يا عزيزي، فالفساد موغل فيّ حتى نخاعي.

- هل تحبين إتيان ذلك الفعل؟ لست أعني معي فقط، وإنما أعني الفعل في حد ذاته.

- إنني أحبه حبًا جمًّا.

كان ذلك هو عين ما أراد أن يسمعه منها. ليس مجرد حب شخص لآخر، إنما هي الغريزة الحيوانية والرغبة التي يستوي فيها الناس، إنها القوة التي

ستمزق الحزب إلى أشلاءٍ. ومدَّها فوق العشب وبين الزهور المتساقطة. ولم يصادف صعوبة هذه المرّة وعادت أنفاسهما إلى الحالة الطبيعية، ثُمَّ انفصلا بعدما انتابهما إعياء مُفعم باللذّة. وكانت الشمس قد اشتدت حرارتها. وأحسا بنعاسٍ يغالبهما. مدَّ «ونستون» يده إلى معطفها الذي ألقتَه جانبًا وغطى به بعض جسدها. وراح من فورهما يغطان في نومٍ عميقٍ امتد بهما زهاء نصف ساعة.

كان «ونستون» هو مَنْ استيقظ أولاً فراح يتأمل ذلك الوجه الأنمش الذي لا يزال نائمًا في سلام متوسدًا راحة يدها. ولم يكن هناك فيها من جمالٍ يلفت النظر سوى جمالٍ ثغرها. أمّا شعرها القصير الأسود الفاحم فكان غزيرًا وناعمًا بشكلٍ غير عادي. وتنبه في تلك اللَّحظة إلى أَنَّهُ لا يزال يجهل اسمها كاملاً أو عنوانها. أثار هذا الجسد الغض القوي، الذي ما يزال ساكنًا في نومه شعورًا بالأسى والرَّغبة في حمايتها. ولكن الرقة المتناهية والتي استشعرها وهو تحت شجرة البندق حينما كان الحشون يُغرِّد لم تعاوده ثانيةً.

وحسر الثوب عن جسدها وراح يتفحص خصرها الغض. وتذكَّر أَنَّ الرَّجل في الأيام السالفة كان ينظر إلى جسد الفتاة بشهوةٍ ثُمَّ يكتفي بذلك. أمّا في هذه الأيام فلا يمكن أن تحس بالحُبِّ الخالص أو الشهوة النقية، فلم تعد هنالك عاطفة نقية لأنَّ كُلَّ شيء بات يخالطه الخوف والكرهية. لقد كان عناقهما معركةً ونشوتهما نصرًا. كانت صفعه على وجه الحزب.

* * * *



الفصل الثالث

نحن لم نمُت بعد!

We have not died yet



قالت «جوليا»:

- بإمكاننا أن نأتي هنا مرّة أخرى، فليس ثمة خطر في استعمال المخبأ الواحد مرّتين، ولكن ليس قبل مُضي شهر أو شهرين.

حين أفاقت «جوليا» بدّلت هيئتها، فارتدت ثيابها وشدّت حزامها القرمزي حول خصرها ثم أخذت ترسم خطة الإياب. كان طريق الإياب التي رسمته له غير الذي سلكه في مجيئه حيث جعلته يستقل القطار من محطة غير تلك التي جاء منها عند ذهابه. وقالت له كمَنْ يرسّي مبدأ عالمًا ومهمًّا:

- إياك والعودة إلى البيت من الطريق نفسه الذي سلكته في الذهاب.

وحسب الخطة كانت ستغادر المكان أوّلًا فيما سيُنظر «ونستون» نصف ساعة قبل أن ينطلق عائداً بعدها. وقد عيّنت له مكاناً يمكنهما اللقاء فيه بعد انتهاء العمل في اللّيلة الرابعة من ذلك التاريخ.

وكان المكان عبارة عن شارع ضمن أكثر الأحياء بُسًا حيث توجد سوق مكشوفة تعج دائماً بالضجيج والازدحام، وكان من المُقرّر أن تتجوّل بين الحوانيت متظاهرة بأنّها تبحث عن رباط حذاء أو خيوط لحياكة الثياب، وحين يرى «ونستون» أنّ المكان آمنٌ فسوف يعطس حينما يقترب منها، وإن لم يفعل فعليه أن يمرّ بها كما لو كان لا يعرفها. وإذا ما حالفهما الحظ

سيكون من المأمون أن يتبادلا أطراف الحديث لربع ساعة مستغلين الزحام الحاصل وعندها يمكنهما ترتيب لقاء آخر.

وبعدما انتهت من تعليماتها، قالت:

- يتعيّن عليّ الانصراف الآن، يجب أن أكون هناك في السابعة والنصف، إذ ينبغي أن أناوب ساعتين في رابطة الشبيبة المناهضة للجنس أمضيها في توزيع المنشورات. أليس في ذلك سخف؟.. من فضلك انفض لي ثيابي، ألا زالت هناك أغصان عالقة بشعري؟ هل أنت متأكد؟ إذاً، إلى اللقاء يا حبيبي.. إلى اللقاء.

قالت هذا وألقت بنفسها بين ذراعيه وأمطرته بقبلاتٍ مجنونةٍ، ثمّ انسلت من بين ذراعيه لتشق طريقها عبر أشجار الدردار وتخفي في الغابة دون أن تُحدث صوتاً. وحتى هذه اللحظة لم يكن «ونستون» قد عرف اسمها كاملاً أو عنوانها بعد.. لكن ذلك لم يكن ذا أهمية.

لم يعودا مرّةً أخرى إلى ذلك المكان، وعلى مدى بقية شهر مايو لم تتح لهما سوى فرصة واحدة لممارسة الحبّ.. وكان ذلك في مخبأ آخر تعرفه «جوليا»، إنّها غرفة برج كنيسة مُهدّمة في منطقة ريفيّة شبه مهجورة حيث سقطت قبلة ذرية قبل ثلاثين سنة. أمّا بقية اللقاءات فكانت تتمّ في الشارع، وفي مكانٍ مختلف في كلّ مرّة دون أن يتجاوز لقاءهما الواحد نصف السّاعة. ففي الشارع كان بإمكانهما أن يتبادلا الحديث بشكلٍ ما وكانا عندما يسيران على الأرصفة المزدحمة يحرصان على ألاّ يسيران متجاورين أو يلتفت وأحدهما إلى الآخر، وفي أثناء ذلك يتبادلان حديثاً متقطعاً بصورةٍ تبعث على الاستغراب، حيث كان الحديث أشبه بضوء منارة يومض ويخبو، فمثلاً قد يضطرهما مرور أحد أعضاء الحزب بزيه الرسمي أو اقترابهما من «شاشة الرصد» إلى صمتٍ مفاجئٍ ومطبقٍ ثمّ يستأنفان حديثهما بعد دقائق

قليلة. ثُمَّ فجأةً يمسكان عن الحديث عندما يفترقان في المكان المتفق عليه ليواصلما انقطع من حديث في اليوم التالي دون مقدمات ومن حيث انتهيا. وبدا أن «جوليا» متمرسة تمامًا على ذلك النوع من الحديث والذي كانت تسميه: «الحديث بالتقسيط».

كما إنها كانت تتمتع ببراعةٍ فائقةٍ في التحدث دون أن تُحرك شفثيها. ولم يتمكنّا إلا مرةً واحدةً خلال شهر من اللقاءات الليلية من تبادل قبلة وذلك عندما كانا يسيران في شارع جانبي يخيم عليه الصمت (كانت جوليا لا تتحدث مطلقًا إلا عندما تكون في شارع رئيس). وعندما سمعا صوت زئير يصم الآذان، واهتزت الأرض من تحت أقدامهما، وكان «ونستون» ممددًا على الأرض وقد أدمته الجراح وانتابه حالة من الهلع، لابدَّ أن قذيفة صاروخية سقطت بالقرب منهما. وفجأةً لم يشعر إلا ووجه «جوليا» لا يفصله إلا بضعة سنتيمترات عن وجهه. وكان وجهًا شاحبًا شحوب الموتى حتى إن شفثيها الحمرّاوين اصطبغت باللون الشاحب نفسه، وظنَّ أنها لقيت حتفها فضمها إليه وحينما جعل يُقبّلها تبين له أنه يُقبّل وجهًا حيًا دافئًا. لكن بعضًا من مادة غبارية حالت بين تلاؤم شفاههما إذ كان كلا الوجهين مغطيين بطبقةٍ من⁽⁹⁾ الملاط.

وكان يحدث في بعض المرات أن يبلغا مكان اللقاء ثم يضطران إلى المرور ببعضهما دون أن يتبادلا ولو إشارة، وذلك لأنَّ إحدى الدوريات قد ظهرت في المكان. إضافةً إلى أنَّه كان يتعذر عليهما أن يجدا وقت فراغ يلتقيان فيه، لأنَّ «ونستون» كان يعمل ستين ساعة أسبوعيًا، في حين كانت «جوليا» تعمل أكثر من ذلك، كما كانت أيام عطلاتهما تتباين حسب ضغوط العمل ونادرًا ما تتوافق. وفي كُلِّ الأحوال كان من النادر أن تحصل «جوليا»

(9) الملاط، أو المونة هي مادة تُستخدم لربط الطوب أو الحجر ولملء الفراغات بينهما. (المعد).

على أمسيةٍ خاليةٍ تمامًا من الواجبات لأنها كانت تمضي وقتًا طويلاً للغاية في الاستماع للمحاضرات، والمشاركة في التظاهرات، وتوزيع المنشورات، وإعداد الرايات الخاصّة بـ«أسبوع الكراهية». وكانت تقول في ذلك إنه يُفيد كتمويه:

- فإذا التزمت بصغائر القواعد يمكنك خرق كباؤها.

ومن ثمَّ فإنَّها حثت «ونستون» على أن يتطوَّع بأمسيةٍ أخرى يمضيها في إعداد الذخائر، وهو ما كان يضطلع به أعضاء الحزب شديداً الحماس.



الحبيبان في برج الكنيسة المتهدّمة

وعندما التقيا في برج الكنيسة المتهدّمة كان حديثهما المتقطع يتصل بعد وصل ما تخلله من فجوات. وقد حدث ذلك في ظهيرة يوم قاطظ ملتهب حيث كان الهواء في الغرفة المُرَبَّعة

الصغيرة التي تعلو الأجراس راكدًا وحارًّا وتنفوح منه رائحة نفاذة لروث الحمام. وقد جلسا لساعاتٍ يتحدَّثان فوق أرضية الغرفة المغطاة بالغبار وبأوراق الشجر المتساقطة، ومن حين لآخر كان ينهض أحدهما ليلقي نظرة عبر ثقوب الغرفة كي يتأكّد من عدم قدوم أحد.

كانت «جوليا» في السّادسة والعشرين من عُمرها، وكانت تعيش مع ثلاثين فتاة أخرى في نزل كانت تعمل كما كان يظن على آلات كتابة الروايات في قسم الخيال وتستمتع بعملها الذي يقوم أساسًا على إدارة وتشغيل مُحرِّك كهربائي قوي.. وبالرغم من أنّها لم تكن بارعة فإنَّها كانت مغرمة باستعمال يديها وتشعر بالارتياح كُلّما وقفت أمام الآلة، وكان بوسعها

أن تصف المراحل التي تمرّ بها عملية تأليف رواية. غير أن «جوليا» لم تكن تهتم كثيراً بشكل المنتج النهائي، إذ كانت تقول إنّها لا تأبه كثيراً بالقراءة، فالكتب في نظرها ليست سوى سلعة يتم إنتاجها مثل المربى وأربطة النعال.

لم يكن لديها ذكريات عمّا قبل الستينيات، وكان الشخص الوحيد الذي أتيح لها أن تعرفه وكثيراً ما يتحدّث عن أيام ما قبل الثورة هو جدّها الذي اختفى عندما كانت في الثامنة. وفي المدرسة كانت قائدة فريق الهوكي، وفازت بميدالية ألعاب الجمباز لدورتين متتاليتين.

كما كانت قائدة فريق «في اتحاد الجواسيس». لقد كانت دائماً تتمتع بشخصية ممتازة، بل إنّها اختيرت وهي علامة أكيدة تدل على السمعة الطيبة لكي تعمل في أحد الأقسام الداخلية لقسم الخيال الذي كان ينتج روايات إباحية للعامة. وكان العاملون في هذا القسم يعتنونه بـ «ماك هاوس» وقد أمضت فيه سنة حيث كانت تُساعد في إنتاج كتيبات مغلفة ومختومة تحمل عناوين، مثل: «قصص مثيرة»، «ليلة واحدة في مدرسة البنات» تسوّق بين شباب العامة في الخفاء فيبتاعونها باعتبارها من المحظورات التي حصلوا عليها.

سألها «ونستون» بفضول:

- وعلى ماذا تحتوي هذه الكتب؟

- تفاهات مقرزة. إنّها في الحقيقة تبعث على الملل. فهي جميعاً تقوم على ست حيكات فقط تدور حولها ولكنهم يحوّلونها قليلاً في كلّ مرّة. بالطبع أنا لم ألتحق بفريق إعداد الكتابة أبداً، فدوري يقتصر على العمل على المكشاف (لكلايدسكوب)، كما أنّني لست أديبة يا عزيزي ولا حتى مؤهلة لذلك.

عرف «ونستون» -والدهشة ملؤه- أن جميع العاملين في هذا القسم، ما عدا رئيسه من الفتيات. والفكرة كانت أن الرجال أقل قدرة على كبح غرائزهم الجنسيّة من النساء، ومن ثمّ كانت المواد التي يتعاملون معها تجعل الرجال أكثر عرضة للفساد.

وأضافت قائلةً:

-إنّهم حتى لا يجذبون وجود المتزوجات من النساء ضمن القسم، فهم يفترضون أن الفتيات دائماً عفيفات. ولكن أملك الآن تقف واحدة منهن.

في السادسة عشرة أقامت «جوليا» أوّل علاقة لها، وكانت مع عضو من أعضاء الحزب في الستين من عُمره، وانتحر لاحقاً ليتجنّب القبض عليه. ومنذ ذلك الحين عرفت الكثيرين غيره، فقد كانت الحياة من وجهة نظرها بسيطة للغاية، فالمرء يود لو يمضي أوقاتاً طيبةً بينما هم، وتعني الحزب، يريدون لو يحولون دون ذلك. ولذا فإنّ المرء يلجأ لخرق هذه القواعد قدر استطاعته.

وكانت تكن كُرّها للحزب ولا تتردّد في التعبير عن ذلك بأشنع الكلمات. ولاحظ «ونستون» أنّها لا تستعمل مطلقاً أيّاً من مفردات اللغة الجديدة ما عدا تلك المتداولة في الاستخدام اليومي للغة. فمثلاً لم تسمع مطلقاً بما يُسمى «الإخوة» بل وأنكرت وجودها. وكانت ترى أن أي شكل من أشكال الثورة المنظمة ضدّ الحزب محكوم عليه بالفشل ولا يقوم به سوى الأغبياء والحمقى. وأمّا الفطنة في نظرها فهي أن يخرق المرء القواعد ويظلّ على قيد الحياة بعد ذلك.

وتساءل «ونستون» في نفسه عن عدد الذين يفكرون على شاكلتها من الجيل الأصغر، إنّهم أناس تربوا في عهد الثورة ولم يعرفوا عهداً سواه، حيث يسلمون بالحزب كما لو كان قدراً مكتوباً لا يتغيّر مثله مثل السماء.

ولم يتطرقا في حديثهما إلى إمكانية زواجهما فقد كان ذلك أمراً صعب المنال ويجب عدم التفكير فيه. إذ لا يمكن حتى تخيُّل فكرة أن تسمح اللجنة المعنية بمثل هذا الزواج وحتى لو أمكن التخلُّص من «كاترين»، زوجته السابقة، بطريقةٍ ما، فإنَّ زواجهما كان سيظلُّ أمراً بلا رجاء تماماً كحلُم يقظة. وسألته «جوليا»:

- كيف كانت زواجك؟

فأجابها:

- إنها كانت.. هل تعرفين كلمة «التفكير الصالح» في اللغة الجديدة؟ والتي تشير إلى الولاء الحق الذي يكتنه شخص للحزب بل وعدم قدرته على التفكير الطالح.

- كلا، لم تمرّ عليّ هذه الكلمة، ولكنني على درايةٍ جيدةٍ بمثل هذا النمط من الأشخاص.

وبدأ «ونستون» يروي لها حكاية زواجه، وكانت دهشته شديدة حينما استبان له أنَّها على علم بتفاصيلها الرئيسة بالفعل، إذ أمسكت بزمام الحديث بدلاً عنه وأخذت تصف له، كما لو كانت قد رأت جسد «كاترين» أو تحسسته. ولم يجد «ونستون» غضاضة في الحديث عن مثل هذه الأمور مع «جوليا». فعلى أي حال لم تعد «كاترين» وذكرها تقض مضجعه منذ زمن طويل إذ غدت مُجرَّد ذكرى بغیضة على نفسه. قال لها:

- لقد كان في استطاعتي احتمالها لولا شيء واحد.

وأخبرها عن ذلك الطقس الذي كانت «كاترين» ترغمه على ممارسته في الليلة نفسها من كُلِّ أسبوع. وأضاف:

- لقد كانت تمتق هذا الطقس ولكن لم يكن لأي شيء في الوجود أن يجعلها تكف عنه. لقد دأبت على تسميته... هل لك أن تخمني؟

قالت «جوليا»:

- واجبنا إزاء الحزب.

قال لها:

- وكيف عرفت ذلك؟

- لقد كنت في المدرسة يا عزيزي، حيث يتلقى من هم فوق السادسة عشرة درسًا في الجنس مرةً في الشهر. أمّا داخل حركة الشبيبة فهم يغرسونه فينا على مدى سنوات، بل وجرؤوا على القول بأن ذلك كان يترك تأثيرًا عميقًا لدى كثير من الفتيات ولكن لا أحد يمكنه التصريح.

مع «جوليا» كل شيء يرتبط بغريزتها الجنسية فحالما يلامس أحد هذه الغريزة فإنها تصبح حادة الذكاء. وهي خلافًا لـ«ونستون» كانت قد فطنت إلى المعنى الباطني للعُهر الجنسي الذي يحث عليه الحزب، فهذه الغريزة سرعان ما توجد لها عالمًا خاصًا خارج سلطان الحزب، ومن ثمَّ كان يتعيَّن استئصالها إذا أمكن بل الأهم من ذلك أن الحرمان الجنسي يفضي بعضو الحزب إلى حالة من الهستيريا، وهو أمر مرغوب فيه حيث يمكن تحويله إلى نوع من حُمى الحزب وعبادة الزعيم. وقد بسطت فكرتها على النحو الآتي: عندما يمارس المرء الجنس فإنه يستنفد قواه ويستشعر نوعًا من اللذة تجعله لا يأبه بعدها بشيء. وهم لا يرغبون في ذلك، لأنهم يريدونك أن تكون شعلة من النشاط طوال الوقت. وليست كل هذه المسيرات التي لا تهدأ وما يصاحبها من هتافات وتلويح بالرايات إلا تنفيسًا لطاقة جنسية مكبوتة. فلو كان المرء مبتهجًا في قراءة نفسه فما الذي يدفعه للاهتمام بـ«الأخ الكبير»، وبالخطط الثلاثية، ودقيقتي الكراهية.

اعتبر «ونستون» أن ما قالته «جوليا» صحيح فثمة صلة وثيقة ومباشرة بين إجبار المرء لنفسه على العفة وبين ولائه السياسي.

وعلي نحو مفاجئ عاود التفكير في «كاترين» والتي كانت ولا ريب ستشي به إلى «شرطة الفكر» لولا أنها كانت من الغباء إلى حد يجعلها لا تدرك الانحرافات الحاصلة في آرائه عن عقيدة الحزب، ثم بدأ «ونستون» يخبر «جوليا» عن شيء قد حدث، أو بالأحرى لم يحدث. في ظهيرة صيف أخرى شديدة القيظ منذ إحدى عشرة سنة كان ذلك بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من زواجه، حينما ضلا طريقهما أثناء رحلة جماعية في مقاطعة «كنت» ولم يتخلفا عن الآخرين سوى دقيقتين إذ سلكا منعطفًا خاطئًا، وفي الحال وجدا نفسيهما عند جرف لمحجر قديم بلغ ارتفاعه ما بين عشرة أو عشرين مترًا، وفي القاع كانت تتراكم كتل من الصخور. وحالما أدركا أنهما ضلا الطريق بدت «كاترين» شديدة الانزعاج. وكانت تريد العودة سريعًا من الطريق الذي سلكه خطأ ثم تبدأ البحث في الاتجاه الآخر بيد أنه في هذه اللحظة استرعى انتباه «ونستون» بعض الزهور التي تنمو وسط شقوق الجرف الذي تحتكما. وكان بعضه ذا لونين رغم أنهما ينبتان من الجذر نفسه. ولأن «ونستون» لم يكن قد رأى زهورًا كهذه من قبل، فقد صاح:

- انظري كاترين، انظري إلى هذه الزهور، تلك التي تنمو قرب القاع.. إنها ذات لونين مختلفين؟

كانت «كاترين» قد ولت وجهها نحو طريق العودة، ولكنها اضطرت مغتظة أن تعود. وانحنت برأسها فوق حافة الجرف لتنظر إلى حيث يُشير، كان «ونستون» يقف خلفها على بعد مسافة قليلة منها وقد وضع يده حول خصرها خشية أن تفقد توازنها. وفي هذه اللحظة خطرت بباله فجأة فكرة أنهما وحيدان تمامًا، فما من مخلوق بشري حولهما، وما من ورقة شجر

تهتز، بل ولا طائر يرفرف بجناحيه. وفي مكانٍ كهذا المكان كان احتمال وجود ميكروفون مخبأً احتمالاً ضئيلاً جداً، وحتى لو وُجد ميكروفون فإنه لن يلتقط إلا الصوت. لقد كانت تلك الساعة أشدَّ ساعات الظهيرة قيظاً وأكثرها إغراءً للنوم، حيث كانا يصطليان تحت أشعة الشمس، وتصبَّب العرق على وجه «ونستون»، وسرعان ما خطرت له الفكرة..

سألته «جوليا»:

- ولماذا لم تُلْقِ بها من فوق الجرف؟ لو كنت مكانك لفعلت.

فقال:

- نعم، عزيزتي كنت ستفعلين. بل إنني كنت سأفعل، أو ربما كنت سأفعل، ذلك أيضاً لو أنني كنت على ما أنا عليه الآن. إنني لست متأكداً على أية حال.

- هل أنت آسف على أنك لم تفعل؟

- أجل، إجمالاً أنا آسف.

كانا يجلسان جنباً إلى جنب على الأرض المُغطاة بالغبار فجذبها إليه وضمها ثم أراح رأسها على كتفه فتغلبت رائحة شعرها الجميلة على رائحة روث الحمام. كانت في ميعة الصُّبا ولا تزال تنتظر الكثير من الحياة بيد أنها لم تدرك أنَّ دفع شخص بغیض من فوق جرف والتخلص منه لن يحل المشكلة.

قال «ونستون»:

- الواقع أنَّ ذلك لم يكن ليُغيِّر من الأمر شيئاً.

قالت «جوليا»:

- لِمَ إِذَا الْأَسْفَ لَا نَنْكَ لَمْ تَتَخَلَّصَ مِنْهَا؟

قال:

- لَأَنْتَنِي أَفْضَلَ الْإِيجَابِي عَنْ السَّلْبِي فِي هَذِهِ اللَّعْبَةِ الَّتِي نَلْعِبُهَا لَيْسَ فِي اسْتَطَاعَتِنَا أَنْ نَفُوزَ، إِذْ كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّ بَعْضَ الْفَشْلِ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ..

وحينذاك أحس بارتعاشه سرت في كتفيها كدلالة على عدم موافقتها، إذ كانت تُعارضه دائماً كلما تفوه بأشياء من هذا القبيل، فهي لا تُسلم إطلاقاً بفكرة أن قانون الطبيعة يحكم على الفرد دائماً بالهزيمة. وبطريقة ما كانت تعلم أن مصيرها إلى زوال، ذاك أن «شرطة الفكر»، إن عاجلاً أو آجلاً، ستلقي القبض عليها وتزيلها من الوجود. لكنها من وجهة نظر أخرى كانت تفرض أنه من الممكن بشكل من الأشكال إقامة عالم سري في الخفاء، يمكنك العيش فيه حسبما تشاء وتختار. وكل ما تحتاج إليه لتحقيق ذلك العالم هو حظ ودهاء وجراءة، بيد أنها لم تدرك أنه ليس ثمة ما يُسمى بالسعادة، وأن النصر الوحيد الذي يمكن تحقيقه قابع في المستقبل البعيد الذي سيأتي بعد موتك بأمد طويل، كما لم تكن تدرك أنه يجدر بالمرء أن يعتبر نفسه جثة بلا روح منذ اللحظة التي يعلن فيها الحرب على الحزب.

علق «ونستون»:

- إننا في عداد الموتى.

فقالت «جوليا» بإصرار:

- إننا لم نمت بعد.

قال:

- أوافقك أننا لم نمت جسدياً. لكن بعد ستة أشهر، سنة، خمس سنوات، حسبما أتصوّر سنكون من الموتى. إنني أخاف الموت وأنت أصغر مني

سنًا وربما تخافين الموت أكثر مني. لا ريب أنَّا سنحاول إرجاء قدومه قدر المستطاع، وإن كان ذلك لن يُغيّر من حقيقة الأمر شيئًا، فمادام الإنسان هو الإنسان فإنَّ الموت والحياة لديه يصبحان وجهين لعملةٍ واحدةٍ.

قالت «جوليا»:

- إنَّ هذا لهراء.. تُرى مع أيِّ منا تُحبُّ أن تنام الآن، معي أم مع هيكَل عظمي؟ ألا تستمتع بكونك على قيد الحياة؟ ألا تُحبُّ أن تتحسنني؟ ها أنا، وهذه يدي، وهذه ساقي، أنا الحقيقة، أنا موجودة، إنني حيَّة، ألا تُحبُّ هذا؟ وندت منه لتضغط بصدرها على صدره. أحس بنهديها ناضجين وبارزين من خلال معطفها. وبدا جسدها كما لو كان يصبُّ بعضًا من عنفوانها وحيويتها في جسده.

فأجاب:

- أجل، أحبُّ ذلك.

قالت:

- إذا، كف عن ذكر الموت. والآن أضغِ إليَّ عزيزي، علينا أن نتفق على موعد لقائنا القادم. يمكننا أن نعود إلى مكاننا في الغابة، فقد غبنا عنه فترة طويلة، ولكن يجب علينا أن نسلك طريقًا آخر هذه المرَّة.

لقد حدّدت كُلَّ شيء. استقل القطار... لكن انظر، سأرسمه لك.

وبطريقتها العملية مسحت جزءًا صغيرًا من الأرض المُغطاة بالغبار واستلت ريشة من ريش الحمام وراحت ترسم خريطة الطريق.

لحظات من السعادة المغتصبة

Moments of happiness raped

راح «ونستون» يُقَلِّب نظره في زوايا الغرفة الوضيعة الصغيرة الكائنة فوق حانوت السيّد «شارنجتون». كان فيها سرير ضخم يتصب قريباً بجوار النافذة وعليه أغطية بالية. وكان فوق المتكأ العلوي للمدفأة ساعة عتيقة تُسمع دقاتها.

قُرب سياج المدفأة كان هنالك موقد زيتي من الصفيح، فضلاً عن إبريق وفنجانين أمده بها السيّد «شارنجتون». أشعل «ونستون» شريط الموقد ثُمَّ وضع إبريق الماء ليغلي، وكان قد أحضر معه عبوة من قهوة النصر، وبعض مكعبات السكر. كانت عقارب الساعة تُشير إلى الخامسة مساءً، فيما هي في الواقع السابعة والثلاث. أمّا موعد وصول «جوليا» فكان في السابعة والنصف.

راح قلبه ينبض خوفاً بكلمات: «إنّها لحماقة، إنني أخرج نفسي متعمداً إلى موتٍ مجاني، فالجريمة التي أوشك على ارتكابها هي من الجرائم التي لا يمكن لعضوٍ في الحزب أن يتملص منها».

لم يجد السيد «شارنجتون» أي غضاضة في أن يؤجر الغرفة له، وبدا جلياً أنّ حفنة الدولارات التي سيمنحها إياه قد سرته كثيراً حتى أنه لم يظهر عليه أي أثر لصدمة أو شعور بالتأذي بأن «ونستون» سينوي أن يتخذها ملاذاً لممارسة الحبّ، بل وعلى التقيض من ذلك راح يتظاهر بعدم المبالاة.

وتحت النافذة كان هنالك شخص يُعني، فاسترق «ونستون» النظر محتمياً وراء ستارة، كانت امرأة ضخمة لها بنيان متين، وساعدان مفتولا العضلات، تلف حول خصرها مئزرًا، كما كانت تروح وتجيء بين وعاء الغسيل والحبل، وكانت كُلُّما انتهت من مشاجب الغسيل التي تحملها بين شفتيها تنطلق بالغناء بصوتٍ جهوري:

كان حُلماً مقطوع الرجاء

مرَّ كيومٍ من أبريل

ولكن بنظرة وكلمة وأحلام أثاروها

استُلب مني فؤادي.

ظلت أصداء هذه الأغنية تتردد في أنحاء لندن على مدى أسابيع، إنها أغنية وجهها أحد فروع قسم الموسيقى إلى العامة، وكانت كلماتها تؤلف دون أي تدخل بشري بواسطة جهاز يعرف باسم: «الناظم».

عاد «ونستون» يُحدث نفسه: «يا لها من فكرةٍ حمقاء، إنه لمن المستبعد التردد على هذا المكان لأكثر من بضعة أسابيع بغير افتضاح الأمر». ولكن فكرة أن يمتلكا مكاناً مُغلَقاً وآمناً وفي متناولهما كانت تمارس على كليهما إغراء لا يقاوم إذ تعذر عليهما لفترةٍ بعد لقائهما في برج الكنيسة المُتهمة ترتيب لقاءات جديدة، فقد ازدادت ساعات العمل بشكل لا يُحتمل استعداداً لفعاليات «أسبوع الكراهية». وأخيراً تمكَّن كُلُّ منهما من تدبير نصف يوم عطلة في اليوم نفسه وكانا قد اتفقا على أن يعودا إلى مخدعهما في الغابة. وفي المساء الذي سبق الموعد المتفق عليه التقيا على نحوٍ خاطف في الشارع. فقالت له:

- لقد تم إلغاء الموعد، أقصد موعد الغد.

أجاب «ونستون»:

- لماذا؟

قالت:

- لن أستطيع المجيء بعد ظهر الغد.

قال:

- ولم لا؟

أجابت:

للسبب المعتاد نفسه، لقد بدأت الاستعدادات مبكرًا هذه المرة.

وتملّك «ونستون» غضبٌ عارمٌ. فخلال الشهر الذي مضى كان ثمة تغيير قد طرأ على طبيعة رغبته إزاءها. في أوّل الأمر كانت مفعمة بالقليل من الشهوة الحقيقية، وكان أوّل لقاء حُبّ يضمهما بمثابة عمل صادر عن إرادة لا رغبة، لكن ذلك تغيّر في المرّة الثانية فأصبحت «جوليا» ضرورة بالنسبة له بل شعر بأنّه من حقه الحصول عليها. ولذلك فعندما اعتذرت عن الميعاد ساوره شعور بأنّها تخادعه، ولكن في هذه اللّحظة ازداد ضغط الزحام فالتقت أيديهما مصادفة. وشعر بها تضغط على أطراف أصابعه بشكل لا يُشير الرّغبة بل يُحرّك العاطفة.. وحدثته نفسه أنّ المرء حينما يعيش مع امرأة يجب أن يعتبر خيبة الرجاء هذه أمرًا عاديًا وحدثًا متكرّرًا، وهنا شعر بعاطفة جيّاشة إزاءها. ومثّل نفسه لو أنّه قد تزوجها قبل عشر سنوات، ولو أنّه كان يستطيع أن يمشي معها في الشوارع كما يفعلان الآن ولكن علانية ودون خوف. وتمنى لو كان لديهما مكان يختليان فيه معًا دون رقيب. وبغير أن يكون لزامًا عليهما أن يمارسا الحُبّ في كلّ مرّة يلتقيان فيها. لم تكن فكرة استئجار غرفة السيّد «شارنجتون» قد خطرت له في تلك اللّحظة، بل حدث

ذلك في اليوم التالي، ولم يكد يعرضها على «جوليا» حتى قبلتها بسرعة لم يتوقعها. كان كلاهما يعني أنَّ هذا عمل طائش، إذ كانا كَمَنٌ يحفران قبريهما بمحض إرادتهما. وبينما كان يجلس على حافة السرير راح يُفكر ثانية في زنانات وزارة الحُبِّ.



«جوليا» تُقدِّم هداياها لـ «ونستون»

وفي تلك اللحظة
سمع «ونستون» وقع
أقدام سريعة على السَّلَمِ
اندفعت على أثرها
«جوليا» إلى داخل الغرفة،
وكانت تحمل حقيبة
أدوات من قماش خشن

بُني اللَّون مثل تلك التي كان يراها تحملها في أروقة الوزارة. فنهض وتقدَّم نحوها ليأخذها بين ذراعيه ولكنها تخلصت منه بسرعةٍ لأنَّها كانت لا تزال تحمل الحقيقة.

وقالت:

- لحظةً من فضلك، دعني أريك ما أحضرت معي. هل أحضرت معك يا ونستون بُن النصر البغيض؟ يمكنك أن ترمي به بعيداً لأننا لن نحتاج إليه بعد الآن، انظر..

ونزلت على ركبتيها وفتحت الحقيبة وأخرجت ما بها من مفاتيح ومفكات كانت تغطي القسم الأعلى منها حيث كانت تضع تحتها عبوات ورقية أنيقة. وكانت العبوة الأولى التي ناولتها إلى «ونستون» ذات ملمس غريب وغامض بعض الشيء، لقد كانت معبأة بمادةٍ ثقيلةٍ أشبه بالرمل.

قال:

- ما هذا؟ سكر؟

- إنه سكر حقيقي. وهذا رغيف من الخبز الأبيض الرائع. وها هي علبة صغيرة من المربي وإليك بعضاً من الحليب. لكن انظر هذا هو الشيء الذي أفخر به حقاً، لقد اضطررت للقه بقطعة من الخيش لأنه..

ولم تكن ثمة حاجة لأن تشرح له لماذا اضطررت للقه هذا الشيء، فقد كانت رائحته قد ملأت الغرفة بالفعل وكانت رائحته غنية ودافئة.

همس «ونستون» بدهشة:

- إنه بُن، بُن حقيقي.

- إنه البُن الذي يشربه أعضاء الحزب الداخلي. إليك كيلو كاملاً منها.

- ولكن كيف تسنى لك الحصول على مثل هذه الأشياء؟

- إنها كلها مواد خاصة بالحزب الداخلي. ليس ثمة ما ينقص هؤلاء الأوغاد، ولكن بطبيعة الحال يستطيع الخدم أن يسرقوا بعضاً منها خلسة.. انظر، لقد حصلت على عبوة من الشاي أيضاً.

جلس «ونستون» القرفصاء بجانبها ومزق إحدى عبوات الشاي، ثم صاح قائلاً:

- إنه شاي حقيقي لا أوراق شجر العليق.

وقالت «جوليا» بغموض:

- لقد أصبح لديهم كميات كبيرة منه في الآونة الأخيرة كما لو كانوا قد احتلوا الهند أو شيئاً من هذا القبيل. والآن أضغ إليّ عزيزي.. إنني أريدك أن تدير ظهرك لثلاث دقائق.. اذهب واجلس على الجانب الآخر من السرير ولا تقترب من النافذة ولا تستدير نحوي إلا عندما أطلب منك ذلك.

وراح «ونستون» يحدق من خلال الستار وهو غائب الذهن، وكان يبدو أنَّ المرأة البديئة لا زالت تروح وتجيء في الساحة بين الوعاء وحبل الغسيل، وقد أخذت تغني:

يقولون إنَّ الزمن يداوي كُلَّ الجراح
يقولون إنَّ المرء بوسعه دائماً النسيان
بيد أنَّ الابتسامات والدموع عبر السنين
ما تزال حتى الآن تقطع نياط قلبي
مرَّت الدقائق الثلاث فقالت «جوليا»:
- يمكنك أن تستدير الآن.

استدار «ونستون» وللحظة بدا له أنَّه لا يعرفها. وكان في الحقيقة يتوقَّع أن يراها عارية، بيد أنَّها لم تكن كذلك، فالتحوُّل الذي جرى عليها كان أكثر إثارة للدهشة من التعري. وذلك أنَّها كانت قد طلت وجهها بمساحيق الزينة. كانت شفتاها قد ازدادت احمراراً، ووجنتاها قد توردتا، وأنفها قد طاله شيء من المسحوق، بل وكان هناك أثر لشيء ما تحت عينيها يجعلها أكثر بريقاً.



لم يسبق لـ «ونستون» أن رأى أو حتى تخيَّل امرأة من الحزب تصبغ وجهها بمساحيق الزينة. لقد كان التعبير الذي طرأ على مظهرها مُثيراً للدهشة، فهي لم تصبح أكثر جمالاً فحسب بل أيضاً، وهو الأهم، أكثر أنوثة. وقد زاد من روعة مظهرها هذا

شعرها القصير وزيها الصباني. وما إن ضمها بين ذراعيه حتى غمرت أنفه رائحة زهور البنفسج، وعادت به الذاكرة في الحال إلى العتمة التي كانت تخيم على المطبخ شبه المعتم سيئ الذكر وإلى المرأة ذات الفم الذي يشبه المغارة. ورغم أن عطر «جوليا» هو نفسه العطر الذي تستعمله تلك المرأة، لكنه في هذه اللحظة كان ذا أثر مُغاير.

وصاح:

- وعطرٌ أيضًا.

- أجل يا عزيزي. عطرٌ أيضًا. هل تدري ما أنوي عمله في المرّة التالية؟ سوف أجيء بثوب نسائي حقيقي وألبسه هنا عوضًا عن هذه البنطلونات اللعينة! سوف ألبس أيضًا جوربًا حريريًا وحذاء عالي الكعب. أريد أن أكون في هذه الغرفة امرأة لا رفيقة حزبية.

ثمّ خلعا ملابسهما وقذفا بها بعيدًا واعتليا السرير الخشبي الضخم. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يتجرّد فيها من ثيابه كاملة مع «جوليا»، فحتى تلك اللّحظة كان ما يزال يشعر بخجلٍ شديد من جسمه النحيل الشاحب وتلك الدوالي البارزة ولم يكن فوق السرير سوى بطانية بالية، وما إن رقادا عليها حتى تملكتهما الدهشة من ضخامة السرير.

وقالت «جوليا»:

لا ريب أن هذا السرير محشو بالبق، لكن ذلك لا يعنيني في شيء.

وللتو راحا في نوم عميقٍ لفترةٍ وجيزة. وعندما استيقظ «ونستون» كانت عقارب السّاعة قد زحفّت حتى قاربت التاسعة مساءً، لكنه لم يتحرّك لأنّ «جوليا» كانت لا تزال نائمة متوسدة ذراعه. كانت معظم مساحيق زينتها قد انتقلت إلى وجهه فضلًا عن الوسادة، لكن ثمة بقعة خفيفة من اللون الأحمر

كانت لا تزال تبرز جمال وجنتيها. وفوق مؤخرة السرير كان شعاع أصفر من أشعة الشمس الغاربة يسقط فينعكس ضوءه على موقد النار حيث يغلي الماء في الإبريق. أمّا في الأسفل في الساحة، فكانت المرأة قد كَفَّت عن الغناء، إلّا أن صياح الأطفال في الشارع كان يتناهى إلى مسامعه عبر النافذة.

استيقظت «جوليا» وفركت عينيها ثم رفعت نفسها متكئة على مرفقها ونظرت إلى الموقد الزيتي. وقالت:

- لقد تبخر نصف الماء، سأنهض وأعدّ بعض القهوة خلال لحظة. مازال أماننا ساعة.. في أي ساعة يقطعون الكهرباء عن شقتكم؟
- في الحادية عشرة والنصف مساء.

- إنهم في نزلنا يقطعونه في الحادية عشر مساء، ولكن علينا أن نكون هناك قبل ذلك لأنّ.. آه، ما هذا؟ اخرج أيها الوحش القذر!

وألقت ببعض جسمها فجأة من فوق السرير حيث التقطت حذاء من على الأرض وقذفت به بحركة صبيانية نحو زاوية من الغرفة، تمامًا كما رآها تلقي بالقاموس في وجه «جولدشتاين» في ذلك الصباح أثناء «دقيقتي الكراهية».

سألها بدهشة:

- ما هذا؟

- إنه جرد رأيته يمدّ أنفه اللعين من ثقب في الغطاء الخشبي. لقد أخفته على أي حال.

فغمغم «ونستون»:

- جرداً! حتى في هذه الغرفة.

فقالت «جوليا» غير آبهة وهي تعاود الاضطجاع:

- إنها موجودة في كُلِّ مكان. حتى في مطبخ نزلنا. كما أنَّ بعض المناطق في لندن تنغص بها غصًا. هل تعلم أنَّها تُهاجم الأطفال؟ نعم إنَّها تفعل. وفي بعض الشوارع لا تجرؤُ أُمُّ على ترك طفلها بمفرده لدقيقتين. إنَّ الجرذان الضخمة بُنية اللَّون هي التي تُهاجم، وأقبح ما يفعله هذا النوع من الجرذان هو أنَّها دائمة.. فقاطعها «ونستون» مغمضًا عينيه تمامًا:

- كفاكِ حديثًا في هذا الموضوع.

- ما بالك يا حبيبي لقد شحب لونك.. ما الأمر؟ هل تصيبك رؤيتها بالغثيان؟

- إنَّ أكثر ما يرعبني في العالم هو الجرذان.

فضمَّته إلى جسدها وأحاطته بأطرافها كأنما أرادت أن تبث فيه الطمأنينة بدفء جسدها. لكنه لم يفتح عينيه مرَّةً أخرى مباشرة، فقد مرَّت به لحظات تملَّكه خلالها شعور بأنَّ ذلك الكابوس الذي كان لا يفتأ يتتابه من حينٍ لآخر طوال حياته قد عاوده من جديد. لقد كان دائمًا الكابوس نفسه الذي يرى فيه نفسه واقفًا أمام جدار من الظلام، وعلى الجانب الآخر كان ثمة شيء لا يمكن احتماله، إنَّه شيء كرهه على النفس، لا يمكن للمرء مواجهته. وفي ذلك الحُلُم الكابوس كان ما يستحوذ عليه هو شعوره بأنَّه يُخادع ذاته، لأنَّه في واقع الأمر كان يعلم ما وراء هذا الجدار، وبجهدٍ جهيد، وكأنَّما ينتزع قطعة من مخِّه، كان يمكنه أن يخرج هذا الشيء إلى النور. بيد أنَّه كان دائمًا يستيقظ دون أن يعرف هوية ذلك الشيء، برغم أنَّه كان يبدو وكأنَّ رابطًا ما يربط بما كانت «جوليا» تتحدَّث عنه حينما قاطعها.

- إنَّني آسف، لاشيء، كُلُّ ما في الأمر هو أنَّني لا أحبُّ الجرذان.

- هدى من روعك حبيبي، فلن نبقى على هذه الحيوانات اللعينة هنا، سأحشو هذا الثقب بقطعة من الخيش قبل أن ننصرف، وفي المرة التالية عند قدومنا سأحضر معي بعض الأسمت وأسده على نحو مضمون.

كانت نوبة الفزع التي انتابت «ونستون» قد أخذت في الزوال. ولشعوره بالخجل من نفسه جلس متكئاً على مقدمة السرير، في حين كانت «جوليا» قد نهضت وارتدت زيتها الرسمي وأعدت القهوة. لم يكن ثمة ما هو ألد مذاقاً من القهوة إلا ذلك الطعم حريري الملمس الذي أكسبها إياه السكر الذي كاد «ونستون» ينساه بعد أن ظلّ لسنوات لا يستعمل إلا السكرين. أمّا «جوليا» فقد أخذت تتجول في الغرفة، ثمّ حملت الثقل الزجاجي إلى السرير لتمعن النظر فيه. ولكنه أخذها من يدها مأخوذاً كالعادة بمنظر الزجاج الناعم الذي يشبه ماء المطر.

فسألته «جوليا»:

- ماذا تظنّ هذا يا ترى؟

- لا أظنّ أنها شيء مهم، أقصد لم يسبق لها أن كانت ذات فائدة في يوم من الأيام. وهذا هو ما أحبه فيها. إنها أثر من الماضي فاتهم أن يمحوه. وأومات «جوليا» صوب الصورة ذات القضبان المحفورة والمعلّقة فوق الحائط قائلةً:

- وماذا عن هذه الصورة؟ هل يمكن أن يكون عُمرها مائة عام مثلاً؟

أجاب «ونستون»:

- أكثر من ذلك، ربما مائتي عام. لكن هذا ما لا يستطيع أحد أن يجزم فيه، فقد بات من المستحيل على المرء أن يُحدّد عُمر أي شيء في هذه الأيام. ودنت «جوليا» من الصورة لتمعن النظر فيها، ثمّ قالت:

- ما هذا المكان، أذكر أنني رأيته قبل ذلك ؟

قال «ونستون» :

- إنها كنيسة أو على الأقل كنيسة القديس سانت كليمنت دان.

وحينئذ كانت أصدااء مقطع الأغنية التي لقنه إياها السيّد «شارنجتون» قد عاد يتردّد في ذاكرته، وأضاف بلهجة مفعمة بالحنين إلى الماضي :

- يرتقال وليمون، تقول أجراس سانت كليمنت ..

ثمّ أكملت «جوليا» المقطع بما يلي :

- إنك مدين لي بثلاث فارذنج، تقول أجراس سانت مارتن، فمتى ستدفعينها؟ تقول أجراس أولد بايلي .. وأضافت تقول :

- لست أذكر ماذا تقول الأغنية بعد ذلك. ولكنني أذكر أنّها تنتهي على النحو الآتي: ها هي شمعة تستضيء بها إلى فراشك، وها هو سيف لحزّ رقبتك.

كان الأمر أشبه بمقطعين تتألف منهما كلمة سرّ، ولكن كان لا بدّ أن يكون ثمة شطر آخر بعد أجراس أولد بايلي ربما يمكن انتزاعه من ذاكرة السيّد «شارنجتون» إذا أمكن تذكيره به على نحو مناسب.

سألها «ونستون» :

- لكن من علمك هذا؟

- إنّه جدّي، لقد اعتاد أن يردّها لي وأنا بعد فتاة صغيرة. لقد تبخر عندما كنت في الثامنة أو اختفى على أي حال. وأضافت بشكل غير متجانس :

- تُرى ماذا كان شكل الليمونة؟ لقد رأيت البرتقال، إنّها فاكهة مستديرة صفراء اللون ذات قشرة سميقة.

قال «ونستون» :

- أنا أستطيع تذكُّر الليمون، لقد كان شائع الانتشار في الخمسينيات وكان شديد الحموضة.

قالت «جوليا» :

- أراهن أنَّ هذه الصورة تأوي بقًا خلفها. سوف أنزلها من مكانها وأنظفها جيدًا في يومٍ من الأيام. أظنُّ أن وقت انصرافنا قد حان. يجب أن أبدأ في إزالة هذه الزينة عن وجهي. ياله من عمل مزعج. وسوف أزيل أحمر الشفاه عن وجهك فيما بعد.

ولم ينهض «ونستون» رغم مرور بضع دقائق أخرى. كان الظلام قد بدأ يسدل ستاره على الغرفة، فاستدار ناحية انبعاث الضوء وراح يُحدق في الثقل الزجاجي. وما كان يُشير لديه دهشة لا تنقطع ليس قطعة المرجان بل لب الزجاج الذي يُحيط بها والذي كان يبدو شفافًا كالهواء رغم عمقه السحيق. وبدأ كما لو أن سطح الزجاج قوس سماويّ يضم عالمًا صغيرًا بكلِّ أجوائه. وانتابه شعور بأنَّه يمكنه أن يدلف إلى هذا العالم، بل إنَّه في الواقع موجود بداخله مع السرير الخشبي والطاولة المطوية والسَّاعة والقضبان المحفورة والثقل الزجاجي ذاته. فالثقل بمثابة الغرفة التي تحتويه وقطعة المرجان هي حياة «جوليا» وحياته وهما مثبتتان بنوعٍ من الروابط الأبدية في قلب البلور ذاته.

النجاة من الجنون

Survive from madness

اختفى «سايم». ففي صباح أحد الأيام تغيب عن عمله، ولم يتساءل عن سبب اختفائه إلا بضعة أشخاص مغفلين. وفي اليوم التالي أصبح طي النسيان ولم يأت على ذكره أحد، وفي اليوم الثالث ذهب «ونستون» إلى قاعة قسم السجلات ليلقي نظرة على لوحة الإعلانات وكانت إحداها تحمل لائحة بأسماء أعضاء لجنة الشطرنج التي كان «سايم» عضواً فيها، وبدت اللائحة كما كانت تبدو من قبل دائماً، إلا أنها نقصت اسماً واحداً. وكان في ذلك دلالة كافية على أن «سايم» لم يعد له وجود، بل لم يكن له وجود من قبل على الإطلاق.

كان الطقس حاراً جداً، وفي الوزارة الأشبه بالمتاهة ومعدومة النوافذ كانت الغرف مكيفة الهواء تحتفظ بدرجة حرارة طبيعية، أمّا في الخارج فكان لهيب الحرارة على الأرصفة يشوي أقدام المارة وكانت الاستعدادات لـ«أسبوع الكراهية» تجري على قدم وساق، وموظفو كافة الوزارات يعملون ساعات إضافية، إذ كان يتعين عليهم تنظيم المواكب والاجتماعات والاستعراضات العسكرية والمحاضرات والتماثيل الشمعية والعروض السينمائية وبرامج «شاشات الرصد»، كما كانوا يعملون على نقش الشعارات وصياغة الأغاني وإطلاق الشائعات وتزييف الصور. ولذلك توقفت وحدة «جوليا» في قسم الخيال عن إنتاج الروايات من أجل الإسراع في إصدار سلسلة من المنشورات التي تصور الأهوال التي يقترفها الأعداء. أمّا «ونستون» فكان يصرف الساعات الطوال كل يوم في مراجعة الأعداد

القديمة من صحيفة «التايمز» وذلك لتغيير أو تحريف فقرات إخبارية كان يتعين الاستشهاد بها فيما سيُلقى من خطابات.

وكان اللحن الجديد لأغنية «أسبوع الكراهية» (وكانوا يطلقون عليها أغنية الكراهية) يث على «شاشات الرصد» دون توقف. لحنٌ كان في عمومهِ أبعد ما يكون عن الموسيقى بسبب ما كان يُميّزه من إيقاع وحشي، كما كان يزرع الذعر في النفوس حينما تزار به مئات الحناجر على وقع أقدام الجند وهي تضرب الأرض. أمّا العامة فقد أغرموا بها. وهكذا أصبحت أمسيات «ونستون» أكثر ازدهامًا بالمهام من أي وقت مضى، كما شكّلت فرق من المتطوعين يقودها «بارصون» كانت مهمتها هي إعداد الشوارع لاستقبال «أسبوع الكراهية»، فيرسمون الصور ويخطون اللافتات وينصبون صواري الأعلام فوق المنازل. وكان «بارصون» يُباهي وهو في أوج نشاطه وسعاده بأنّ بنايات النصر وحدها ستعرض أربعمئة متر من قماش الرايات.

وفجأةً ظهرت ملصقة جديدة في كافة أرجاء لندن، لم تكن تحمل أي كتابات أو تسمية بل كانت تمثل صورة مخيفة لجندي أوراسي يراوح طوله ما بين ثلاثة إلى أربعة أمتار وهو يخطو إلى الأمام بوجه منغولي جامد الملامح متعللاً حذاءً ضخماً ومتأبطاً مدفعاً رشاشاً. ولم يترك مكان خال على جدار في لندن إلّا وعُلقت عليه هذه الملصقة حتى أنّها فاقت صور «الأخ الكبير» عددًا، بل لقد كانت تدفع بالعامة الذين يقفون في العادة موقفًا لا مبالياً من الحرب إلى الانخراط في نوباتٍ من الشعار الوطني. وانسجماً مع هذه الأجواء كانت القذائف الصاروخية تتساقط مُسببةً إزهاق الأرواح بأعدادٍ أكثر من المعتاد، وحدث أن سقطت إحداها على قاعة سينما غاصة برؤّادها في حي «ستيني» فدُفنت مئات الضحايا تحت الأنقاض. كما سقطت قذيفة أخرى على قطعة أرض خربة كان يستخدمها الأطفال كملعب فمزّقت العشرات منهم إلى أشلاءٍ وكانت ثمة مظاهرات ساخطة تجوب الشوارع تُحرق فيها دُمى تمثّل «جولدشتاين» وتُمزق مئات من الملصقات التي تصور

الجندي الأوراسي ويُقذف بها جميعاً لألسنة اللهب، ثم تُنهب المتاجر أثناء أعمال الشغب التي تترافق مع المظاهرات. وسرت شائعة بعدئذ مفادها أنَّ جواسيس كانوا يوجهون هذه القذائف الصاروخية عبر موجات لاسلكية، فقام المتظاهرون بإضرام النيران في أحد المنازل لزوجين عجوزين من أصل أجنبي كانت الشكوك قد ثارت حول ضلوعهما في ذلك فماتا اختناقاً بالدخان.

«جوليا»، و«ونستون» وكلّما تسنى لهما بلوغ الغرفة الكائنة فوق حانوت السيّد «شارنجنون» كانا يضطجعان جنباً إلى جنب فوق السرير المُجرّد من الأغطية تحت النافذة وهما عاريان جراء شدّة الحر. وبالرغم من أنَّ الجردان لم تعاود الظهور فإنّ البق قد تكاثّر على نحوٍ مخيفٍ بسبب الحرارة الشديدة ولكن يبدو أن أيّاً من ذلك لم يكن ينتقص من سعادتهما، فقد كانا يعتبرانها جنة سواء أكانت قدرة أو نظيفة، وكانا بمُجرّد وصولهما إلى الغرفة يطمران كلّ شيء بوابل من الفلفل الذي ابتاعاه من السوق السوداء، ثمّ ينزعان ثيابهما ويمارسان الحبّ معاً والعرق يتصبّب من جسديهما حتى يستغرقا في نوم عميق، فإذا ما أفاقا وجدا البق وقد جمع صفوفه واحتشد لشن هجوم مضادّ.

وقد بلغ مثل هذه اللقاءات خلال شهر يونيو ما بين أربعة إلى سبعة. وفي هذه الأثناء أقلع «ونستون» عن عادة شرب الخمر تماماً وكأنّه لم يعد بحاجةٍ إلى ذلك. كما غدا جسمه أكثر امتلاء ولم تعد دوالي ساقيه ظاهرة عدا بقعة بُنية فوق كاحله، وزالت عنه نوبات السعال التي كانت تتنابه كلّ صباح، كما لم يعد يرى الحياة حملاً ثقيلاً لا يُطاق، أو يشعر بالحاجة الماسة لأن ينظر بغضب نحو «شاشة الرصد» أو يطلق اللعنات بأعلى صوته. والآن وقد أصبح لديهما ملاذ آمن هو بمثابة المنزل لهما، فقد باتا لا يشعران بالضيق من كونهما لا يلتقيان إلّا مرّات قليلة ولا يمكنهما معاً في كلّ مرّة سوى ساعتين. إذ كان ههما منصّباً على أن الغرفة الكائنة فوق الحانوت ينبغي أن تظلّ موجودة، وكان مُجرّد أنّها موجودة ولم تُتْهك حرمتها يشعرهما بالارتياح.

وقد اعتاد «ونستون» أن يتوقف، كلما همَّ بالصعود إلى الغرفة، لدقائق قليلة يتجاذب فيها أطراف الحديث مع السيّد «شارنجتون» الذي كان نادراً ما يُغادر حانوته ولا يأتيه إلا القليل من الزبائن. وكان ذلك العجوز يسر بالحديث مع «ونستون»، وكان في تجواله بين متاعه عديم القيمة، بأنفه الطويل ونظارته الغليظة وكتفيه المقوستين في معطفه المخملي، يبدو كهاوٍ لجمع التحف أكثر منه تاجرًا. كان الحديث معه أشبه بالإصغاء إلى رنين صندوق موسيقي اهترأت أوتاره حيث كان يستحضر من زوايا ذاكرته بعضًا من القصائد المنسية.

كان «ونستون»، و «جوليا» يدركان وبطريقة لا تفارق بالهما، أن دوام حياتهما على هذه الحال أمر مُحال. وكانت تمرّ بهما أوقات يُخيّل إليهما أن موتهما وشيئًا يُحْدق بهما تمامًا كالسرير الذي يرقدان فوقه. وحينذاك كانا يلتصقان أحدهما بالآخر وقد تملكتهما شهوانية يائسة مثل روح هالكة دنت لحظتها وتريد إشباع شهواتها وملذاتها قبل أن تدق ساعة هلاكها. وفي أوقاتٍ أخرى كانا يعيشان شعور أن حالهما هذه ليست آمنة فحسب وإنّما أيضًا ذات ديمومة كما كانا يشعران بأنهما ما داموا في هذه الغرفة فلن يلحقهما أي مكروه. وكثيرًا ما كانا يُسلمان قيادهما لأحلام يقظة تدور حول إمكانية إفلاتهما من موتٍ محتوم، فقد يظلّ الحظ حليفًا لهما إلى أجل غير منظور فيستطيعان مواصلة مؤامراتهما على هذا النحو في البقية الباقية من حياتهما على الأرض، أو قد تموت «كاترين» ويفلحان بمناورةٍ بارعةٍ، في الحصول على إذن بالزواج. أو قد ينتحran معًا أو قد يتواريان عن العيون ويغيران هيتتهما بحيث لا يعرفهما أحد ويعيشان ما بقى لهما في الحياة في شارع خلفي بعيدًا عن العيون. بيد أن كل تلك الأحلام كانت محض هراء ولم يكن ذلك يغيب عن إدراكهما..

وفي أحيانٍ أخرى، كانا يتحدثان عن الانخراط في ثورة حقيقية على سلطان الحزب ولكن دون أن يكون لديهما أدنى تصوّر عن الخطوة الأولى

في ذلك السبيل. وحتى لو كانت حركة «الإخوة» الخرافية، موجودة حقًا، فإنَّ اختراق عالمها يظلُّ عقبة كَأداء. وقد تحدّث «ونستون» إلى «جوليا» عن تلك الألفة الموجودة أو التي يُخيّل إليه أنَّها موجودة، بينه وبين «أوبراين»، وعن ذلك الدافع الذي كان يراوده أحيانًا في أن يلتقي «أوبراين» ويفصح له عمّا يكنُّه من عداوةٍ للحزب ويطلب منه العون في ذلك. ومن الغريب حقًا أنَّ «جوليا» لم تكن تعتبر ذلك عملاً متهورًا يتعذر الإقدام عليه، إذ كانت قد اعتادت أن تحكم على الناس من سيماء أو هيئة وجوهمهم. ولذا بدا لها أنَّ من الطبيعي أن يعتقد «ونستون» بأنَّ «أوبراين» جدير بثقته. وفضلاً عن ذلك فقد كانت تعتقد اعتقادًا راسخًا بأنَّ كُلَّ شخص يضمّر في قريرته نقمة على الحزب، وأنَّه لن يتردّد في خرق القواعد متى أَمِنَ عاقبة ذلك. ولكنَّها رفضت أن تؤمن بأنَّ مُعارضة واسعة النطاق ومنظمة موجودة أو يمكن أن يُكتب لها الوجود. إذ كانت ترى أن ما يتداول من حكايات عن «جولدشتاين» وجيشه السري ما هي إلاَّ خرافات اختلقها الحزب لخدمة أغراضه وعليك أن تتظاهر بأنَّك تؤمن بها. وفي مرّاتٍ لا يُحصى عددها كانت تجد نفسها في تجمّعات الحزب وفي تظاهراته العفوية، تهتف بأعلى صوتها مطالبة بإعدام أشخاص لم تكن قد سمعت بأسمائهم من قبل. وخلال «دقيقتي الكراهية» فكانت دائماً تتنافس مع رفيقاتها في كيل الإهانات وصبّ اللَّعنات على «جولدشتاين» مع أنَّها لم يكن لديها أدنى فكرة عمَّن يكون «جولدشتاين» هذا أو عن معتقداته وما يمثّل.

لقد أدركت الحياة في عهد الثورة، أمّا قبل الثورة فكانت صغيرة ولا يمكنها أن تتذكّر شيئاً عن المعارك الأيديولوجية التي دارت رحاها في الخمسينيات و الستينيات.

وكانت «جوليا» أَحَدَ ذَهْنًا من «ونستون» وأقلَّ تأثراً بدعاية الحزب. فذات مرّة، عندما عرّج في حديثه معها على الحرب ضد «أوراسيا»، هاله قولها بأنَّها تعتقد أنَّه لم يكن هنالك من حروب، وأنَّ القذائف الصاروخية

التي تتساقط يوميًا فوق لندن ربما كانت تطلقها حكومة «أوقيانيا» بنفسها لا لشيء إلا لإبقاء الشعب في حالة من الفزع. وهذه فكرة لم تكن قد خطرت ببال «ونستون» إطلاقًا، كما أنها أثارت في نفسه شيئًا من الحسد عندما أخبرته بأن العقبة الكبرى التي كانت تواجهها خلال «دقيقتي الكراهية» هي تحاشي الضحك عاليًا.

أحيانًا كان يُحدثها عن قسم السجلات وعن التزويرات الوقحة التي تتم. وقد أدّهشها أن معرفتها بمثل هذه الأشياء لم يفزعها، ولم تكن تشعر بالهوة السحيقة والرُّعب عندما علمت أن الأكاذيب هناك تزين بزي الحقائق. وقصّ عليها ما كان من أمر «جونز»، و«آرونسون»، و«رازرفورد» وقصاصة الورق الخطيرة التي حدثت ووقعت بين يديه ذات مرّة، إلا أنها لم تتأثر كثيرًا بذلك، بل ولم تظن في بداية الأمر إلى مغزى ما يورده من شواهد في القصة فسألته:

- هل كانوا أصدقاءك؟

- كلا، فأنا لا أعرفهم أبدًا، لقد كانوا أعضاء في الحزب الداخلي، فضلًا عن أنهم كانوا أكبر مني سنًا. وكانوا من بقايا الأيام الغابرة التي سبقت الثورة، ولا أكاد أميّرهم بالنظر.

- إذا، ما الذي يُقلِّقك؟ فالناس دائمًا يلقون حتفهم ويُقتلون، أليس كذلك؟

حاول أن يجعلها تفهم استثنائية الوضع، وأن الأمر ليس مُجرّد قتل شخص، فسألها:

- هل تعلمين أن الماضي ابتداء من الأمس، قد تمّ محوه محوًا تامًا؟ وحتى إذا كان له أي وجود فقد يكون في أشياء قليلة مصمتة لا كلمات عليها مثل ذلك الثقل الزجاجي. إننا نكاد لا نعرف شيئًا مُحدّدًا من الثورات والسنوات التي سبقتها، فكُلّ السجلات تمّ إتلافها أو تحريفها، وكُلّ كتاب أعيدت كتابته، وكُلّ صورة أعيد رسمها، واسم كل تمثال وشارع وبنية جرى

استبداله، وكلّ تاريخ جرى تحريفه، وما زالت هذه العملية متواصلة يومًا بيوم ودقيقةً بدقيقة. لقد وصلنا إلى نهاية التاريخ، وانفتت صفة الوجود عن كلّ شيء عدا الحاضر الذي لا نهاية له والذي ينطق بأنّ الحزب دائماً على حق. إنني أعلم بالطبع أنّ الماضي مزيف ولكن لن يكون بوسعي إطلاقاً أن آتي بالبرهان على ذلك حتى لو كنت أنا الذي قمت بالتزييف. فبمجرّد الانتهاء من التزييف يجري إحراق كلّ دليل حي. والدليل الوحيد هو ذلك الذي يبقى داخل عقلي ولا أعرف يقيناً إن كان هنالك إنسان آخر يشاركني فيما أحمل في ذاكرتي أم لا. وطوال حياتي لم أعثر على دليل مادي وملموس إلا مرةً واحدة وبعد أن كان الحدث قد مضى عليه سنوات.

- ولكن ما النفع من ذلك؟

- لم يكن ذا نفع، لأنني ألقيت به في المحرقة بعد بضعة دقائق. لكن لو أن ذلك حدث اليوم لكنت احتفظت به.

فقلت «جوليا»:

- أمّا أنا فلم أكن لأحتفظ به! إنني على أتمّ الأهبة للمجازفة ولكن فقط من أجل شيء جدير بهذه المجازفة لا من أجل قصاصة من صحيفة قديمة. ماذا كان باستطاعتك أن تفعل لو أنّك احتفظت بها؟

أجاب قائلاً:

- ربما لم أكن لأفعل الكثير، ولكنه كان دليلاً على أي حال، دليلاً يزرع بعض الشكّ هنا وهناك على افتراض أنّني كنت سأتجرّأ على إطلاع البعض عليه. إنني لا أتخيّل أنّه سيكون بمقدورنا أن نغيّر أي شيء في حياتنا الراهنة، ولكن بوسع المرء أن يتخيّل إمكانية ظهور جيوب صغيرة للمقاومة تظهر هنا وهناك، في شكل جماعات صغيرة من الأفراد يشدّ بعضها أزر بعض، وتأخذ في التكاثر تاركة وراءها ولو بضعة سجلات حتى يتسنى للجيل التالي أن يبدأ من حيث انتهينا.

فقلت:

- إنني لست مهتمة بالجيل التالي يا عزيزي. ما يهمني هو نحن.

فقال لها:

- إنك ثرثرة من خصرك فما دونه وحسب.

رأت في ذلك دُعاة لطيفة منه فعانقته ضاحكة وهي في غاية البهجة.

لم تكن «جوليا» لتعير أدنى اهتمام لعقيدة الحزب. وحالما كان «ونستون» يبدأ الحديث عن مبادئ الاشتراكية الإنجليزية، و«التفكير المزدوج»، وإنكار الواقع الموضوعي، ويأخذ في استخدام كلمات من اللغة الجديدة، كان يبدو عليها الملل والارتباك، وتقول:

- المرء يعلم أنها كُلُّها محض سخافات، أعرف متى يجب الهتاف، ومتى يجب السُّباب، وذلك هو كُلُّ ما يحتاج إليه المرء.

وإذا ما أصر «ونستون» على الحديث عن مثل هذه الموضوعات كانت تستسلم للنوم، فقد كانت من النوع الذي يستطيع أن ينام في أي ساعة وفي أي وضعية. ومن حديثه معها أدرك أنه من السهل أن يتظاهر المرء بالولاء للحزب وهو لا يدرك حتى معنى الولاء.. وبطريقة ما، فرضت نظرة الحزب نفسها على أناس لا يقدرّون حتى على فهمها، فجعلتهم يقبلون انتهاكاته الفاضحة للحقيقة لأنهم لم يستطيعوا أبداً أن يفهموا ذلك، كما أنهم لم يكونوا يبدون القدر الكافي من الاهتمام بما يحدث حتى يمكنهم فهم التزوير لوقائع الحياة. ولقد كان لافتقادهم للفهم فضل في جعلهم بمأمن من الجنون. لقد كانوا ببساطة يتبعون كُلَّ شيء ولم يكن ما يتبعونه ليصيبهم بأي أذى لأنه لا يترك أي رواشب، بل يمرّ كما تمرّ حبة القمح في جوف طائر دون أن يهضمها.

شيء ما سيحدث

Something will happen

وأخيراً حدث ما كان «ونستون» يترقبه، لقد جاءت الرسالة المرتقبة والتي حَيَّلَ إليه أنه أمضى كُلَّ حياته منتظراً مجيئها.

فبينما كان يسير عبر الممرّ الطويل بالوزارة قرب النقطة التي وضعت فيها «جوليا» رسالتها خلسة في يده، شعر بأنَّ شخصاً يفوقه في الحجم يسير وراءه مباشرة. وقد سعل هذا الشخص سعلَةً خافتةً توطئة لبدء حديثه. فما كان من «ونستون» إلَّا أن توقف فجأةً واستدار، فإذا به أمام «أوبراين».

وأخيراً أصبح «ونستون» وجهاً لوجه مع «أوبراين»، وبدأ لـ «ونستون» أنَّ حافزاً جديداً واحداً يُحرِّكه الآن. وأخذ قلبه يخفق خفقاناً شديداً، وانعقد لسانه عن الكلام، ولكن «أوبراين» واصل سيره في الاتجاه نفسه وربت على كتف «ونستون» بلطفٍ حتى يتسنى لهما أن يسيرا جنباً إلى جنب. ثُمَّ استهل كلامه بأسلوب ينم عن وقار واحترام شديدين كانا يُمَيِّزانُه عن غالبية أعضاء الحزب الداخلي.

وقال:

- لقد كنت أتحَيِّنُ فرصة للحديث معك، فقد قرأت بالأمس إحدى مقالاتك باللغة الجديدة في صحيفة التايمز، وبدأ لي أنَّك تولي هذه اللغة اهتماماً علمياً أكاديمياً، أليس كذلك؟

كان «ونستون» قد استعاد بعضاً من رباطة جأشه، فقال:

- لا أستطيع أن أقول إنه اهتمام علمي، فأنا هاوٍ لها فقط، كما أنها ليست موضوع اختصاصي.

فقال «أوبراين»:

- ولكنك تكتبها ببراعةٍ وأسلوب واضح، وهذا ليس رأيي وحدي، فقد كنت أتحدّث مؤخراً مع أحد أصدقائك وهو لا شك من الخبراء لها. ولكن لا تسعفني ذاكرتي باسمه في هذه اللَّحظة..

عاد قلب «ونستون» يخفق بشدّة من جديد، إذ لم يكن ذلك إلا إشارة إلى «سايم»، و«سايم» لم يكن قد مات فحسب، وإنما أمحى وكأنّه لم يكن له وجود. وباتت أي إشارة مُحدّدة إليه تنطوي على خطرٍ شديد. ولذلك ظلّ «ونستون» أن ملاحقة «أوبراين» هي بمثابة إشارة أو شفرة، وكونه يشترك معه في جريمةٍ من جرائم الفكر مهما صغرت، فإنّ ذلك يجعلهما شريكين. وتابعا السير ببطءٍ عبر الممرّ إلى أن توقف «أوبراين» لبرهةٍ، وبحركته المعهودة الغريبة والمفعمة بوُدّ تأتلف له القلوب أعاد تثبيت نظارته فوق عينيه. ثمّ استطرد:

- إنّ ما أردت فعلاً قوله هو أنّني لاحظت أنّك قد استخدمت في مقالك كلمتين بطل استعمالهما، إلا أن ذلك لم يحدث إلا مؤخراً جداً. تُرى هل اطلّعت على الطبعة العاشرة من معجم اللغة الجديدة؟

قال «ونستون»:

- كلا، أظنّ أن هذه الطبعة العاشرة لن تظهر بعد، فنحن ما زلنا نستخدم الطبعة التاسعة في قسم السجلات.

فقال «أوبراين»:

- أعتقد أنَّ الطبعة العاشرة لن تظهر قبل عدة شهور إلا أن بضع نسخ تجريبية قد وزعت ولديّ واحدة منها. ولعله يهملك أن تطلع عليها؟
وعلي الفور أجاب «ونستون» وقد تراءى له أنه أدرك ما يرمي إليه «أوبراين»:

- نعم، يهمني جدًّا.

فقال «أوبراين»:

- إنَّ بعض التحسينات الأخيرة التي أُجريت على اللغة الجديدة تدل على إبداع حقيقي، فتخفيض عدد الأفعال مثلاً هو إحدى النقاط الجديدة التي ستحوِّز إعجابك على ما أظن. هل أرسل لك المعجم مع أحد السُّعاه؟ ولكنني أخشى أن أنسى شيئاً مثل هذا كعادتي. ولعله من الأفضل أن تأتي إلي شقتي في وقتٍ يناسبك لتأخذه. انتظر ريثما أعطيك عنواني..

كانا يقفان أمام إحدى «شاشات الرصد»، وبحركة عفوية تحسس «أوبراين» جيوبه ثمَّ أخرج مفكرة مُبطَّنة بالجلد وقلم حبر مذهَّباً، ووقف أسفل «شاشة الرصد» مباشرة يكتب العنوان في وضعيةٍ تتيح لمن يراقب على الطرف الآخر من الشاشة أن يقرأ ما يكتبه، ثم نزع الورقة التي كتب عليها وسلمها لـ «ونستون». وقال:

- إنَّني في العادة أكون في المنزل مساء. فإن لم تجدني فسيعطيك خادمي المعجم.

ومضى «أوبراين» تاركاً «ونستون» ممسكاً بقصاصة الورق التي لم يكن بحاجة إلى إخفائها هذه المرّة. ومع ذلك فقد حفظ بعناية ما كان مكتوباً فيها. وبعد بضع ساعات ألقى بها في مقبرة ثقب الذاكرة مع مجموعة من الأوراق الأخرى.

استغرق حديثهما دقيقتين على الأكثر، ولم يكن لهذا الحديث غير مغزى واحد محتمل. لقد حاكه «أوبراين» بطريقة تجعل «ونستون» يتعرّف على عنوانه. ولم يكن من ذلك بدّ، فبدون الاستعلام المباشر يستحيل أن يتعرّف المرء على عنوان سُكنى أي شخص آخر.

إذا ما أردت مقابلي، فهذا هو العنوان الذي يمكنك أن تجدني فيه.

كان هذا هو ما قاله «أوبراين»، لـ«ونستون».

وقال «ونستون» في نفسه: «ربما تكون هناك رسالة مخبأة بين صفحات المعجم». ولكن مهما يكن من أمر، هناك شيء واحد بات مؤكّداً، وهو أن المؤامرة التي كان يحلم بها جارية بالفعل وأنّه يقف على أعتابها.

كان يعلم أنّه سيلبي دعوة «أوبراين» إن عاجلاً أو آجلاً، ربما كان ذلك غداً، أو بعد زمن أطول، فذلك ما لم يكن يعرفه على وجه الدقة. لكن الذي حدث في هذا اليوم لم يكن سوى حصاد لعملية بدأها منذ سنوات. فالخطوة الأولى التي خطاها كانت مُجرّد فكرة سرية لا إرادية، وأمّا الثانية فكانت الفكرة وكتابة المذكرات. لقد انتقل من الأفكار إلى الأقوال، والآن ها هو ينتقل من الأقوال إلى الأفعال. وأمّا الخطوة الأخيرة فهي شيء ما سيحدث في وزارة الحب وعليه أن يتقبلها. فالنهاية توجد في طيات البداية، ولكنها نهاية مخيفة أو بعبارة أدق، هي أشبه بتذوق مسبق لطعم الموت قبل أن يجيء، وأشبه بكونك حيّاً ولكن لا معنى لحياتك.

وحتى عندما كان يتحدّث مع «أوبراين» ويفطن لمعاني كلماته كانت تعتريه رعدة يرتجف لها جسمه، ويتتابه إحساس بأنّ قدميه تهويان به نحو رطوبة القبر، ولم يكن هذا الإحساس جديداً عليه لأنّه كان يدرك تماماً أنّ القبر هنالك في انتظاره.

أحلامٌ ممتزجة بالألم والخيبة

Dreams mixed with pain and disappointment

استيقظ «ونستون» وعيناه مغرورقتان بالدموع، وكانت «جوليا» تتقلب بجواره وهي شبه نائمة، وغمغمت بكلماتٍ ربما كانت: «ما الأمر؟». فقال:

- لقد كنت أحلم أن...

ثمَّ انعقد لسانه ولم يكمل القول فقد كان الأمر مُعَقَّدًا إلى حدٍّ تعجز الكلمات عن وصفه. لقد بقى الحلم نفسه والذكرى المرتبطة به عالقين في باله لبضع لحظات عقب استيقاظه.

بقي «ونستون» مضطجعًا، مغمضًا عينيه اللتين كانتا ما زال يُخيم عليهما أجواء الحلم. لقد كان حلمًا ممتدًا صافيًا بدت له حياته كُلُّها فيه وقد انبسط أمامه كمنظرٍ طبيعي لا يحده إلا الأفق على جبلٍ وقد غُسل بماء المطر في عصر يوم صيفي. في الحلم تراءت له حركة ذراع أمه وهي تحتضن أخته الصغيرة، والتي تَكَرَّرَتْ ثانية بعد ثلاثين سنة ولكن من امرأةٍ يهوديةٍ شاهدها في إحدى الفقرات الإخبارية وهي تحاول عبثًا أن تقي صغيرتها من طلاقات الرصاص، قبل أن تنقض عليها الهليكوبتر فتحولُّها إلى أشلاء.

فقال لها:

- هل تعلمين أنني كنت حتى هذه اللحظة أعتقد أنني قتلت أمي؟

فسألته «جوليا» والتُّعاس يغالبها:

- ولماذا قتلتها؟

فأجابها:

- أنا لم أقتلها بالمعنى الحرفي للكلمة.

وكان «ونستون» قد استحضر في الحُلم تلك النظرة الأخيرة التي ألقاها على أمّه، وما هي إلّا لحظات بعد استيقاظه حتى تداعت إلى ذهنه كافة التفاصيل التي اقترنت بالمشهد. إنَّها الذكرى التي حاول عن عمدٍ طوال سنوات أن يدفعها خارج دائرة وعيه، وإن كان لا يذكر متى حدث ذلك على وجه التحديد، فإنَّه يذكر أن عُمره آنذاك لم يكن يقلّ عن عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة.

كان أبوه قد اختفى قبل وقت من وقوع الكارثة. كم من الوقت تحديداً، لا يذكر أيضاً. بيد أنَّه كان يتذكَّر الأجواء المشحونة بالقلق والصخب التي كانت تخيم على تلك الفترة. فقد كان يذكر دوي الغارات الجوية وما يُسبِّبه من نوبات هلع يهرع الناس على أثرها إلى محطات قطارات الأنفاق، ويذكر أكوام الأنقاض التي ملأت كُلّ الأماكن، والإعلانات غير المفهومة والتي كانت تُعلّق في كُلِّ زاوية من زوايا الشوارع، وجماعات الشبيبة ذوي القمصان موحدة اللون، والأصوات المتقطعة لطلقات المدافع الرشاشة وهي تُسمع من بعيد. كما يذكر السَّاعات الطوال التي كان يمضيها مع غيره من الصبية وهم يحومون حول أكوام القمامة بحثاً عن عروق أوراق الكرب وقشور البطاطس، بل وحتى أيضاً يبحثون عن كسر الخبز العفنة.

وعندما اختفى أبوه لم تُظهر أمّه أي أمارَةٍ من أمارات الذهول أو الحزن الفاجع عن اختفائه، لكن ثمة تغييراً فجائياً آخر قد طرأ عليها، إذ بدت وكأن روحها قد أزھقت تماماً. لقد أصبح جلياً حتى لـ «ونستون» آنذاك أنَّها باتت

تنتظر شيئاً تُدرك أنه لا بدّ آتٍ، فقد كانت تقوم بكلّ واجبات المنزل، فتطهو وتغسل الملابس وترتب الفراش وتكنس الغرفة وكانت تؤدي كلّ تلك الواجبات ببطءٍ قاتل وبسأمٍ شديدٍ حتى لكأنّها تمثال يتحرّك من تلقاء ذاته. كانت تمضي السّاعات جالسةً فوق السرير جامدة لا تُحرّك ساكنها اللهمّ إلّا العناية بأخته الصغيرة، التي تبلغ من العُمر سنتين أو ثلاث سنوات، أخته ضئيلة الجسم معتلة الصّحّة ساكنة الحركة. وفي أحيانٍ كثيرةٍ كانت أمُّه تأخذه بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها فترة طويلةٍ دون أن تنبس بكلمة. ورغم صِغر سنه كان «ونستون» يعي أن تصرّفات أمه ترتبط بطريقةٍ ما بذلك الشيء وشيك الحدوث والذي لم تشر إليه أبداً.

وتذكّر «ونستون» إحساسه الدائم بالجوع والمعارك الشرسة التي كانت تندلع كلّما حان وقت الطعام حينما كان يسأل أمّه بلهجةٍ متدمرةٍ عن سبب عدم وجود المزيد من الطعام. كما تذكّر كيف كان يتحايل على أمه ببكاءٍ يستدر العطف والشفقة من أجل الحصول على نصيب أكبر من حقه. وكانت أمُّه مستعدة دائماً لأن تعطيه أكثر من حصّته ومع ذلك فقد كان كلّما أُعطي يطلب المزيد. وكانت أمُّه ترجوه عند كلّ وجبةٍ ألا يكون أنانيّاً وأن يتذكّر أن أخته الصغيرة مريضة وبحاجةٍ إلى الطعام أيضاً.

وذات يوم وزعت عليهم مخصّصاتهم من الشيكولاتة وكان بديهيّاً أن تُقسّم هذه القطعة التي تزن أوقيتين (كانت الأوقية لم تزل مستخدمة في تلك الأيام) إلى ثلاثة أقسام متساوية، فراح «ونستون» يصرخ بأعلى صوته طالباً الاستئثار بقطعة الشيكولاتة كلّها، ولكن أمّه نهرتة. وفي النهاية اقتطعت أمُّه من الشيكولاتة ثلاثة أرباعها وأعطتها لـ«ونستون» فيما أعطت الربع الباقي لأخته. وأمست الطفلة الصغيرة بقطعة الشيكولاتة وراحت تحمق فيها. أمّا «ونستون» فقد راقبها للحظة وبقفزةٍ سريعةٍ ومباغتةٍ انتزع قطعة الشيكولاتة من يدها ولاذ بالفرار.

وصاحت به أُمُّه:

- ونستون، ونستون ارجع! أعد قطعة الشيكولاتة لأختك.

فتوقف «ونستون» عن الركض ولكنه لم يرجع. أمَّا أخته فما كادت تفتن إلى أنَّ شيئًا ما قد سُلب منها حتى انخرطت في ولولةٍ واهنةٍ. فراحت الأمُّ تُحيطها بذراعيها وتضمها إلى صدرها، وكان في هذه الحركة ما يوحي لـ«ونستون» بأنَّ أخته تلفظ أنفاسها الأخيرة، لكنه استدار غير آبه بشيءٍ وولَّى هاربًا.

ولم يُقدِّر له أن يرى أُمُّه ثانيةً، فما إن فرغ من التهام قطعة حتى تملكه شعور بالخزي من نفسه وراح يهيم لساعاتٍ على وجهه في الشوارع حتى إذا شعر بالجوع ينهشه فقل راجعًا إلى البيت. لكنه لم يجد أُمُّه فقد اختفت، وكانت عمليات الاختفاء أمرًا مألوفًا في تلك الآونة. وجد «ونستون» كُلَّ شيءٍ في الغرفة على حاله ما عدا أُمُّه وأخته اللتين لم تأخذا شيئًا من ثيابهما وحتى معطف أُمُّه كان في مكانه. وحتى هذا اليوم لا يعرف على وجه اليقين إن كانت أُمُّه قد لقيت حتفها أم لا. فمن الجائز أن تكون قد أرسلت إلى أحد معسكرات الأشغال الشاقة، أمَّا أخته فربما نُقلت، مثلما حدث معه هو، إلى إحدى مستعمرات الأطفال المشردين التي كان يُطلق عليها «مراكز الإصلاح»، أو لعلها في معسكر الأشغال برفقة أمها، أو تُركت وحيدة في مكانٍ ما لتموت جوعًا وإهمالًا.

كان الحُلم ما يزال حيًّا في ذاكرته، خصوصًا حركة ذراعي أُمِّه الحانية وهي تطوق بهما طفلتها وهي حركة كانت تنطوي على معانٍ كثيرةٍ. وعادت به ذاكرته إلى حُلم آخر كان قد حلم به قبل شهرين، عندما ظهرت له أُمُّه في سفينةٍ تغرق والطفلة تشبث بها، وهو يراها من علوِّ شاطئٍ تغرقان

وتغرقان إلى أعماقٍ سحيقةٍ لكنها ما تزال تنظر إليه بعينين شاخصتين عبر المياه المظلمة.

وروى «ونستون» لـ«جوليا» قصة اختفاء أمه، ودون أن تفتح عينها راحت تتحرّك على الفراش حتى باتت في وضع أكثر راحة، وقالت على نحوٍ غامضٍ:

- أظنك كنت وغداً صغيراً في تلك الأيام، ولا بأس فكلّ الأطفال أوغاد.

فقال لها:

- أجل، ولكن النقطة المهمة في القصة هي ..

لكنه أمسك عن الكلام حينما لاحظ من إيقاع أنفاسها أنها عادت إلى النوم ثانية. وكان يود الاستمرار في حديثه عن أمه. عن كلّ ما يذكره عنها، لم يكن يرى فيها امرأة ذكية، لكنها كانت تتسم بالنبل وتتصف بالطهارة. مشاعرها كانت تنبع من داخلها ولا يمكن لأي قوى خارجية أن تؤثر عليها. وكانت تؤمن بأنّ المرء إذا أحبّ شخصاً فيجب أن يخلص له الحبّ، حتى إذا لم يبق لديه شيء يمنحه إياه، بقي لديه هذا الحبّ، لذلك عندما انتزع «ونستون» قطعة الشيكولاتة من يد أخته احتضنت الأم طفلتها بين ذراعيها لتعوضها عنها حناناً وحُبّاً.

وبالرغم من أن ذلك كان عديم الجدوى ولم يغير من الأمر شيئاً فلم يُعد للطفلة قطعة الشيكولاتة، كما لم يحل دون موتها أو موت الطفلة، إلّا أنّها كانت ترى من الطبيعي أن تقوم بتلك الحركة وتحتضنها. وهكذا فعلت المرأة في مركب اللاجئين، أحاطت بصغيرها بذراعيها رغم علمها أن ذلك لن يحميه من طلقات الرصاص. وربما كان أشنع ما قام به الحزب أنّه كان يحاول إقناع الناس بأنّ مُجرّد الدوافع والمشاعر لم تكن بذات قيمة، وفي الوقت نفسه كان يسعى لأن يُجرّد المرء من كلّ سلطة له على العالم المادي

وحينما كان المرء يقع في قبضة الحزب فإنَّ كُلَّ شيءٍ ما يشعر به أو لا يشعر به، وما يُقدِّم عليه أو يحجِّم عنه يصبح بلا جدوى على الإطلاق. مهما حدث سيختفي ويزول هو وكلُّ ما قام به ولن يسمع بذكره أحد حينما يتم رفعه من مجرى التاريخ. بيد أن الناس قبل جيلين لم يكونوا يولون ذلك اهتماماً، لأنَّهم لم يكونوا يسعون إلى تغيير التاريخ. فقد كانت لهم ولاءات خاصَّة وكانت العلاقات الفردية هي كُلُّ ما يهمهم، فكلُّ حركة مهما كانت عاجزة، مثل: عناق أو دمعة أو كلمة يواسي بها رجل على فراش الموت يمكن أن تنطوي على قيمة كبرى. وفجأةً تنبه إلى أن العامة مازالوا يعيشون على هذه الحال، فولاؤهم ليس لحزب أو دولة أو فكرة وإنما لبعضهم البعض. وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي لا ينظر فيها «نستون» إلى العامة نظرة ازدراء أو يعتبرهم مُجرَّد قوَّة هامدة بل قوَّة يمكنها أن تبعث إلى الحياة في يوم من الأيام فتفتتح في هذا العالم روحاً جديدةً. لقد ظلَّ العامة بشراً ولم تتحجَّر قلوبهم. إنَّهم يتمسكون بعواطف فطريه كان عليه حتى يكتسبها أن يبذل جهوداً كبيرة. وفيما كانت هذه الأفكار تجول بخاطره إذا به يتذكَّر على نحو غير ذي صلة بالموضوع كيف أنَّه رأى منذ بضعة أسابيع يدًا مبتورةً على الرصيف فأزاحها بقدمه كما لو كان عرق ورقة كرب. وقال بصوتٍ عالٍ:

- إنَّ العامة هم البشر، أمَّا نحن فلسنا من البشر في شيءٍ.

وقالت «جوليا» التي استيقظت على صوته:

- ولماذا لسنا ببشرٍ؟

ففكَّر ونستون لبرهةٍ من الزمن ثمَّ أجابها:

- ألم يخطر لك أن خير ما نفعل هو أن نغادر هذه الغرفة قبل فوات الأوان ودون رجعة، وألا يرى أحدنا الآخر بعد اليوم.

فأجابت:

- نعم يا عزيزي، لقد خطر لي ذلك مرَّات عديدة، ولكنني مع ذلك لن أقدم على شيءٍ من هذا القبيل.

فقال:

- لقد كان الحظ حليفنا، لكنه لن يظل هكذا، وأنتِ مازلتِ شابة وتبدين غضة وبريئة، وإذا ما نأيت بنفسكِ عن أمثالي من الناس فقد يُكتب لك أن تعيشي خمسين سنة أخرى.

فقالت:

- لا، لقد قلبت الأمر على كافة أوجهه وقرّر قراري على أنني سأفعل ما ستفعله أنت، فلا تبتئس، أنا أعرف جيداً سبل البقاء على قيد الحياة.

فقال:

- ربما نظلّ معاً لسته أشهر أخرى أو لسنة، لكننا في النهاية سنفترق بكل تأكيد. هل تدريكين كم ستكون الوحدة موحشة؟ فعندما نقع في قبضتهم لن يكون بمقدور أي منا مساعدة الآخر بأي شيء على الإطلاق. وإذا اعترفت أنا فسوف يعدمونك رمياً بالرصاص، وإذا رفضت الاعتراف ستلاقين المصير نفسه وستموتين بالطريقة نفسها. وما من شيء باستطاعتي فعله أو قوله أو الامتناع عن قوله يمكن أن يؤخر موتك ولو خمس دقائق، ولن يكون بمقدور أحدهما أن يعرف على الإطلاق ما إذا كان الآخر حياً أو ميتاً. ولن يعيننا سوى أمر واحد هو ألا يخون أحدهما الآخر رغم أن ذلك لم يُغيّر من الأمر شيئاً.

فقالت «جوليا»:

- إذا كنت تعني الاعتراف فهذا أمر لا مناص لنا منه، فالكل لابد أن يعترف ولا مفر لأحدٍ من ذلك، وإلا ذاق أشد صنوف العذاب.

فقال:

- لم أقصد هذا الاعتراف، فالاعتراف في حد ذاته ليس خيانة، وما يقوله المرء أو يفعله لا أهمية له أبداً، فمشاعره فقط هي التي تهم. فإذا تمكنا من جعلي أكف عن حُبِّي لك فإن هذه هي الخيانة الحقيقية التي أفصدها.

وفكرت «جوليا» في كلامه، ثم قالت بشكل قاطع:

- لا يمكنهم أن يبلغوا ذلك، فذلك هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيعونه، إذ بوسعهم أن يكرهوك على قول أي شيء يريدونه، ولكنهم لا يستطيعون إكراهك على أن تؤمن بما تقول، فليس لهم سلطة ينفذون بها إلى كيانك.

فقال وقد لمح على وجهه شعاع من الأمل:

- لا، ليس لديهم. صحيح تمامًا. إنهم لا يستطيعون النفاذ إلى قلبك. وإذا استطاع المرء أن يشعر بأنَّ بقاءه إنسانًا هو أمر يستحق التضحية من أجله، حتى لو لم يؤدِّ ذلك إلى نتيجة، فإنه يكون قد ألحق بهم الهزيمة.

وفكر «ونستون» في «شاشة الرصد» التي لا تنام لها عين أو تصم لها أذن، فهم يتجسسون عليك ليل نهار ولكنك إذا احتفظت بوعيك يمكنك أن تخدعهم. ورغم كل ما لديهم من مهارات فإنهم لم يتمكنوا من فك رموز السر الذي يفتح لهم نافذة على ما يجول بخاطر الإنسان.

وربما تقلّ مصداقية هذا القول حينما يقع المرء في قبضتهم، فلا أحد يعلم ما الذي يجري داخل أقبية وزارة الحب، وإن ظلّ بوسع المرء أن يتكهن بذلك: صنوف من العذاب، وعقاير هلوسة، وأجهزة دقيقة تحصي عليك ردود فعلك العصبية، وإنهاك تدريجي لقواك بالحرمان من النوم. وفي كل الأحوال لا يمكن إخفاء الحقائق عنهم لأنهم يستطيعون استخلاصها بالتحقيق معك أو انتزاعها منك بالتعذيب. ولكن إذا كان هدفك ليس أن تظلّ على قيد الحياة وإنما تظلّ إنسانًا فإن البون يصبح شاسعًا، فهم لا يستطيعون تبديل مشاعرك. بإمكانهم كشف أدق التفاصيل وفصح كل أقوالك وأفعالك وأفكارك، ولكن يظلّ قلبك المكنون، والذي لا يمكنك أنت نفسك سبر أغواره، حصنًا منيعًا عليهم.

تنظيم الإخوة

Organization of brothers



وأخيراً وقع المحذور.

فقد وجد «ونستون»، و«جوليا» نفسيهما يقفان في غرفةٍ مستطيلةٍ مضاءةٍ بأنوارٍ خفيفةٍ، وكانت «شاشة الرصد» تبث إرسالها بصوتٍ خافتٍ أشبه بالتمتمة، وكانت نعومة السجادة ذات الزُّرقة الداكنة، تُشعر المرء عندما يدوس عليها بأنه إنما يطأ مخملاً، وفي أقصى الغرفة كان «أوبراين» يجلس إلى مكتبٍ منكبّاً على القراءة وفوق رأسه مصباح يلقي عليه ظلاً خضراء، وقد رُصّت على جانبي المكتب مجموعة من الأوراق. وعندما أدخلهما الخادم إلى الغرفة ظلّ «أوبراين» على حاله ولم يكلف نفسه عناء النظر إليهما.

شعر «ونستون» بقلبه يخفق خفقاناً شديداً حتى أنّ شكاً ساوره حول قدرته على الكلام، وانصبّ تفكيره على حقيقة كونه و«جوليا» قد فعلاها أخيراً ووقعا في المحذور.

لقد كان تهوُّراً من كليهما أن يأتيا إلى هذا المكان، إنها حماقة شديدة أن يجيئاً معاً، رغم أنّهما سلكا طريقين متباينين ولم يلتقيا إلا عند باب منزل «أوبراين». ولكن يبقى أنّ مُجرّد ولوجهما مثل هذا المكان يحتاج إلى أعصابٍ فولاذيةٍ. فقد كان من النادر أن يُتاح للمرء الدخول إلى منازل أعضاء الحزب الداخلي أو التجوّل في أحياء سكناهم. وبالرغم من أن «ونستون»

كانت لديه حجة قوية تُبرّر مجيئه إلى هنا، فقد كان شعور بالرُّعب ينتابه مع كُل خطوة يخطوها مخافة أن يبرز له فجأة من وراء حجاب، حارس ذو ثياب سوداء يطلب منه أوراقه قبل أن يأمره بمغادرة المكان، لكن خادماً «أوبراين» لم يعترض سبيلهما وسمح لهما بالدخول. كان رجلاً ضئيل الجسم، أسود الشعر يرتدي سترة بيضاء وله وجه جامد الملامح. تقدمها في ردهة كانت أرضيتها مُغطاة بسجاد وثير وجدرانها موشاة بورق حليبي اللّون وكُل ما فيها رائع النظافة. وكان في ذلك أيضاً ما يزيد الروع في النفس.



«ونستون» في مكتب «أوبراين»

كان «أوبراين» يمسك بقصاصة من الورق بين أصابعه يقرأها بإمعان وقد بدا أن وجهه الضخم الذي انكبّ به على الورقة، حتى ليستطيع المرء أن يرى منه خط الأنف، يشع ذكاء

ورهبة. مضى زهاء عشرين ثانية جلس فيها دون أن يُحرِّك ساكناً، ثم جذب جهاز آلة التسجيل نحوه وأملى رسالة بلغةٍ مختزلةٍ تستخدم في الوزارات:

- تمّ التصديق على البنود: الأول والخامس والسابع. أمّا الاقتراح الوارد في البند السادس فغاية في السخرية ويوشك أن يكون جريمة فكر. يجب رفع عدد الماكينات.. انتهت الرسالة.

ثم نهض عن كرسيه بثقل وتقدّم نحو الضيفين عبر السجادة التي لا يُسمع صوت وقع الأقدام عليها، وبدا أن بعضاً من هيئته الرسمية المهيبة قد زالت عنه عندما انتهى من إملاء رسالته باللغة الجديدة، إلا أن ملامح وجهه كانت متجهمة أكثر من العادة كما لو أن زيارتهما لم تسره. وكان الرُّعب

الذي يشعر به «ونستون» بالفعل قد خالطه ارتباك وحيره، إذ بدا له أن من الجائر تمامًا أنه قد ارتكب خطأ ينم عن حماقة خطيرة، فأى دليل ملموس لديه على أن «أوبراين» متآمر سياسي؟ ليس لديه سوى وميض العينين وملاحظة وحيدة وغامضة، أمّا عدا ذلك فأوهام مبنية على حلم تراه له، كما أنه لا يستطيع اللجوء إلى الادعاء بأنه جاء لاستعارة المعجم لأنه في هذه الحالة سيتعذر عليه تفسير سبب مرافقة «جوليا» له. وعندما مرَّ «أوبراين» بـ «شاشة الرصد» تصرّف وكأنما خطرت له فكرة، فتوقف ثم استدار وضغط زرًا في الحائط، وفي الحال سمعت طقّة حادة وتوقف الصوت الصادر عن الشاشة.

وهنا صدر عن «جوليا» صوت خافت إذ كبتت شهقة ذهول، ولم يكن «ونستون» أقلّ هلعًا ودهشةً، وقد عجز، من شدة دهشته، أن يمسك لسانه عن الكلام. فسأل:

- هل تستطيع إقفال الجهاز؟

فقال «أوبراين»:

نعم يمكنني ذلك، فنحن نتمتع بهذا الامتياز.

وبعدما أوقفت «شاشة الرصد» وخيم جو من الصمت الرهيب على الغرفة، وتناثرت الثواني ثقيلة، وبصعوبةٍ بالغةٍ ظلَّ «ونستون» مثبتًا عينيه على وجه «أوبراين»، بعدئذٍ، وعلى نحوٍ مفاجئٍ انفجرت أسارير «أوبراين»، وبحركته المعهودة قام بإعادة تثبيت نظارته. وقال:

- هل أبدأ بالكلام أم تبدأ أنت؟

فسارع «ونستون» بقوله:

- بل سأبدأ أنا.. لكن قل لي هل أوقفت هذا الجهاز حقًا؟

قال:

- نعم، لقد تمَّ إيقاف كلِّ شيءٍ وها نحن الآن قد أصبحنا وحدنا.

قال «ونستون»:

- لقد جئنا إلى هنا لأننا..

ثمَّ توقف عن الكلام بعدما أدرك وللمرَّة الأولى غموض دوافعه، ولأنَّه لم يكن يعلم حقًّا نوع المساعدة التي يتوقعها من «أوبراين»، فقد كان من العسير عليه أن يُفسِّر سبب قدومه إلى منزله، لكنه مع ذلك راح يكمل ما انقطع من كلامه وهو مدرك أن ما سيقوله كان يبدو زعمًا واهيًا:

- إنَّنا نعتقد بأنَّ مؤامرة ما تُحاك خيوطها، وبأنَّ ثَمَّة نوعًا من التنظيمات السرية تعمل ضدَّ الحزب، وبأنَّك شريك فيها. ونحن نريد الانضمام إليها لأنَّنا نضمّر العداء للحزب ولا نؤمن بمبادئ الاشتراكية الإنجليزية، إنَّنا مجرمو فكر وفاسقون. إنَّني لم أبح لك بهذا إلَّا لأنَّنا نريد أن نضع أنفسنا رهن تصرُّفك، فإذا أردت منا أن نُجرِّم أنفسنا بأي شكلٍ من الأشكال فنحن على أتمَّ استعداد لذلك.

وتوقف «ونستون» عن الكلام ونظر من فوق كتف «أوبراين» حينما أحسَّ بأنَّ الباب قد فُتح، فإذا بخادم ضئيل الجسم، أصفر الوجه يدلف إلى الغرف دون أن يطرق الباب حاملاً صينية عليها قنينة وبعض الكؤوس.

فقال «أوبراين» وهو جامد الملامح:

- إنَّ «مارتن» واحد منا.

ثمَّ راح يوجه كلامه للخادم:

- هات الشراب هنا يا مارتن، وضعه على المائدة المستديرة. هل لدينا ما يكفي من المقاعد؟ إذا، يمكننا أن نجلس معًا ونتحدّث في هدوءٍ، ولتجلب نفسك مقعدًا يا مارتن، فنحن مقبلون على عملٍ الآن، ويمكنك ألاّ تعتبر نفسك خادمًا خلال الدقائق العشر القادمة.

فجلس الخادم «مارتن» مسترخيًا، وإن ظلت مسحة الخادم ملازمة له، إنّها مسحة خادم حظى بامتياز ما. نظر إليه «ونستون» بطرف عينه وهاله أنّ حياة الرّجل برمتها ما هي إلّا دور يؤديه، وأنّه يشعر بخطورة تخليه عن الشخصية التي يتقمّصها ولو للحظة.

أمّا «أوبراين» فأمسك بالقبضة وراح يصبّ في الكؤوس شرابًا حمّره دافئة. تنبعت منه رائحة حمضية حلوة، فيما رأى «جوليا» وقد رفعت كأسها وراحت تشمه باستغرابٍ واضح.

فقال «أوبراين» وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خافتة عندما رأى ذلك:

- يسمونه نبيذًا، لا بدّ أنّكم قرأتما عنه في الكتب. ويؤسفني أن أعضاء الحزب الخارجي لا يحظون بالكثير منه.

ثمّ انطبعت على وجهه ملامح الجذ والمهابة مرّة أخرى ورفع كأسه، وقال:

- أعتقد أنّه من الأنسب أن نبدأ بشرب نخب زعيمنا إيمانويل جولدشتاين.

رفع «ونستون» كأسه متلهفًا، فقد كان النبيذ شيئًا قرأ عنه وحلم به. ولسبب ما كان يحسب دائمًا أنّ للنبيذ طعمًا شديد الحلاوة وأنّ له تأثيرًا مُسكرًا على الفور. لكنه في واقع الأمر حينما رفع الكأس وتجرّع ما فيها أحسّ بخيبة أمل واضحة، فالسنوات التي ظلّ فيها يُعاقَر شراب الجن أفسدت حاسة التذوق

لديه وجعلته لا يكاد يستسيغ شرباً آخر، فوضع الكأس مكانها فارغة، ثم قال:

- إذا، هناك شخص حقيقي اسمه جولدشتاين!

- نعم، هنالك شخص حقيقي، وهو حي يرزق. أمّا عن مكانه، فلا أعلم أين هو.

فسأل «ونستون»:

- وماذا عن المؤامرة المنظّمة؟ أهي حقيقة؟ أم تُراها مُجرّد اختلاق من شرطة الفكر؟

فأجاب «أوبراين»:

- كلا، إنّها موجودة فعلاً ونحن نطلق عليها حركة «الإخوة». لكن لن يتسنى لك أبداً أن تعرف عنها أكثر من كونها موجودة وأنك تنتمي إليها، ولسوف أنظرّق للكلام عن ذلك لاحقاً.

وتطلع إلى ساعته، وأردف قائلاً:

- ليس من الحكمة حتى لأعضاء الحزب الداخلي أن يوقفوا «شاشة الرصد» لأكثر من نصف ساعة. وما كان ينبغي أن تأتيا معاً إلى هنا، وسيتعيّن عليكما أن تنصرفا، كُلٌّ على حدة.

ثم أشار برأسه نحو «جوليا»، وقال:

- أنتِ أيتها الرفيقة ستغادرين أوّلاً، لكن مازال لدينا عشرون دقيقة يمكننا التصرّف فيها كيفما نشاء وسأسألكما بعض الأسئلة: بصفةٍ عامّةٍ ما الذي أنتما على استعداد للقيام به؟

فأجاب «ونستون»:

- إننا على استعدادٍ لعمل كلِّ شيء.

استدار «أوبراين» قليلاً في كرسيه حتى أصبح في مواجهة «ونستون» تماماً متجاهلاً بذلك «جوليا» تقريباً، وكأنَّه أدرك بداهةً أنَّ «ونستون» يمكنه التحدُّث بالنيابة عنها. وللحظةٍ خفق جفنا عينيهِ ثُمَّ أخذ يلقي أسئلته بصوتٍ منخفضٍ تخلو نبراته من أي انفعالٍ وكأنَّ ذلك روتين اعتاده أو نوع من الاستجابات التي يعرف إجاباتها مسبقاً.

- هل أنتما مستعدان لبذل حياتكما؟

- أجل.

- وهل أنتما على استعدادٍ لاقتراف جريمة قتل؟

- أجل.

- وهل أنتما على استعدادٍ للقيام بأعمالٍ تخريبيةٍ قد تؤدي بحياة مئات الأرواح البريئة.

- أجل.

- وهل أنتما على استعدادٍ لخيانة وطنكما لحساب قوى أجنبية؟

- أجل.

- وهل أنتما على استعدادٍ لاقتراف جرائم الغش، والتزيف، والابتزاز، وإفساد عقول الأطفال، وتوزيع العقاقير المُسبِّبة للإدمان، وتشجيع البغاء، ونشر الأمراض الجنسيَّة، والإقدام على كلِّ ما من شأنه أن يحطم معنويات الحزب ويوهن من سلطانه؟

- أجل.

- وإذا افترضنا أنَّ المصلحة تقتضي أن تلقيا بحمض الكبريت على وجه طفل، فهل لديكما الاستعداد لاقتراف مثل ذلك العمل؟

- أجل.

- وهل أنتما مستعدان لأنَّ تتذكرا وتمضيا بقية حياتكما كخادمين أو عاملين في أحواض بناء السفن؟

- أجل.

- وهل أنتما على استعدادٍ للانتحار متى وإذا ما طُلب منكما ذلك؟

- أجل.

- وهل أنتما مستعدان، كلاكما، لأن تنفصلا بحيث لا يرى أحكما الآخر مرّة ثانية وإلى الأبد؟

وهنا صرخت «جوليا» مقاطعةً:

- كلا.

أمّا «ونستون» فقد احتاج إلى وقتٍ أطولٍ ليحجب، بل شعر أنّه فقد القدرة على النطق. ثمَّ قال في النهاية:

- لا.

فقال «أوبراين»:

- لقد أحستما صنيعةً بإخباري ذلك، فمن الضروري لنا أن نعرف كلَّ

شيء.

واستدار ناحية «جوليا»، ثمَّ أضاف بصوتٍ أكثر إيحائيةً:

- هل تعلمين أنه حتى لو كُتب له البقاء حيًّا فإنه قد يصبح شخصًا مختلفًا غير الذي تعرفينه؟ إذ قد نضطر إلى إعطائه شخصية جديدة وذلك بتغيير وجهه وحركاته وشكل يديه ولون شعره بل وحتى صوته. وأنت نفسك ربما تصبحين شخصًا مختلفًا. ففي مقدور جراحينا أن يُغيِّروا الأشخاص حتى ليتعذر معرفتهم، بل وقد نلجأ مضطرين أحيانًا إلى بتر عضو من أعضاء الجسم.

لم يستطع «ونستون» أن يمنع نفسه من النظر بطرف عينيه نظرة خاطفة إلى وجه «مارتن» ذي القسمات المنغولية، والذي لم يكن يحمل أي ندبات ظاهرة، أمَّا «جوليا» فقد ازداد وجهها شحوبًا وظهر ما فيه من نمش، لكنها ظلت ترمق «أوبراين» بنظرةٍ جسورةٍ وتمتت بكلماتٍ فهم منها أنها موافقة. فقال «أوبراين»:

- حسنًا، لقد اتفقنا إذًا.

وكانت فوق المائدة علبة سجائر فضية اللون دفعها «أوبراين» نحوهما وهو شارد الذهن بعدما استل سيجارة لنفسه، ثم نهض من مكانه وأخذ يجول في الغرفة..

تطلع «أوبراين» مرّة ثانية إلى ساعته، ثم قال:

- يحسن بك أن تعود إلى المطبخ يا مارتين، سأعيد تشغيل الشاشة. انظر مليًا إلى وجهي هذين الرقيقين قبل أن تنصرف فسوف تراهما مرّة ثانية، أمّا أنا فربما لن أراهما أبدًا.

ارتعشت عينا «مارتن» الضيقتين وهو يُحدق بوجهيهما، تمامًا مثلما فعل عند استقبالهما لدى الباب، ولم يكن في طريقته هذه أي علامة على الودّ والصدقة، وتنبّه «ونستون» إلى أن وجهًا لئيًا كهذا ربما لا يقدر على تغيير

تعبيراته.. ثمَّ انصرف «مارتن» دون أن ينس بكلمة واحدة، وأوصد الباب خلفه بهدوءٍ.

ثمَّ قال «أوبراين»:

- يجب أن تفهما جيداً أنَّكما ستقاتلان في الظلام، وستظلان دائماً في الظلام. ستلقيان الأوامر وما عليكما إلا السمع والطاعة، وبعد فترة سوف أرسل لكما بكتابٍ يمكنكما من خلاله أن تفهما الطبيعة الحقة للمجتمع الذي نعيش فيه، والإستراتيجية التي نتبناها من أجل تقويض أركانه، وبعد أن تقرأ الكتاب ستصبحان عضوين كاملي العضوية في تنظيم «الإخوة». وما أودَّ تأكيده لكما هو أنَّ حركة «الإخوة» موجودة، لكنني لا أستطيع أن أؤكد لكما ما إذا كانت تضم المئات أو الملايين من الأعضاء. وأمَّا أنتما فمن خلال معلوماتكما الشخصية فلن تُقدِّرا عدده بأكثر من عشرة أعضاء، إذ ستقتصر اتصالاتكما على ثلاثة أعضاء أو أربعة يتغيرون من حين لآخر ثمَّ لا يلبثون أن يختفوا ليحلَّ محلَّهم آخرون. وعندما تتلقيان أوامر فستكون صادرة عني، وإذا ما تبَيَّن لي أنَّ من الضروري الاتصال بكما فسيكون ذلك عبر مارتن. وإذا ما أُلقي القبض عليكما في نهاية الأمر فسوف تعترفان، إذ لن يكون ممكناً تجنُّب ذلك، بيد أنَّ ما ستعترفان به لن يتجاوز أعمالكما التي اقترعتماها، ولن يكون في مقدوركما أن تشيا بأكثر من حفنةٍ من الأشخاص الذين لا قيمة لهم. بل وربما لا تستطيعان حتى أن تشيا بي لأنني وقتذاك ربما أكون في عداد الموتى، ربما أصبح شخصاً آخر بوجه آخر.

كان «أوبراين» قد ترك في نفسيهما انطباعاً يوحى بثقةٍ بالنفس، وإدراكٍ للأمر، مفعم بالسخرية فضلاً عن القوَّة.

ثمَّ قال «أوبراين»:

- لا بدّ أنكما سمعتما شائعات حول حركة «الإخوة» وجودها، ولا شكّ في أنكما رسمتما لها صورة في مخيلتكما على أنّها عالم سريّ هائل، لكن اعلّموا أنّ شيئاً من هذا ليس موجوداً، فأعضاء الحركة ليس لديهم أي وسيلة للتعارف، وحتى جولدشتاين نفسه لو وقع في قبضة شرطة الفكر فلن يكون بمقدوره أن يعطيهم قائمة كاملة بالأعضاء فليس لمثل هذه القائمة وجود، وجماعة «الأخوة» لا يجمع بين أعضائها سوى فكرة تستعصي على التدمير، كما لن تجد تشجيعاً أو مواساةً من أحدٍ. ويتوجب عليكما أن تعتادا على العيش بلا أمل ودون انتظار لجني النتائج لأنكما ستناضلان لحين من الزمن، ثمّ يلقي القبض عليكما فتعترفان وتقادان إلى الموت.

عند هذا الحد توقف «أوبراين» وتطلع إلى ساعته للمرة الثالثة. ثمّ قال مخاطباً «جوليا»:

- لقد حان وقت انصرافكِ أيتها الرفيقة، لكن مهلاً، فما زالت القنينة ملائنة حتى نصفها.

ثمّ أترع الكؤوس ورفع كأسه قائلاً:

- نخب من سنشرب هذه المرأة؟ هل نشرب نخب الفوضى التي ستعم شرطة الفكر؟ أم نخب موت «الأخ الكبير»؟ أم نخب الإنسانية؟ أم نخب المستقبل؟

فقال «ونستون»:

- بل نخب الماضي.

فوافقه «أوبراين» على هذا، قائلاً:

- نعم، إنّ الماضي أهم.

وعندما انتهوا من احتساء كؤوسهم نهضت «جوليا» استعدادًا للانصراف، فأخذ «أوبراين» علبة من أعلى الخزانة وناولها قرصًا أبيض لتضعه في فمها، قائلاً:

- من المهم ألا يخرج المرء ورائحة الخمر تفوح من فمه، فلدى عمال المصاعد قوّة ملاحظة فائقة. وما إن أوصدت الباب خلفها حتى بدا على «أوبراين» وكأنّه نسي أمرها. وعاد يجول في الغرفة ثمّ لم يلبث أن توقف مخاطبًا «ونستون».

- مازالت هنالك بعض التفاصيل التي يجب الاتفاق بشأنها، أعتقد بأنّ لديك مخبأً في مكانٍ ما. أليس كذلك؟

فشرح له «ونستون» كلّ شيء عن غرفته التي استأجرها فوق حانوت السيّد «شارنجتون».

فقال «أوبراين»:

- لا بأس بها حتى حين. وسوف نتدبر لكما مكاناً آخر فيما بعد، ولسوف أرسل لك نسخة من كتاب جولدشتاين حالما يتيسر لي ذلك. هل تحمل حقيبة يد معك عادة في العمل؟

أجاب «ونستون»:

- نعم.. في العادة.

- وما شكلها؟

- سوداء وقديمة جدًّا وذات حزامين.

- حسنًا.. ذات صباح في المستقبل القريب، ستجد بين رسائل عملك الصباحي رسالة تحتوي على أخطاء مطبعية، وعليك أن تطلب إعادة

إرسالها، وفي اليوم التالي سيتعين عليك أن تتوجه إلى عملك دون أن تحمل حقيبتك معك، وفي وقتٍ ما من النهار وأثناء سيرك في الطريق، سيستوقفك رجل وهو يقول:

- أظنّ أنّ حقيبتك سقطت منك وسيعطيك محفظة، تحتوي على نسخة من كتاب جولدمشتاين يتعين عليك قراءتها وردها في غضون أسبوعين..

وساد الصّمت لحظة قبل أن يكسره «أوبراين»، بقوله:

- أمامك دقيقتان ويحين موعد انصرافك، سوف نلتقي ثانيةً إذ قدّر لنا أن نلتقي.

ونظر «ونستون» إليه قائلاً بنبوة تودّد:

- في المكان الذي لا ظلام فيه.

فأوماً «أوبراين» برأسه، وقال كما لو أنّه أدرك ما يُلمّح إليه «ونستون»:

- نعم في المكان الذي لا ظلام فيه.

ثمّ أردف قائلاً:

- والآن هل لديك ما تود قوله قبل انصرافك؟ أي رسالة؟ أي تساؤل؟

فقال بصورةٍ عفويةٍ:

- هل سبق أن تناهى إلى سمعك قصيدة قديمة يقول مطلعها: «تقول

أجراس سانت كليمنت: برتقال وليمون؟

فأوماً «أوبراين» برأسه ثانيةً، وقال بنبوةٍ رزينةٍ مكتملاً المقطع:

- تقول أجراس سانت كليمنت: برتقال وليمون، تقول أجراس سانت مارتن: أنت مدينة لي بثلاث فارذنج. فتقول أجراس أولد بايلي: متى ستدفع لي؟ فتقول أجراس شورديتش: حينما أصبح ثريًا.

فقال «ونستون» متعجبًا:

- إنَّك تعرف البيت الأخير!

- نعم أعرفه. والآن حان وقت انصرافك. ولكن مهلاً حتى أعطيك قرصًا لتزِيل رائحة الخمر.

وعند الباب تطلع «ونستون» وراءه ليلقي نظرة أخيرة، لكن بدا له أن «أوبراين» كان قد وضعه بالفعل خارج دائرة تفكيره، إذ كان «أوبراين» ينتظر انصرافه ويده فوق الزر الذي يتحكم في تشغيل «شاشة الرصد». ونظر «ونستون» وراء «أوبراين» فوجد طاولة الكتابة وفوقها المصباح ذو الظلال الخضراء وآلة التسجيل والأوراق. وانتهى اللقاء.

وخطر لـ «ونستون» أنَّه في غضون ثوان معدودات سيعود «أوبراين» إلى عمله المهم الذي يقوم به لصالح الحزب والذي قطعتَه الزيارة.

* * * *

شاشة الرصد، وشرطة الفكر.. معًا

Screen monitoring and police thought.. together

أصبح «ونستون» أشبه بجسم هلامي جرّاء ما أصابه من كَلَل، ويبدو أنَّ كلمة «هلامي» هي الأبلغ وصفًا لحاله حتى أنَّها خطرت بباله تلقائيًا، بل لقد خُيِّل إليه أنَّ جسمه ليس بضعف الهَلَام⁽¹⁰⁾ فحسب، بل بشفافيته أيضًا، وتملّكه إحساس بأنّه إذا ما رفع راحته أمام عينيه ونظر فيها لأمكنه رؤية الضوء من خلالها لرقتها. كما بدا وكأنَّ كُلَّ ما في عروقه من دماءٍ قد استنزف جرّاء الأعمال الضخمة التي احتملها.

ظَلَّ «ونستون» يعمل لأكثر من تسع عشرة ساعة في اليوم وعلى امتداد خمسة أيام، وكان هذا شأن كُلِّ فرد آخر في الوزارة. والآن تمَّ كُلُّ شيء ولم يعد لديه أي مهام من أي نوع حزبية أو غير حزبية حتى صباح الغد، ومن ثمَّ يمكنه أن يمضي ست ساعات في ملاذه الآمن.

تحت شمس الأصيل مشى «ونستون» على مهلٍ باتجاه حانوت السيّد «شارنجنون»، وكان ينظر حوله بِكَلْتَا عَيْنَيْهِ، عين يتَرَقَّب بها ظهور الدوريات، وعين ينظر بها أمامه رغم أنَّه كان يثق ثقة عمياء في أنَّه لن يتعرَّض لأي خطر في هذا اليوم. وكانت الحقيبة الثقيلة التي يحملها ترتطم بركبته مع كُلِّ خطوة

(10) الهَلَام، هو مادة بروتينية شفّافة تستخرج من الأنسجة الحيوانية المختلفة مثل الجلد والعظم والأربطة، وتكون جامدة عند جفافها ولكنها تتحوّل إلى سائل بالطوبة. (المعد).

يخطوها فُسَّيَّب له أَلَمًا، كانت تضم بداخلها الكتاب الذي أصبح في حوزته منذ ستة أيام ولم يفتحه بعد أو حتى يلقي عليه نظرة.



وفي اليوم السادس من «أسبوع الكراهية» وبعد كُلِّ ما أُقيم من فعالياتٍ، وبعد أن كانت نشوة الكراهية قد بلغت ذروتها والكراهية العامَّة لـ«أوراسيا» بلغت

في أسبوع الكراهية المشاعر متأججة

بالجماهير درجة الغليان، وفي هذه اللَّحظة من الهيجان أُعلن أنَّ «أوقيانيا» لم تكن في حرب مع «أوراسيا» بل كانت في حربٍ مع «إستاسيا»، أمَّا «أوراسيا» فكانت حليفها.

وطبعًا لم يعتبر الحزب أنَّ تغييرًا ما قد حدث، فكلُّ ما هنالك أنَّه تمَّ الإعلان بأنَّ «إستاسيا» لا «أوراسيا» هي العدو. وكان «ونستون» في تلك اللَّحظة التي أُعلن فيها هذا البيان، يُشارك في تظاهرة بإحدى ساحات وسط لندن، وعلى منصةٍ موشاة باللُّون القرمزي وقف عضو من الحزب الداخلي يخطب ويهَيِّج الجماهير، رجلٌ نحيلٌ ذو ذراعين طويلتين لا تتناسب مع جسمه، وجمجمةٌ صلعاء تنتشر فوقها بصورةٌ مبعثرةٍ بضع خصلات هزيلة من الشعر، وقف وهو يقبض على عنق الميكروفون بكفٍّ فيما بكفه الأخرى، يُلوِّح في الهواء مُهدِّدًا ومتوعدًا. كان صوته يبدو رنانًا بفعل المُكَبِّر وهو يدوي مُنذِّدًا بالفظائع، والمذابح، والسلب، والنهب، والاعتصاب، وتعذيب الأسرى، وقصف المدنيين العُزل، وخرق المعاهدات، ولم يكن باستطاعة المرء وهو يصغي إليه إلَّا أن يصدقَه أو يقتنع بكلامه أو يتتابه سعار

من الغضب من هول ما يسمع. كانت الصرخات الغاضبة تتعالى هادرة من آلاف الحناجر، ومن أطفال المدارس كانت تصدر أعلى الصرخات وأكثرها وحشية. كان قد مضى زهاء عشرين دقيقة من الخطاب عندما شُهِد رسول يشق طريقه إلى المنصة ويدس قصاصه من الورق في يد الخطيب الذي قرأها بدوره على الفور. ودون أن يتوقف عن خطابه، فقد وقع تغيير مفاجئ في المسميات وسرعان ما فطنت الجماهير وأدركت حقيقة ما جرى، وهي حقيقة مفادها أن «أوقيانيا» إنما كانت في حرب مع «إستاسيا»! وفي اللحظة التالية ساد المكان حالة من الهرج والمرج بعدما أدركوا أن كل الرايات والملصقات التي زينت بها الساحة كانت خاطئة! وكان نصفها يحمل صوراً مغلوطة وصاح بعضهم بأن عملاء «جولدشتاين» هم الذين يقفون وراء هذا العمل التخريبي! وإثر ذلك ساد جو من الفوضى والشغب حيث نُزعت الملصقات عن الجدران ومزقت الرايات، وبذل الجواسيس جهداً مضنياً لتسلق أسطح المنازل لتمزيق الأعلام التي كانت ترفرف فوق الأسطح متدلية من المداخل. ولكن في غضون دقيقتين أو ثلاث كان كل شيء قد انتهى وراح الخطيب يواصل خطابه.

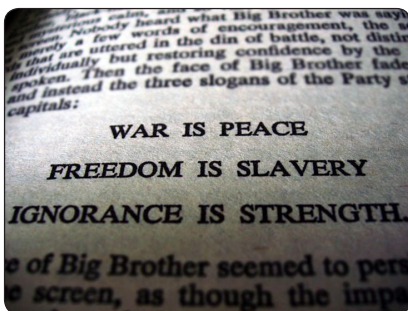
وفي اللحظة التي عمّ فيها الاضطراب وبينما كانت الجماهير تُمزق الملصقات إذ برجل لم ير «ونستون» وجهه يرت على كتفه قائلاً:

ـ عفواً! أظن أن حقيبتك سقطت منك.

فتناول «ونستون» الحقيبة منه وهو شارد الذهن من دون أن ينطق بكلمة. وما إن انتهت التظاهرة حتى عاد رأساً إلى وزارة الحقيقة رغم أن الساعة كانت قد قاربت الحادية عشرة ليلاً، وكذلك فعل جميع موظفي الوزارة امتثالاً للأوامر الصادرة من «شاشة الرصد».

كان السبب الذي استدعي من أجله جميع الموظفين في هذه السّاعة المتأخرة من اللّيل هو أن «أوقيانيا» قد باتت في حرب مع «إستاسيا». وكان ذلك يعني أنّ جزءاً هائلاً من الأدبيات السياسية التي صدرت على مدى خمس سنوات قد أصبحت باطلة ويتعيّن القيام بعملية تنقيح سريعة لكلّ التقارير والسجلات على اختلاف أنواعها. ورغم أنّه لم تصدر أية توجيهات، فقد كان معلوماً أنّ رؤساء الأقسام يعتزمون عدم الإبقاء على أي إشارة إلى الحرب «مع «أوراسيا» أو التحالف مع «إستاسيا» في غضون أسبوع واحد. لقد كانت المهمة جسيمة للغاية، فكان كلّ شخص في قسم السجلات يعمل على مدار ثماني عشرة ساعة في اليوم، ولا ينعم سوى بساعتي نوم أو ثلاث. وقد جيء بالأغطية من الأفيية كما أعدت وجبات سريعة.

وكان «ونستون» قبل كلّ مرّة يذهب فيها لأخذ نوبة نوم يُجاهد من أجل إنهاء العمل المُكدّس فوق مكتبه، لكنه كان في كلّ مرّة يعود مجهد الجسم والعينين ليجد مكتبه وقد تكدّس مرّة أخرى بلفافات الورق التي كانت تُغطي مكتبه، إلّا أن أسوأ ما في الأمر هو أن العمل كان ميكانيكياً محضاً؛ إذ غالباً ما كان يكفي أن تستبدل اسماً باسم آخر، أمّا حينما يتعلّق الأمر بتقارير مفصلة للأحداث فكان يتطلّب عنايةً وخيالاً.



صفحة من كتاب «جولدهشتاين»

و في صبيحة اليوم السّادس انخفض تدفق الأوراق إليه. وكانت حدة العمل قد خفت في كلّ مكان في التوقيت نفسه وتنفس الجميع الصعداء خفية، ولم لا وقد تمّ إنجاز عمل جبار لم يكن أحد يتصوره، وأصبح في حكم المستحيل

على أي إنسان أن يأتي بدليل وثائقي يثبت أن حربًا ما وقعت بين «أوقيانيا» و«أوراسيا». وفي الساعة الثانية عشرة أعلن على نحو مفاجئ أن جميع الموظفين في الوزارة في حلٍّ من أمرهم حتى صباح اليوم التالي.

مضى «ونستون» إلى البيت، فحلق ذقنه وكاد ينام في الحمام رغم أن الماء لم يكن ساخنًا، وقرّر الذهاب إلى المخبأ.

بشيءٍ من المعاناة صعد السلم المؤدي إلى غرفته الكائنة فوق حانوت السيد «شارنجنجتون» وحينما دلف إلى الغرفة أحسَّ بإعياءٍ شديدٍ ولكنه لم يشعر بأية رغبة في النوم وفتح النافذة، وأشعل موقد الزيت ووضع غلاية الماء على النار وراح ينتظر قدوم «جوليا». وفي أثناء ذلك تذكر الكتاب فجلس في مقعدٍ بائس وفك حزامي الحقيقة. أخرج منها مجلدًا أسود ثقیلاً، ملفوفًا بعناية، ولا يحمل اسمًا أو عنوانًا، وبدأت طباعته أيضًا غير عادية. وكانت الصفحات متهرئة عند أطرافها لكن تقلبيها لم يكن يحتاج إلى عناء كما لو أن أيادي كثيرة قد تداولته. وكان عنوان الصفحة الأولى يقول ما يلي:

«حكم الأقلية الطاغية.. نظرية وتطبيقات

بقلم: إيمانويل جولدشتاين».

وراح «ونستون» يقرأ:

الفصل الأول: الجهل هو القوة

وتوقف «ونستون» عن القراءة ريثما يستوعب حقيقة أنه أضحي يقرأ مرتاح البال وآمنًا على نفسه، فليس هنالك «شاشة رصد» مُسلطة عليه ولا أذن تسترق السمع من وراء حجاب.

راح «ونستون» يتصفح الكتاب سريعًا حتى بلغ الفصل الثالث منه فأخذ يقرأ:

الفصل الثالث: الحرب هي السّلام..

إنَّ انقسام العالم إلى ثلاث دول عظمى حدث كان يمكن التكهّن به قبل منتصف القرن العشرين، فمع ابتلاع «روسيا» لـ «أوروبا»، وابتلاع الولايات المتحدة للإمبراطورية البريطانية فإن اثنتين من القوى العظمى الثلاث هما: «أوراسيا»، و«أوقيانيا» قد برزتا فعليًا إلى الوجود. أمّا القوة الثالثة وهي «إستاسيا» فلم تظهر كوحدةٍ مستقلةٍ واضحة المعالم إلا بعد عقد من الزمن يتخلله اقتتال فوضوي.

تتألّف «أوراسيا» من شمال أوروبا وآسيا. أمّا «أوقيانيا» فتضم الأمريكتين وجزء المحيط الأطلنطي بما فيها الجزر البريطانية وأستراليا والجزء الجنوبي من إفريقيا، في حين كانت «إستاسيا» أصغر مساحة من الدولتين الأخريين. وكانت هذه الدول العظمى الثلاث في حالة حرب مستمرة مع تغيّر في التحالفات والعداءات. كانت الحروب ذات أهداف محدودة بين دولتين متحاربتين لا تملك أي منهما القدرة على تدمير غريمتها، وبدون أن تكون بينهما خلافات أيديولوجية حقيقية..

ولكي نفهم طبيعة حروب اليوم، فعلى المرء أن يُقرَّ أولاً بأنّ الحرب لم تعد تحسم أي صّراع، فما من دولة من بين هذه الدول العظمى الثلاث يمكن قهرها تمامًا، فهناك توازن قوي بين ثلاثتهم، فضلًا عن أنّ لكلّ واحدة منها دفاعاتها المنيعّة. كما أنّ لكلّ دولة من هذه الدول العظمى الثلاث الاتساع بحيث يمكن تدبير احتياجاتها من المواد الخام.

وإذا كان لا بدّ للحرب من دوافع اقتصادية مباشرة، فقد أضحي ذلك ينحصر في الصّراع من أجل الحصول على الأيدي العاملة. ولم تستطع أي من هذه القوى فرض سيطرتها على كامل المنطقة المتنازع عليها، إذ تتقاسمها الدول فيما بينها على نحو مستمر. إنّ الهدف الأساس للحرب الحديثة وفقًا لمبادئ «ازدواجية التفكير»، وهو هدف تعترف به الأدمغة

الموجهة في الحزب الداخلي وتنكره في آنٍ واحد هو الإفادة ممّا تنتجه الآلة دون رفع المستوى العام للمعيشة. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ظلّ التخلص من فائض السلع الاستهلاكية يمثل مشكلة كامنة في المجتمعات الصناعية، أمّا في الوقت الحاضر حيث لا ينال إلاّ قلة من الناس كفايتهم من الغذاء. إنّ عالم اليوم متهاوٍ جائع عار مقارنة بعالم ما قبل 1914 بل وتصبح صورته أكثر قتامة إذا ما قورنت بصورة المستقبل التي كانت تصبو إليه الشعوب في تلك الحقبة. ففي مطلع القرن العشرين كانت رؤية كلّ مثقف لمجتمع المستقبل تشيران إلى أنّ العالم سيبلغ مستوى لا يُصدق من الترف والثراء والكفاءة ولكن خابت ظنونهم بسبب حالة الإفقار التي جلبتها على العالم سلسلة طويلة من الحروب والثورات.

إنّ هدف الحرب الأساس هو إنزال الدمار، ليس بالضرورة بحياة الناس بل بنتاج العمل الإنساني، فالحرب هي السبيل لتبديد وإهدار موارد كان من شأنها لو استُخدمت فيما ينفع الجماهير العريضة أن تعود عليهم بالخير والرفاهية، وأن تجعلهم على المدى الطويل أكثر وعيًا وإدراكًا للأُمور من حولهم. وحتى إذا لم يتم تدمير ما أُنتج من أسلحة في حرب فعلية، فإنّ عملية تصنيعها تبقى في حدّ ذاتها طريقة لاستنفاد الجهد البشري دون إنتاج أي شيء يمكن أن يعود بالنفع على الناس، فبناء قلعة عائمة يستلزم عملاً كان يكفي لبناء المئات من سفن الشحن، وفي نهاية المطاف تتم إحالة القلعة إلى التقاعد وتصبح غير صالحة للاستعمال دون أن تعود بأي نفع مادي على الإنسان فيتم تجنيد طاقات هائلة أخرى لبناء قلعة أخرى.

وقد توقف «ونستون» عن القراءة حينما تناهى إلى سمعه دويّ قذيفة صاروخية أشبه بالرعد وقد سقطت من مكانٍ بعيدٍ بيد أنّ شعور «ونستون» البهيج بأنّ الكتاب المحظور بين يديه يؤنس وحدته وفي غرفةٍ لا يوجد فيها «شاشة رصد»، ظلّ كما هو لم يتأثّر. الكتاب نفسه قد خلب لبه، أو بعبارة أدق أعاد إليه الطمأنينة المفقودة، وبالرغم من أنّ الكتاب لم يأت بجديدٍ وهو ما

يُعتبر جزءاً من جاذبيته، فقد قال الكتاب ما كان «ونستون» سيقوله لو تسنى له أن ينظم شتات أفكاره معاً. ولم يكن «ونستون» يعود إلى الفصل الأول حتى تناهى إلى سمعه وقع خطي «جوليا» على درجات السلم فهبّ واقفاً من مقعده لاستقبالها وما إن دلفت إلى الغرفة حتى ألقت بحقيبتها البنية فوق الأرض وألقت بنفسها بين ذراعيه.

وقال «ونستون» بعدما انفكاً من العناق:

- لقد حصلت على الكتاب.

فقالت دون أن تبدي كثيراً من الاهتمام:

- آه، هل حصلت عليه فعلاً؟

ثم جثت على ركبتيها بجانب الموقد لتعد القهوة.

ولم يعودا لموضوع الكتاب إلّا بعد أن أمضيا نصف ساعة في الفراش معاً. كان المساء بارداً ممّا دفعهما لسحب الغطاء عليهما. وتمدّدت «جوليا» على جنبها وبدت على وشك الاستغراق في النوم، أمّا «ونستون» فقد مدّ يده لالتقاط الكتاب الملقى فوق أرض الغرفة، ثمّ جلس متكئاً إلى رأس السرير. وقال:

- يجب أن نقرأه، وأنت أيضاً، بل يجب أن يقرأه جميع أعضاء «الإخوة».

فقالت وهي مغمضة عينيها:

- اقرأه أنت. اقرأ بصوت عالٍ، فهذه أفضل طريقة، ثمّ اشرح لي ما تقرأه.

كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة مساءً، وهكذا كان لا يزال لديهما ثلاث أو أربع ساعات، ولذا فقد وضع الكتاب فوق ركبتيه وراح يقرأ:

الفصل الأول: الجهل هو القوّة..

عبر التاريخ المعروف للإنسان، كانت هنالك ثلاث فئات من البشر في العالم: الطبقة العليا، والوسطى، والدنيا، وقد قسمت هذه الطبقات فيما بينها طبقات أخرى فرعية، وحملت أسماء لا حصر لها.. غير أنَّ التركيبة الأساس للمجتمع ظلت كما هي لم تتغيَّر أبدًا، حتى بعد اندلاع الثورات العارمة..».

التفت «ونستون»، وهو يقول:

- هل أنتِ مستيقظة يا جوليا؟

فأجابت «جوليا»:

- نعم يا حبيبي، إني مصغية لما تقول. استمر، إنَّه رائع.

فعاد إلى القراءة:

«أما أهداف هذه الطبقات فكانت متضاربة ولا يمكن التوفيق بينها على الإطلاق، فهدف الطبقة العليا هو البقاء حيث هي، وهدف الطبقة الوسطى هو الحلول محلَّ الطبقة العليا، أمَّا هدف الطبقة الدنيا، إن كان لها هدف، هو إزالة كُلِّ الفوارق الطبقيَّة..».

ثمَّ نادى «ونستون»:

- جوليا.

فلم تجب.

- جوليا، هل أنتِ مستيقظة؟

ولكنها لم تجب أيضًا؛ لأنَّها قد راحت في نوم عميق، فأغلق الكتاب ثمَّ وضعه بعناية على الأرض، ثمَّ اضطجع ساجدًا الغطاء ليُغطي «جوليا» ويندس إلى جانبها.

لكنه راح يُفكّر في أنّه لم يعرف بعد السرّ النهائي، لقد فهم «كيف»، ولكنه لم يفهم «لماذا». فالفصل الأوّل شأنه شأن الفصل الثالث لم يأت بجديدٍ لم يكن يعرفه من قبل، فكلّ ما فعله هو أنّه رتب له ما كان يعرفه بالفعل.

وكانت صفرة الشمس الغاربة تنسل عبر النافذة وتسقط على الوسادة، فأغمض «ونستون» عينيه، وكان شعاع الشمس على وجهه فضلاً عن جسد الفتاة الناعم الذي يلامس جسده قد ولد إليه إحساساً بالثقة ورغبة في النوم. ولذلك فقد راح في نوم عميق. وحينما استيقظ كان يحس وكأنّه قد نام وقتاً طويلاً، ولكن نظرة واحدة ألّقّاها على السّاعة العتيقة أكّدت له أنّ السّاعة لم تتجاوز الثامنة والنصف بعد. ولذلك نام من جديد ثمّ أفاق على ذاك الغناء المألوف المنبعث من الساحة التي تطل عليها النافذة. استيقظت «جوليا» على صوت الغناء، ثمّ نهضت من الفراش. وقالت:

- إنني جائعة، دعنا نعدّ بعض القهوة. يا للجنة! لقد انطفأ الموقد وبرد الماء.

ورفعت الموقد وهزته، وقالت:

- لقد نفذ منه الزيت. أظنّ أنّه يمكننا الحصول على بعض الزيت من شارنجتون.

ثمّ أضافت قائلةً:

- الشيء المضحك أنّني تأكّدت من أنّه كان ملاّن، سألبس ثيابي، إذ يبدو أن الطقس قد ازداد برودة.

ونهض «ونستون» أيضاً ولبس ثيابه، وكان ذلك الصوت الذي لا يلحق به الكلل والملل يواصل الغناء.

وقال «ونستون»:

- هل تذكرين العصفور الذي كان يغني لنا يوم التقينا عند طرف الغابة؟

فقلت «جوليا»:

- إنه لم يكن يغني لنا بل كان يغني لنفسه، وربما ليس لهذا السبب أيضًا، بل لقد كان يُغني لمجرد الغناء. إنَّ الطيور تغني والعامّة تغني بيد أنَّ الحزب لم يغن. الكلُّ يغني، ومن صلب هؤلاء سيخرج حتمًا جيل واع. فإذا كنا من الأموات، فإنَّ المستقبل لهم.

وقال «ونستون»:

- إننا نحن الأموات.

فردت «جوليا» بصوتٍ كأنه الصدى:

- إننا نحن الأموات.

فقال صوت حديدي ينبعث من خلفهما:

- إنكما أنتما لميتان.

فانتفضا وانفصل واحدهما عن الآخر، وشعر «ونستون» أن الدّم تجمّد في عروقه، ورأى البياض حول حدقتي عيني «جوليا» وشحب وجهها كلّها حتى أن بقايا الأصباغ الحمراء التي على وجنتيها قد برزتا وكأنّهما غير متصلين بالبشرة التي تحتها.

وكرّر الصوت الحديدي:

- إنكما لميتان.

وهمست «جوليا»:

- إنَّ الصوت يأتي من وراء اللوحة.

فقال الصوت:

- أجل، إنه يأتي من وراء اللوحة، اثبتا مكانكما، ولا تتحركا حتى يصدر
لكما أمر آخر، إنها بداية النهاية!

لم يكن باستطاعتهما أن يفعلا شيئاً غير أن يُحدق أحدهما في الآخر، ولم
تخطر ببالهما فكرة أن ينجوا بحياتهما ويغادرا المنزل قبل فوات الأوان، فلا
يُعقل أن يتصورا أن يوسعهما عصيان الصوت الحديدي الصادر من الجدار.
ثمَّ سمعا صوت فرقة تلاه صوت زجاج يتهشم، لقد سقطت اللوحة على
الأرض كاشفة «شاشة الرصد» المخبأة وراءها.

قالت «جوليا»:

- إنهم يروننا الآن.

فقال الصوت:

- إننا نراكما الآن. قفا في منتصف الغرفة وليدر كل منكما ظهره للآخر،
وليضع يديه خلف رأسه ولا يمس أحدكما الآخر.



«ونستون» لحظة اعتقاله

ولم يمس أحدهما الآخر
ومع ذلك ظلَّ «ونستون»
يشعر وكأنَّ جسد «جوليا»
يرتجف، أو ربما كان جسده
هو الذي يرتجف. ثمَّ سمع
وقع أقدام قوية في داخل
المنزل وخارجه، وبدا أنَّ
الساحة قد اكتظت بالرجال

وأنَّ شيئاً ما يتم جره على الأحجار وأعقب ذلك جلبة من الهتافات الغاضبة.
وقال «ونستون»:

- إنَّ البيت محاصر!

وسمع «ونستون»، «جوليا» تضغط على أسنانها، وتقول:

- أعتقد أنه يحسن بنا أن يودع كُلُّ منا الآخر.

فقال الصوت:

- يحسن بكما أن يودع كُلُّ منكما الآخر.

ثُمَّ سمعا صوتًا آخر يختلف تمامًا عن الصوت الحديدي، وكان صوتًا رقيقًا مهذبًا، وبدا لـ «ونستون» أنه سمعه من قبل، وهو يقول:

- وبالمناسبة، وما دنا بصدد هذا الموضوع، فهنا هي شمعة تستنير بها في الطريق إلى الفراش، وهما هي مقصلة تحزّ عنقك.

وسمع «ونستون» صوت شيء يتهشم خلفه ويقع على الفراش، لقد برز رأس سُلَم من النافذة وبدأ أن شخصًا ما تسلقه للدخول عبر النافذة. وارتفع وقع أقدام على درج المنزل ولم تمرّ لحظات حتى أصبحت الغرفة غاصة برجالٍ أشداء يرتدون بزات سوداء، وأحذية ذات نعال حديدية، ويلوحون بهراواتٍ في أيديهم.

ولم يعد «ونستون» يرتجف، بل حتى لم يكن يُحرِّك عينيه، كان الشيء الوحيد الذي يهمه هو أن يحتفظ بسكونه لئلا يعطي أحدهم حجة لضربه! وتوقف قبالة رجل ذو فكٍّ يشبه فكَّ مُصارع، حيث كان فمه كشق مفتوح وراح يلوح بهراوته. والتقت عينا «ونستون» بعيني هذا الرَّجل وكان شعور «ونستون» بالعري، وببيديه المرفوعتين خلف رأسه، وبوجهه وجسده المكشوفين شعورًا لا يحتمل. ولحق الرَّجل شفّتيه بلسانه ثُمَّ سمع صوت فرقة أخرى، لقد تناول أحدهم الثقل الزجاجي من فوق المنضدة ثُمَّ ألقى به فوق حاجر المدفأة فتهشم.

وتدحرجت قطعة المرجان على الأرض، وكانت ضئيلة جدًا. بعدئذٍ سمع شهقة وخبطة خلفه، ثُمَّ وعلى الفور تلقّى ضربة عنيفة على كاحله كادت تفقده توازنه بينما كان رجل آخر يلکم «جوليا» في بطنها فارتمت على الأرض وهي تلهث محاولة أن تستنشق الهواء. لكن «ونستون» لم يجسر على

الالتفات قيد أنملة، وإن كان وجهها المزرق الشاحب واللاهث يأتي أحياناً في نطاق رؤيته. بعدئذ انكبَّ رجلان على «جوليا» ثم رفعها من ركبتيها وكتفيها وحملها خارج الغرفة كأنها كيس من الخيش. أمّا «ونستون» فقد بقى واقفاً ولم يكن قد ضربه أحد بعد. لكنَّ ثمة أفكاراً أخرى كانت تنبعث بسرعة في خاطره، فتساءل عما إذا قد ألقوا القبض على السيّد «شارنجتون»، ودهش لإحساسه بالحاجة الماسة إلى التبول مع أنه لم يكن قد انقضى غير ساعتين أو ثلاثة على تبوّله آخر مرة.



وبعدئذ سمع «ونستون» وقع خطى أخف على الأرض، كان السيّد «شارنجتون» وقد دلف إلى الغرفة، وللتو بدت علامات الخضوع على وجوه الرّجال ذوي الزى الأسود، كما أنّ ثمة تغييراً قد طرأ على هيئة السيّد «شارنجتون» الذي وقعت عيناه على شظايا الثقل الزجاجي، فقال بحِدّة:

- اجمعوا هذه الشظايا.

وانحنى أحد الرّجال منفذاً الأمر. وكانت لهجة أحياء لندن الفقيرة قد اختفت لديه، وفي الحال أدرك «ونستون» مَنْ هو صاحب الصوت الذي كان يصدر عن الشاشة منذ دقائق. كان السيّد «شارنجتون» لا يزال يرتدي معطفه المخملي العتيق ولكن شعره الأبيض كان قد صار أسود، كما لم يكن يرتد نظارته. وحدهج «ونستون» بنظرة حادة كما لو أنه يتحقّق من هويته، فقد غدا منتصب القامة، وبدا أنّ جسمه قد أصبح أكثر امتلاء. أمّا وجهه فلم تطرأ عليه غير تغييرات طفيفة لكنها مع ذلك غيّرت ملامحه تغييراً كاملاً، فقد بدا حاجباه أقل كثافة، واختفت التجاعيد من وجهه. لقد تغيّرت كلّ تقاسيم وجهه بل حتى أنفه قد بدا أقصر ممّا كان عليه. إنّه وجه بارد يوحى بأن صاحبه لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من العُمُر، وسرعان ما تنبه «ونستون» أنّه ولأوّل مرّة في حياته يرى رأى العين عنصراً من عناصر «شرطة الفكر»!

الجزء الثالث

1984

الخدعة، والطريق إلى المجهول

The trick and the way to the unknown

لم يكن «ونستون» يدري أين هو! كان يفترض أنه في وزارة الحب، لكن كيف السبيل للتحقق من ذلك.

كان قابعًا في زنزانية عالية السقف لا نوافذ لها، وكانت جدرانها مغطاة بالخزف الأبيض اللامع، وكانت هناك مصابيح مخفية تغمرها بفيض من الضوء الباهر، كما كان هناك طنين مستمر ظل «ونستون» أن له علاقة بفتحات التهوية في الزنزانية. وبمحاذاة جدران الزنزانية امتد مقعد خشبي مستطيل لا يتسع عرضه للجلوس عليه إلا بصعوبة، وفي الجانب المقابل للباب كان هنالك مرحاض بلا كرسي يستعمل لقضاء الحاجة، وفي كل جدار من جدران الزنزانية الأربعة ثبتت «شاشة رصد».

وكان «ونستون» يشعر بألم مبرح ومتواصل في بطنه رافقه منذ أن اقتادوه وقذفوا به في الشاحنة المغلقة التي نقلته. ولكنه كان يشعر أيضًا بجوع قارص وشديد.

جلس «ونستون» فوق المقعد لا يُحرك ساكنًا وقد عقد ذراعيه حول ركبتيه، وكان قد تعلّم أن يجلس بلا حراك. واشتدت وطأة الجوع عليه، ومع ذلك لم يشته أكثر من كسرة خبز تذكر أن لديه بعضًا منها في جيب معطفه. وبعد طول تردد، تغلب إحساسه بالجوع على خوفه قدس يده في جيبه. ولم يكن يفعل حتى استوقفه صوت صارخ من «شاشة الرصد»:

- سميث! سميث ونستون رقم 6079 ، أخرج يديك من جيبيك هذا غير مسموح به في الزنزانة.

فعاد إلى سكونه الذي كان عليه. وتذكّر كيف أنّهم قبل أن يجيئوا به إلى هنا قد ذهبوا به إلى مكانٍ آخر يُرجح أنّه سجن عادي أو مركز توقيف، لكنه لم يستطع أن يعرف كم من الوقت أمضى هناك، كان مكانًا صاخبًا تتصاعد منه روائح كريهة. كانت زنزانه أشبه بتلك التي يقبع فيها الآن وإن كانت أشدّ قذارة وتكتظ بسجناء أغلبهم من المجرمين العاديين وقليلهم من السجناء السياسيين. ولاحظ أنّ تصرّفات السجناء من أعضاء الحزب تتسم بالخوف والرّعب، أمّا المجرمون العاديون فكانوا لا يبالون ولا يأبهون بأحدٍ حتى أنّهم كانوا يكيلون السُّباب للحراس، ويكتبون الكلمات البذيئة على الأرض، بل و كانوا يصرخون في وجه «شاشة الرصد» حينما توجه إليهم عبرها الأوامر بالالتزام الهدوء. من جهةٍ أخرى كان بعضهم يبدو وكأنّه على علاقة تفاهم مع الحراس فينادونهم بأسمائهم رافعين الكلفة فيما بينهم ويحصلون على السجائر، كما كان الحراس يعاملونهم بشيءٍ من الصبر والأناة.

ورأى «ونستون» أنّ سجناء من شتى الألوان ينفدون إلى السجن أو يخرجون منه في حركةٍ لا تتوقف فمنهم تجار المخدرات، واللصوص، وتجار السوق السوداء، ومدمنو الخمر، والعاهرات.

ويذكر أنّ أربعة حراس قد جاءوا بامرأةٍ ضخمة الجسم يناهز عُمرها الستين، وذات شعر أشيب، ونهدين كبيرين وكانت تقاومهم بعنفٍ، وفي النهاية جردوها من حذائها الذي كانت تركلهم به ثمّ دفعوها بعنفٍ فسقطت فوق حجرٍ «ونستون» وكادت تكسر عظامه، لكنها نهضت واندفعت نحو باب الزنزانه وهي تلعن الحراس، وحينما انتهت إلى أنّها كانت تجلس على شيءٍ غير مستو انزلقت عن ركة «ونستون» إلى المقعد قائلةً:

- معذرة يا عزيزي، ما كان يجب أن أجلس فوق ركبتك، ولكن هؤلاء الأوغاد هم الذين دفعوني.

ثمَّ ضربت بيدها على صدرها وهي تقول:

- معذرة، فلست في حالةٍ طبيعيةٍ.

وانحنى إلى الأمام وتقيأت على الأرض. وبعد ذلك أسندت ظهرها إلى الحائط مغمضة عينيها، وقالت:

- هذا أفضل، إياك أن تبقى في معدتك.

وحينما هدأت قليلاً، التفتت لتلقي نظرة أخرى على «ونستون»، فمالت إليه وهي تُحيط كتفيه بذراعها وجذبتة نحوها وهي تنفث في وجهه بأنفاس مشبعة برائحة الجعة وحموضة القيء، وسألته:

- ما اسمك عزيزي؟

فأجاب:

- سميث.

فقالت:

- سميث؟ هذا أمر عجيب. إنَّ اسمي سميث أيضاً.

ثمَّ أضافت بنبرةٍ حانيةٍ:

- ربما كنت أُمك.

وجال بخاطر «ونستون» أنّه من المحتمل فعلاً أن تكون أُمّه، فقد كانت في مثل عُمرها وجسمها، وإن كان من الوارد أن بعض التغيير طرأ عليها بعد عشرين سنة أمضتها في معسكر الأشغال الشاقة.

كان المجرمون العاديون يتجاهلون السجناء السياسيين تجاهلاً يثير الدهشة، بل وينظرون إليهم نظرة ازدراء. أمّا السجناء السياسيون فكانوا دائمي الصمت، فهم يخشون الكلام مع أي من المجرمين العاديين كما أنّهم أشدّ خشية من الكلام بعضهم مع بعض. ولم يحدث سوى مرّة واحدة أن استرق السمع لحديث هامس دار بين سجينتين من سجينات الحزب ولم يفهم منه سوى أنّه كان يدور حول ما يُدعى بالغرفة 101 لكنه لم يدرك المغزى.

مرّت بـ «ونستون» لحظات كان يترأى له خلالها المصير الذي ينتظره، فقد كان يتخيّل وطأة الهراوات وهي تحطم مرفقيه، والأحذية ذات النعال الحديدية وهي تهشم ساقيه. وكلما كانت ترد «جوليا» على خاطره؛ لأنّه كان لا يستطيع أن يركّز تفكيره عليها. نعم أحبّها ولن يخونها، ولكن هذا الحبّ كان مُجرّد حقيقة يعرفها معرفته لمبادئ الرياضيات، ولذلك لم يعد الآن يجد أثرًا لأي حبّ نحوها، بل لم يعد حتى يشغل باله بما عساه أن يكون قد ألّم بها. ولكن «أوبراين» كان هو الذي يخطر بباله كثيرًا فيعيد إليه بصيصًا من الأمل فيقول لنفسه، لا بدّ أنّ «أوبراين» قد علم بأمر اعتقاله، لكنه تذكر أنّ حركة «الإخوة» لا تحاول إنقاذ أعضائها أبدًا، إلّا أنّه تبقى أمامهم دائمًا شفرة الحلاقة التي يمكنهم أن يهربوها إليه ليضع بها حدًا لآلامه.

وكان ينصرف أحيانًا إلى إحصاء عدد بلاطات الخزف الأبيض على جدران الزنزانة، ومع أنّ الأمر كان يبدو هينًا فإنّه لم يوفق إلى ذلك. وكثيرًا ما كان يتساءل عن مكان وجوده وعن الوقت أهو ليل أم نهار.

سمع «ونستون» وقع أقدام خارج الزنزانة، بعدئذ فُتح الباب الفولاذي مُحدثًا صريرًا عاليًا ودخل منه ضابط شاب يرتدي بزة سوداء يلمع جلدها المصقول، وكان ذا وجه شاحب يشبه قناعًا من الشمع وما إن دخل الزنزانة

حتى أشار إلى الحرس أن يدخلوا السجن الذي كانوا يقتادونه والذي لم يكن غير الشاعر «أمبلفورث». أدخلوه الزنازة وهو يجرجر قدميه ثم غادروا وأغلقوا الباب خلفهم.

راح «أمبلفورث» يتحرّك داخل الزنازة من طرفٍ إلى طرفٍ كما لو أنّه يبحث عن باب للخروج، وبعدئذ أخذ يزرع الزنازة جيئةً وذهاباً، ولم يكن قد انتبه إلى وجود «ونستون» بعد، رغم أن عينيه الزائعتين كانتا تحدقان في الجدار الذي يتكئ إليه «ونستون». كان «أمبلفورث» حافي القدمين وكانت أصابع رجله الكبيرة القذرة تبرز من ثقب جوربه المهترئ ولحيته الكثّة تغطي وجهه حتى عظم وجنتيه مضمّية عليه هيئة وحشية كانت تتلاءم على نحوٍ غريب مع هيكله الضخم وحركاته العصبيّة.

حرّك «ونستون» نفسه من سباته عازماً على الحديث مع «أمبلفورث» مهما كانت العواقب، فربما كان هو من يحمل شفرة الحلاقة إليه.

فناداه:

- أمبلفورث.

لم يصدر أي صوت عن «شاشة الرصد»، في حين توقف «أمبلفورث» وقد جفل جفلةً خفيفةً، ثم ركز عينيه على «ونستون»، وقال:

- آه! ونستون! أنت هنا أيضاً؟

- لماذا جيء بك إلى هنا؟

- الحق أقول لك..

قال ذلك وهو يجلس قَلْباً على المقعد قبالة «ونستون»:

- إنّه جرم واحد لا غير.

- لكن هل اقترفته فعلاً؟

- يبدو لي أنّي فعلت ذلك.

وفرك «أمبلفورث» جيبه بيده وضغط عليها للحظة كأنّما يحاول أن يتذكّر شيئاً ما. ثمّ قال على نحو غامض:

- إنّ مثل هذه الأشياء ممكنة الحدوث، فيمكنني أن أُحدّد لك حادثاً لعله هو السبب في مجيئي إلى هنا، إنّّه ولا ريب حماقة من جانبي، فقد كنا نعمل في إنتاج طبعة من قصائد كبلنج وأُقيت على كلمة الله في نهاية أحد الأبيات وكان لابدّ من الإبقاء عليها لملاءمة القافية.

وأضاف وقد علت علامات السخط على وجهه:

- لقد كان من المستحيل تغيير البيت الشعري وقد حاولت على مدى أيام التفكير في بديل ولكن دون جدوى.

ثمّ قال:

- هل خطر ببالك أن تاريخ الشعر الإنجليزي كان محكوماً بحقيقة أنّ اللغة الإنجليزية فقيرة في الأوزان؟

ولم يكن ذلك السؤال قد خطر ببال «ونستون» مطلقاً، فضلاً عن أن منّ في مثل ظروفه لا يابه أو يهتم بذلك.

فسأله «ونستون»:

- هل تعرف في أي وقت من اليوم نحن الآن؟

وبدا أنّ «أمبلفورث» جفل ثانية، وقال:

- فلما فُكِّرت في ذلك، إنني حتى لا أذكر منذ كم يوم ألقى القبض عليّ؟ منذ يومين أم ثلاثة؟ وراح يقلب عينيه في جوانب الغرفة كمن يأمل أن يجد نافذة، ثُمَّ أَصاف:

- في هذا المكان لا فرق بين الليل والنهار ولست أدري كيف يمكن للمرء أن يُقدِّر الزمن فيه؟

واستمر حديثهما الهائم بضع دقائق، ثُمَّ ومن دون سبب واضح صدر صوت عن «شاشة الرصد» يأمرهم بالتزام الصَّمت، ومَرَّ وقت وهما صامتان، ثُمَّ سمعا ثانية وقع أقدام خارج الزنزانة، فتجمَّد الدَّم في عروق «ونستون» وجال بخاطره أن وقع الأقدام تعني أن دوره قد حان، ربما حالًا وربما خلال دقائق.

وفُتح الباب ليدخل منه الضابط الشاب ذو الوجه المتجهَّم، وبحركة خاطفة من يده للحراس وهو يشير إلي «أمبلفورث» قائلاً:

- الغرفة 101.

نهض «أمبلفورث» ومشى مهرولاً بين يدي الحراس وقد بدا وجهه مضطرباً رغم أنَّه لم يفهم ماذا يراد به.

ثُمَّ مضى وقت بدا لـ «ونستون» طويلاً، وراحت أفكاره تدور في حلقةٍ مفرغةٍ، إذ لم يكن يُفكِّر في ستة أمور، هي: ألم معدته، وكسرة الخبز التي في جيبه، والدَّم والصراخ، و«أوبراين»، و«جوليا»، وشفرة الحلاقة. ثُمَّ اعترته نوبة تشنُّج جديدة في أحشائه لدى سماعه وقع أقدام الحراس وهم يقتربون نحو الزنزانة. وما إن فُتح الباب حتى هبت موجة باردة من العرق كانت تتقدَّم «بارصون» الذي أدخله الحراس إلى الزنزانة والذي كان مرتدياً قميصاً رياضياً وسروالاً قصيراً.

وهنا جفل «ونستون» حتى أنه نسي نفسه، وقال مشدوهاً:

- حتى أنت هنا؟

ورمق «بارصون»، «ونستون» بنظرةٍ خلت من أي اهتمام أو دهشة لكنها كانت مفعمة بالبؤس، وراح يزرع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطى غير منتظمة وبصورةٍ توحى بأن زمام نفسه قد أفلت منه، وكان كلما حاول مدّ ساقيه القصيرتين أصابتهما رعشة، وعيناه كانتا جاحظتين تنظران باندھاشٍ وكأنَّهما تحدقان في شيءٍ بعيدٍ.

فسأله «ونستون»:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

فأجاب «بارصون» منتحباً:

- جريمة فكر.

كانت نبذة صوته توحى بإقرار كامل منه باقتراح الجريمة. ثم وقف قبالة «ونستون» وكأنَّما يحتكم إليه، فقال:

- أتظنَّ أنَّهم سيعدمونني رمياً بالرصاص؟ إنَّهم لا يرمون المرء بالرصاص إذا لم يقترب إنَّما ملموساً، أمَّا مُجرَّد الأفكار فهذا ما لا سلطة للمرء عليه، أليس كذلك؟ أعلم أنَّهم يمنحون المرء فرصة كافية للإدلاء بأقواله، إنَّني أثق بهم فيما يخص ذلك، إنَّهم يعرفون سجلي، أليس كذلك؟ لعلك تعرف أي نوع من الرِّجال كنت، لم أكن رجلاً سيئاً، بأي شكل، صحيح أنَّني لم أكن متقد الذكاء ولكنني كنت متحمساً وبذلت كلَّ ما في وسعي لخدمة الحزب، أليس كذلك؟ ألا تظنَّ أنَّني سأفلت من عقوبة الموت وأنال خمس أو حتى عشر سنوات أمضيها في معسكرٍ من المعسكرات؟ إنَّ مَنْ هو مثلي

يمكنه أن يؤدي أعمالاً مفيدة، في معسكرات الأشغال الشاقة، إنني لا أظنهم سيعدمونني رمياً بالرصاص لخروجي عن الطريق القويم مرة واحدة.

وسأله «ونستون»:

- هل أنت مذنّب؟

فأجابه «بارصون» باكيًا وهو ينظر إلى «شاشة الرصد» نظرة خنوع:

- بالطبع، إنني مذنّب. وهل تظن أن الحزب يمكن أن يعتقل شخصاً بريئاً؟

وهنا بدا وجهه أكثر هدوءاً، بل وارتسمت عليه علامات الاستقامة الزائفة، ثم استطرد قائلاً وعلامات التأثير بادية عليه:

- إن جريمة الفكر جريمة فظيعة، إنها جريمة غادرة، تلبسك دون أن تتبّه. أتدري كيف تلبستني؟ أثناء نومي! نعم أثناء نومي. لقد كنت أؤدي عملي بنشاط ولم يخطر ببالي ألّبتة أنّ مثل هذه الأفكار السوداء تختبئ في عقلي الباطن. ثم بدأت بعد ذلك أتكلّم وأنا نائم. أو تدري ماذا سمعوني أقول؟

وخفّض صوته كشخص مضطّر لدواعٍ طيبة أن يتلفظ بكلماتٍ بذيئة:

- لقد سمعوني أقول: ليسقط «الأخ الكبير»، نعم هذا هو ما قلته. ويبدو أنّني أخذت في ترديده المرة تلو الأخرى ولا أخفي عليك أنّني مسرور من أنّهم قبضوا عليّ قبل أن أذهب لأبعد من ذلك. هل تعلم ماذا أنوي قوله حينما أمثل بين يدي المحكمة؟ سأقول لهم شكرًا، شكرًا لأنكم أنقذتموني قبل فوات الأوان.

فسأله «ونستون»:

- لكن من الذي وشي بك؟

فأجاب «بارصون» بنبرة حزينة مفعمة بالفخر:

- إنها ابنتي الصغيرة. لقد كانت تسترق السمع من ثقب الباب وسمعت ما كنت أهذي به، وفي اليوم التالي بادرت لإبلاغ الدورية. إنها طفلة متقدمة الذكاء، رغم أنها لم تتجاوز السابعة. إنني لا أكن لها أي ضغينة جرّاء ذلك، بل على العكس، إنني فخور بها لأن ذلك يعني أنني قد ربيتها تربيةً قويمَةً وغرست فيها روح الولاء.

ثمّ ذهب «بارصون»، فكثير من السجناء يجيئون ويذهبون دون أن يعلم أحد بما آل إليه مصيرهم.

وفُتح باب الزنزانة مرّةً أخرى ليزج بسجين آخر إلى الزنزانة. وكانت هيئته تقشعر لها الأبدان. كان رجلاً ذا هيئة مزرية ولعله كان مهندساً أو فنيّاً، لكن الشيء الذي راع «ونستون» منه هو وجهه الناحل الذي كان أشبه بالجمجمة، كما كانت نظراته تنطوي على غدرٍ وكرهيةٍ متأججة يطمرها للشخص أو شيءٍ ما. جلس الرّجل فوق المقعد على مقربةٍ من «ونستون»، لكن «ونستون» لم يتطلع إلى وجهه ثانيةً. وفجأةً أدرك «ونستون» السرّ وراء هذا النحول، لقد كان الرّجل يتضوّر جوعاً. ويبدو أنّ جميع سجناء الزنزانة قد فطنوا إلى ذلك في الوقت نفسه. وبدأت علامات التملل على كلّ الجالسین فوق المقعد الخشبي، وظلّ الرّجل ذو الذقن الجرداء يُحملك في صاحب الوجه الأشبه بالجمجمة ثمّ لا يلبث أن يجفل مبتعداً عنه ثمّ يقترب منه ثانيةً تحت تأثير جاذبية لا تقاوم، ثمّ يبتعد عنه مرّةً أخرى وقد تلبسه شعور بالذنب ولذلك فقد راح يتملّل في جلسته، وأخيراً هبّ واقفاً وراح يمشي داخل الزنزانة بخُطى مضطربة، ودس يده في جيبه ليخرج كسرة خبز قدّمها على الفور إلى الرّجل ذي الوجه الأشبه بالجمجمة وعلامات الارتباك واضحة عليه. وعلى الفور انطلق زئير غاضب من «شاشة الرصد» يصمّ الأذان فقفز الرّجل ذو الذقن

الجرءاء عائداً إلى مكانه في حين كان الرجل ذو الوجه الأشبه بالجمجمة قد سحب يده وراء ظهره وكأنه يُريد أن يرى العالم كُلَّهُ أنه رفض الهدية.
فزار الصوت:

- بامستيد! بامستيد رقم 2713 دَغ كسرة الخبز تسقط على الأرض.

فأذعن الرَّجل للأمر وترك كسرة الخبز تسقط على الأرض.

وصاح الصوت من الشاشة ثانية:

- اثبت مكانك وانظر حول الباب ولا تأتِ بحركة.

وانصاع الرَّجل للأمر ثانية. وفُتح الباب وما إن دخل الضابط الشاب وانتحى جانباً حتى ظهر من ورائه حارس مكتنز القامة مفتول الذراعين. ووقف الحارس قبالة السجين ذي الوجه الأشبه بالجمجمة وما إن صدرت له الإشارة من الضابط حتى سدّد لكمة، جمع فيها كُلّ ما أوتي من عزم، لفم السجين، فسقط أرضاً. وظلّ مُمدّداً لبضع لحظات فاقدًا الوعي، بينما كان فمه وأنفه ينزفان دمًا داكنًا. ثمّ تدرّج حتى رفع نفسه عن الأرض وهو يترنح مستعيناً بيديه وركبتيه. ووسط دمه النازف ولعابه السائل رأى «ونستون» فكي الرَّجل يرتطمان بالأرض.

وتسمر السجناء الآخرون في الأرض وقد عقدوا أيديهم فوق ركبهم، وعاد الرَّجل ذو الذقن الجرداء إلى مكانه وفُتح الباب من جديد، وأشار الضابط الشاب إشارة صغيرة إلى السجين ذي الوجه الأشبه بالجمجمة قائلاً:

- إلى الغرفة 101 .

وصدرت عن «ونستون» شهقة وبدا عليه الاضطراب. وكان السجين قد حَزَّ راكعاً على ركبتيه ويده مضمومتان إلى صدره وراح يصرخ متضرّعا:

- أيها الرفيق! أيها الضابط أضرع، إليك ألا تأخذني إلى ذلك المكان، لقد اعترفت لكم بكل شيء، ماذا تريدون بعد؟ لم يعد لديّ ما أعترف به. قل لي بماذا تريدونني أن أعترف وأنا مستعد للاعتراف فوراً، أو أكتب الاعتراف وسأوقع عليه في الحال! لا تذهبوا بي إلى الغرفة 101.

فعاد الضابط يُكرّر:

- جروه إلى الغرفة 101 .

وراح السجين يصيح متضرعاً من جديد:

- افعلوا بي ما شئتم، لقد جوعتموني لأسابيع طويلة، اقتلوني، أطلقوا عليّ الرصاص، اسنقوني. هل من أحد تريدون أن أشي به؟ فقط أشيروا لي مَنْ يكون، فأنا لا أبالي بمن سيكون هذا الشخص ولا بما ستفعلون بي، إنّ لي زوجة وثلاثة أطفال أكبرهم لم يتجاوز السادسة فلتذبحوهم أمام عينيّ وسأقف متفرجاً على ذلك، لكن لا تذهبوا بي إلى الغرفة 101.

فعاد الضابط يقول:

- إلى الغرفة 101.

وتطلع الرّجل حوله في جنون إلى بقية السجناء، وكأنّه يود أن يختار ضحية أخرى بدلاً منه، واستقرت عيناه على الرّجل ذي الذقن الجرداء ومدّ يده صائحاً:

- هذا هو الرّجل الذي ينبغي أن تأخذوه! إنكم لم تسمعوا ما كان يقوله. إنّّه هو مَنْ يُعادي الحزب ولست أنا؟



انحنى الحارسان ليجراه من ذراعيه، ولكنه كان في تلك اللحظة قد انبطح أرضاً وقبض بين يديه على إحدى القوائم الحديدية التي يرتكز عليها مقعد الزنزانة وراح يعوى كحيوان. ثم دوت صرخة من نوع مختلف. لقد حطمت ضربة من حذاء أحد الحارسين أصابع إحدى يديه وبعدئذ أوقفاه على قدميه وراح يجرجرانه إلى الخارج.

فقال الضابط:

- إلى الغرفة 101 .

وسار الرجل معهم وهو يترنح منكفئ الرأس ويمسك بيده المسحوقة وقد خارت جميع قواه.

مرّ وقت طويل، وبات «ونستون» وحيداً لساعات بعدما كان جميع السجناء قد غادروا الزنزانة. ومرة أخرى تناهت إلى سمعه وقع أقدام الحرس تقترب من الزنزانة، وفتّح الباب، ودخل «أوبراين». وما إن رآه «ونستون» حتى هبّ واقفاً على قدميه. وكان وقع المفاجأة شديداً حتى نسي كلّ حذر من «شاشة الرصد» بل نسي وجودها بالمرّة، وصاح:

- حتى أنت وقعت في قبضتهم أيضاً!؟

فقال «أوبراين» بشيء من التهكم:

- لقد وقعت في قبضتهم منذ أمد طويل.

وانتحى جانبًا ليظهر خلفه حارس ضخيم يمسك بهراوة طويلة سوداء في يده. وقال «أوبراين»:

- لقد كنت تعرف ما سيؤول إليك من أمرٍ، فلا تخدع نفسك.. لقد كنت دائمًا تعرف ذلك.

لقد أدرك «ونستون» كُلَّ شيء الآن. لكن لم يعد ثَمَّة فائدة تُرجى من التفكير في ذلك. وفي هذه اللَّحظات لم يكن يرى من العالم إِلَّا الهراوة التي بيد الحارس الذي قد يهوي بها على أي مكان في جسمه، على رأسه، أو صوان أذنه، أو على ذراعه، أو على مرفقه.

لكنه هوي بها على المرفق! فخر «ونستون» أرضًا على ركبتيه وكاد يفقد صوابه، وقد أمسك مرفقه بيده الأخرى وتحوَّل كُلُّ شيء في عينيه إلى اللَّون الأصفر. ولم يصدق أن ضربة واحدة يمكن أن تُسبب له كُلَّ هذا الألم المبرح. أفاق قليلًا من الضربة فلاحظ أنَّ الرَّجلين ينظران إليه بازدراءٍ، وكان الحارس يضحك من جسده الممتلوي. وهنا حضر الجواب عن ذلك السؤال وهو أنَّ المرء لا يمكن أبدًا ومهما كانت الأسباب أن يرغب في زيادة ألمه. فإزاء الألم لا يمكن للإنسان إِلَّا أن يرغب في توقفه. فليس في العالم ما هو أسوأ من الألم الجسدي، وحيال الألم ليس هناك أبطال، ليس هناك أبطال. وظلت هذه الفكرة تدور في رأسه بينما كان يسقط أرضًا وهو يتلوى أَلَمًا ويشدُّ على ذراعه اليسرى التي جعلتها الضربة عاجزة.



غسيل الدماغ

Brainwashing

وجد «ونستون» نفسه مُمدِّدًا فوق سرير يشبه أَسِرَّةَ المعسكرات، عدا أنَّه كان أكثر ارتفاعًا عن الأرض، وكان مُقيَّد الأطراف بحيث لا يستطيع حراكًا، والضوء الأكثر سطوعًا من المعتاد يسقط على وجهه مباشرة. وكان «أوبراين» يقف إلى جانبه متفرِّسًا في وجهه، وإلى الجانب الآخر كان يقف رجل يرتدي معطفًا أبيض اللون ويحمل في يده محقنه.

وحتى بعد أن فتح «ونستون» عينيه لم يعي ما حوله إلا تدريجيًّا. كان يحس وكأنَّه يسبح صاعدًا إلى فضاء هذه الغرفة قادمًا من عالم آخر من أعماق مياه سحيقة تحتها، أمَّا كم من الوقت مرَّ عليه فذلك أمر يجْهله تمامًا، فمنذ ألْقوا القبض عليه لم يعد يدري ظلمة الليل ولا ضوء النهار. وفوق ذلك كُلِّه كان انسياب ذاكرته متقطعًا، فقد مرَّت عليه أوقات كان وعيه يُصاب بالشلل التَّام، بما في ذلك الوعي الذي قد يتتاب المرء في نومه، ثمَّ يدب فيه الوعي من جديد بعد فاصل زمني ما. ولكن هل كان هذا الفاصل يمتد لأيام أم لأسابيع أم لمُجرَّد ثوان، فهذا أمر لم يكن من سبيل لمعرفته.

كانت تلك الضربة التي تلقاها فوق مرفقيه إيذانًا ببداية الكابوس الذي سيخوض غماره، وقد أدرك فيما بعد أنَّ كُلَّ ما مرَّ به حتى تلك الضربة لم يكن إلا استجوابًا اعتياديًّا وتمهيدًا يخضع له كُلُّ السجناء تقريبًا، إذ هنالك سلسلة طويلة من جرائم التجسس والتخريب وغيرها لا يمكن لأحدٍ إلا أن يعترف بها كأمرٍ واقع. ورغم أنَّ هذه الاعترافات لم تكن إلا إجراءً شكليًّا،

فإنَّ التعذيب الذي كان يترافق معها كان أمرًا لا يعلمه، فلم يكن «ونستون» بمقدوره أن يتذكَّر كم مرَّة تعرَّض للضَّرب ولا كم من الزمن استغرقت هذه العملية، فكلُّ ما يذكره هو أنَّه كان هنالك دائمًا خمسة أو ستة رجال يلبسون زيًّا أسود اللُّون ويحيطون به. أحيانًا ينهالون عليه ضربًا بقبضات أيديهم أو بهراوات غليظة وأحيانًا أخرى بعصيٍّ فولاذية أو ركلًا بأحذيتهم الثقيلة.

وكانت تمرّ عليه أوقات يتدحرج فيها على الأرض وكأنَّه حيوان، يتلوى بجسده محاولاً دون جدوى تجنُّب الضَّربات، لكن ذلك كان يدفعهم لمزيد من الضَّرب، وفي بعض الأحيان كانت هذه العملية تتواصل حتى يُخَيَّل إليه أنَّ ما يؤلمه ليس ضربات الحُرَّاس وإنَّما عجزه في أن يفقد وعيه. أمَّا في بعض الأحيان فكانت شجاعته تخذله فينخرط في البكاء طالبًا الرَّحمة، قبل أن يبدأ الضَّرب، حيث كانت مُجرَّد رؤيته لقبضة أحد الحُرَّاس وهي تتأهب لتسديد اللكمات كفيلة بأن تجعله يعترف بجرائم حقيقية وأخرى خيالية، كما مرَّت عليه أوقات كان يعقد العزم على عدم الاعتراف بشيءٍ، وحينئذ كانت كُلُّ كلمة تنتزع منه ممزوجة بالألم والضمنى، وأحيانًا كان يُضرب حتى تعجز ساقاه عن حمله، فيرتمي فوق أرضية الزنزانة، ثُمَّ يُترك لبضع ساعات حتى يتعافى من آثار الضَّرب، ليعودوا إلى تعذيبه من جديد، وكان هنالك أيضًا فترات نقاهة أطول، لكنه لم يذكرها إلَّا على نحوٍ غامضٍ لأنَّه كان يمضي معظمها إمَّا نائمًا وإمَّا فاقدًا للوعي، فهو يذكر زنزانة لا تضم سوى سرير خشبيٍّ، ورف بارز من أحد حوائطها، وحوض غسيل من القصدير، ووجبات من الحساء والخبز مصحوبة أحيانًا بالقهوة، ويذكر أنَّ حلاقًا قد جيء به ليحلق له شعره وذقنه، وأنَّ رجالًا بثيابٍ بيض غلاظ القلوب كانوا يجسّون نبضه ويفحصون أعصابه ويفتحون عينيه ويمررون أصابعهم الخشنة فوق جسده بحثًا عن كسور في عظامه ثُمَّ يغرزون بعض الإبر في جلده لينام.

وبعد ذلك قَلَّتْ وتيرة عمليات التعذيب. ولم يعد المحققون هؤلاء الرجال المتوحشين بتيابهم السوداء، وإنما أصبحوا رجالاً من مثقفي الحزب، وهم رجال ضئيلو الأجسام، سريعو الحركة، وذوو نظارات لامعة كانوا يتناوبون العمل عليه فيمتد استجوابهم له في النوبة الواحدة عشر أو اثني عشرة ساعة. وكان هؤلاء المحققون يعرضونه لألم خفيف متواصل لأنهم لم يكونوا يعتمدون الألم وسيلة رئيسة لانتزاع الاعترافات. فكانوا يصفعونه على وجهه، ويشدون شعره، ويرغمونه على الوقوف على ساق واحدة، ولا يسمحون له بقضاء حاجته، ويسلطون عليه أضواء قوية على عينيه حتى تجري الدموع، كان هدفهم من كل ذلك لم يكن إلّا إذلاله وتحطيم قدرته على الجدل. وكان سلاحهم الفعلي الاستجواب المتواصل الذي لا رحمة فيه ولا هوادة، حيث كانوا يبدلون أقواله عن مواضعها ويحورونها وينصبون له الشراك في كل سؤال ويمسكون عليه كل ما يظهر أنه أكاذيب أو تناقضات في أقواله حتى أنه كان يجهش بالبكاء من شعوره بالخزي وكذلك من شعوره بالإجهاد العصبي. وأحياناً كان يبكي عشرات المرات في جلسة التحقيق الواحدة، وفي معظم الأوقات كانوا يشتمونه بأفطع الكلمات. لكنهم كانوا في أحيان أخرى يغيرون لهجتهم فجأة وينادونه بالرفيق ويناشدونه باسم «الاشتراكية الإنجليزية»، و«الأخ الكبير»، ويسألونه والأسف بادٍ على وجوههم عمّا إذا كان لديه من الولاء للحزب ما يكفي لجعله يتوب عمّا بدر منه من آثام إزاء الحزب. وحينما كانت أعصابه تنهار وتصبح كخرقة بالية إثر ساعات طويلة من التحقيق، كان مُجرّد مناشدتهم له بمثل هذه الكلمات تجعله يجهش ببكاء حار، وفي النهاية كانت هذه الأصوات المثيرة للأعصاب تفضي به إلى انهيار تام ويصبح مُجرّد فم ينطق ويد تقوم بالتوقيع على أي شيء يُطلب منه، وغداً همّ الوحيد آنذاك أن يكتشف ما يريدون منه أن يعترف به حتى يُبادر إلى الاعتراف قبل أن يلجأ المحققون لحمله على ذلك، وقد

اعترف باغتيال عدد من أعضاء الحزب البارزين، وتوزيع منشورات تُحرّض على الفتنة، واختلاس أموال عامّة، وبيع أسرار عسكرية، والاشتراك في عمليات تخريبية بشتى أنواعها، وبأنّه كان عميلًا مأجورًا للحكومة «إستاسيا» منذ عام 1968، وبأنّه كان مؤمنًا بالله ومُعجبًا بالرأسمالية، وبأنّه قد انزلق إلى الشذوذ الجنسي، وأقر كذلك بقتل زوجته، بالرغم من أنّه يعرف، مثلما يعرف المحققون، أنّ زوجته لا تزال على قيد الحياة. واعترف أيضًا بأنّه ظلّ لسنواتٍ على اتصال شخصي مع «جولدشتاين»، وبأنّه كان عضوًا بمنظمة سرية تضم كلّ الأشخاص الذين يعرفهم.

وكانت لديه كذلك ذكريات من لونٍ آخر تبرز أمام مُخيلته بشكل متقطع كصور يُحيطها السواد من كلّ ناحية، فيذكر أنّه كان قابعًا في زنازة لا يعرف إنّ كانت مظلمة أو مضيئة لأنّه لم يكن يستطيع أن يميّز فيها شيئًا غير زوجين من العيون وعلى مقربةٍ منه كانت هنالك آلة تدق دقات بطيئة ومنتظمة وكانت العينان تتسعان وتزدادان بريقًا، وفجأةً أحسّ بأنّه طار من مقعده وغطس في هاتين العينين اللتين ابتلعته.

ثمّ أحسّ أنّه شدّ إلى مقعدٍ تُحيط به ساعات وتسلط عليه أضواء باهرة تزيع الأبصار، وإلي جواره كان يقف رجل يرتدي معطفًا أبيض اللون يقرأ ما تُشير إليه الساعات، ثمّ سمع وقع أقدام ثقيلة خارج الغرفة، وفتح الباب ليدخل منه ضابط ذو وجه كالح يتبعه حارسان.

وقال الضابط:

- إلى الغرفة رقم 101.

لم يلتفت الرّجل ذو المعطف الأبيض، كما لم يعر «ونستون» اهتمامًا؛ إذ كان كلّ اهتمامه منصبًا على النظر إلى الساعات.

ومن ذكرياته أيضاً أنه كان يتدحرج عبر ممرٍ طويل فسيح تغمره أضواء باهرة وتتعالى فيه الضحكات، وكان أثناء التعذيب يصيح بأعلى صوته معترفاً بكلِّ شيء، كما راح يروي قصّة حياته بأكملها أمام مستمعين كانوا يعرفونها بالفعل، وكان يُحيط به الحُراس، والمحققون، والرّجال ذوو المعاطف البيضاء، و «أوبراين»، و «جوليا»، والسّيّد «شارنجتون»، وجميعاً يرافقونه عبر الممرّ وهم يقهقهون. لقد كان ثمّة شيء مخيف يحمله له المستقبل. لكن ذلك الشيء لم يعد له وجود، ومن ثمّ لن يحدث، إذ أصبح كلّ شيء على ما يرام، فلم يعد هناك مزيد من الألم بعد أن كشف لهم كل تفاصيل حياته التي فهموها فصفحوا عنه، وكان يحاول النهوض في سريره الخشبي وهو شبه متيقن من أنّه سمع صوت «أوبراين»، ومع أنّه لم ير «أوبراين» مطلقاً طوال عملية استجوابه فقد كان يشعر أنّ «أوبراين» قريب جداً منه وإن كان لا يراه. وبالفعل كان «أوبراين» هو الذي يوجه كلّ شيء، كان هو الذي يُعين الحُراس عليّ «ونستون»، وهو الذي منعهم من قتله، لقد كان هو صاحب الكلمة فيما يتعلّق بمتى يجب أن يصرخ «ونستون» من فرط الألم، ومتى يجب أن يُمنح فترة راحة، ومتى يجب أن يُقدّم له طعام ومتى يجب أن يناله، ومتى يجب أن يُحقن بالعقاقير المُخدّرة، كان هو من يوجه له الأسئلة، وهو من يوحى له بالإجابات. كان «أوبراين» المُعذب والمحامي والمحقق والصديق معاً. وذات مرّة سمع «ونستون» صوتاً، لا يذكر هل كان أتاها تحت تأثير المُخدّر أو أثناء نومه الطبيعي أو حتى لحظة يقظة كاملة، صوت يهمس في أذنه قائلاً:

- لا تخف يا ونستون، فأنت تحت رعايتي، منذ سبع سنوات وأنا أُحيطك برعايتي، والآن حانت اللّحظة الحاسمة، سوف أنقذك وسأجعلك نموذجاً يُقتدى به.

لم يكن «ونستون» على يقين من أنّ صاحب هذا الصوت هو «أوبراين»، لكن هذا الصوت هو نفسه الذي سمعه في الحُلُم منذ سبع سنوات يقول له:

- سوف نلتقي في مكانٍ لا يحلّ فيه ظلام.

لم يكن «ونستون» يستطيع أن يُحدّد متى تنتهي جلسة التعذيب أو متى تبدأ، فكلّ ما يذكره هو أنّه كان يمرّ بفتراتٍ من الظلام الدامس يجد نفسه بعدها في الزنزانة أو في الغرفة حيث يُمدّد الآن على السرير. كان مستلقياً على ظهره فوق السرير لا يستطيع حراكاً وكان جسده مثبتاً عند كلّ مفصل من مفاصله، بل حتى رأسه كان مثبتاً. وكان «أوبراين» يُحدّق فيه بنظرةٍ كلّها جدية وأسى، فيما كان وجهه الذي رآه «ونستون» من أسفل يبدو خشناً وترسم عليه علامات الإرهاق وتحت عينيه توجد انتفاخات، وفيما بين الأنف والذقن تمتد تجاعيد توحى بالإعياء. كان «أوبراين» أكبر سنّاً ممّا ظنه «ونستون»، ربما كان في الثانية والأربعين أو الخمسين. وتحت يده ذلك القرص الذي يتصل به ذراع وحوله أرقام.

قال «أوبراين»:

- لقد قلت لك إنّنا إذا ما التقينا ثانيةً فسيكون لقائنا هنا.

فأجاب «ونستون»:

- أجل.

ودونما أي إنذار مسبق، وبحركةٍ خفيفةٍ من يد «أوبراين»، غمرت موجة من الألم جسده «ونستون»، كان ألماً مريعاً لأنّه لم يكن يفهم ماذا يجري له ومع ذلك كان يشعر أنّه يتعرّض لأذى مميت، ولم يكن «ونستون» يعلم إنّ كان ذلك الذي يحدث له حقيقةً أم غير حقيقي، إلّا أن جسده كان يتلوى ليخرج عن شكله المعهود ومفاصله كانت تتمزق ببطء. ومع أنّ العرق كان يتفصد من جبينه، فإنّ أخشى ما كان يخشاه هو أن ينفصم عموده الفقري،

كما كان يصبر على أسنانه ويتنفس من أنفه بصعوبةٍ محاولاً التزام الصمت قدر المستطاع.

قال «أوبراين»، وهو يراقب وجهه:

- لعلك تخشى أن يتحطم جزء من جسمك بعد لحظات، ولا بدّ أنّ خوفك الأوّل يتركز على عمودك الفقري وتتصوّر الفقرات وهي تتفكك وينسكب منها النخاع، إنّ هذا هو ما تظنه واقعاً، أليس كذلك يا ونستون؟

فلم يجب «ونستون»، لكن «أوبراين» كان قد سحب الذراع المتصلة بالقرص للخلف فانحسرت موجة الألم سريعاً مثلما داهمته سريعاً.

قال «أوبراين»:



- تلك كانت أربعين، وفي استطاعتك أن ترى أنّ أرقام هذا القرص تصل إلى المائة، ولذلك أرجو منك ألا تنسى أثناء حديثنا أنّ بمقدوري أن أنزل بك

«ونستون» ممدّد على سرير التعذيب ويجواره «أوبراين» الألم في اللحظة التي أشاء وبالدرجة التي أشاء، فإذا لجأت إلى الكذب، أو حاولت المراوغة بأي طريقةٍ، أو حتى انخفضت درجة ذكائك عن مستواك المعهود فسوف تصرخ من الألم لحظة يحدث هذا. هل تفهم ما أقول؟

فأجاب «ونستون»:

- أجل

وهنا تغيّرت هيئة «أوبراين» وأصبحت أقلّ قسوة، وأعاد تثبيت نظارته بعناية، وخطا خطوة أو خطوتين. وعندما تكلم كان صوته لطيفاً متزناً، وكانت هيئته مزيجاً من هيئة الطبيب والمُعَلِّم بل ورجل الدين. كان توافاً للشرح والإقناع أكثر منه للعقاب.

وقال:

- إنني أتجشم مشقة وجهداً معك يا ونستون لأنك تستحق ذلك. لا بد أنك تعرف ما هو نوع علتك، لقد توصلت إلى هذه المعرفة منذ سنوات ولكنك قاومتها، إنك مشوش الذهن، وتُعاني من ضعف الذاكرة. ولحسن حظك فإنّ هذا المرض يمكن شفاؤه، فأنت لم تحاول شفاء نفسك منه أبداً لأنك لم تشأ ذلك، بل ولم تبدِ استعداداً لبذل أي جهد في ذلك السبيل، وإنني على يقين بأنك حتى هذه اللحظة تتشبث بعلتك هذه معتبراً إيّاها فضيلة. وسأضرب لك الآن مثلاً.. في اللحظة الراهنة مع أي دولة تُحارب أوقيانيا؟

فأجاب «ونستون»:

- عندما ألقوا القبض عليّ كانت أوقيانيا في حالة حرب مع إستاسيا.

- مع إستاسيا، حسناً، وقد كانت أوقيانيا في حالة حرب دائمة مع إستاسيا، أليس كذلك؟

أخذ «ونستون» نفساً طويلاً وفتح فمه ليتكلم، لكنه لم ينطق بشيء. فلم يستطع أن يرفع عينيه عن القرص.

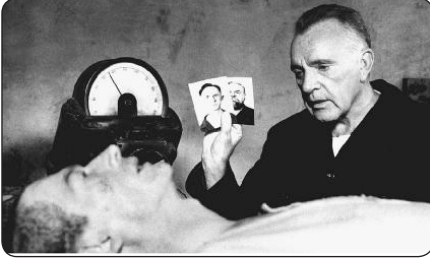
- الحقيقة من فضلك يا ونستون، الحقيقة التي تؤمن بها، قل لي ما تظن أنك تذكره.

- أذكر أنّه قبل أسبوع واحد من القبض عليّ لم نكن في حالة حرب مع إستاسيا على الإطلاق، وإنّما كنا في تحالف معها، وأنّ رحى الحرب كانت تدور بيننا وبين أوراسيا، وقد دام ذلك أربع سنوات. لكن قبل ذلك...

وهنا استوقفه «أوبراين» عن متابعة كلامه بإشارةٍ من يده...

- وإليك مثل آخر، لقد كنت تعيش لسنواتٍ في ظلٍّ وَهْمٍ جدٍ خطير، لقد كنت تؤمن بأنَّ الرِّجال الثلاثة وهم جونز، و آرنسون، و راذرفورد، الذين كانوا فيما مضى أعضاءً بالحزب ثُمَّ جرى إعدامهم جزاء الخيانة والأعمال التخريبية التي اقترفوها بعد إدانتهم باعترافاتٍ كاملةٍ، لم يقتربوا أيًّا من الجرائم التي أُدينوا بها، وكنت تؤمن بأنَّك وقعت على دليل وثائقي دامغ يثبت أن كل اعترافاتهم كانت غير حقيقية. وهناك صورة فوتوغرافية في ذهنك توهمت أنَّك قد أمسكت بها في يدك. إنَّها صورة تشبه هذه.

وأبرز «أوبراين» بين أصابعه قصاصة جريدة أمام عيني «ونستون» لثوانٍ.



لقد كانت صورة
«جونز»، و«آرنسون»،

و«راذرفورد» وهم في
فرع الحزب بنيويورك
والتي تصادف أن وقعت

بين يديه منذ إحدى عشرة

سنة وقام بإحراقها على «أوبراين» يعرض صور الأشقياء الثلاثة على «ونستون»

الفور آنذاك. للحظةٍ واحدة ظلت هذه الصورة أمام ناظره، ثُمَّ غابت عنه، ولكنه كان قد رآها، وقد حاول يائسًا أن يرفع النصف الأعلى من جسده، إلَّا أنَّه كان أمرًا مستحيلًا أن يتحرَّك في أي اتجاه، وكان قد نسي القرص في تلك اللحظة وتملكته رغبة أكيدة في أن يمسك بالصورة بين أصابعه مرَّة ثانية أو يراها على الأقل. وصاح بملء صوته:

- إنَّها موجودة.

فقال «أوبراين»:

- كلا، ليست موجودة.

ثمَّ خطا بضع خطوات وصولاً إلى محرقة الذكريات التي كانت في الجدار المقابل، ورفع الغطاء ورمى بها من فتحة المحرقة لتبتلعها ألسنة اللهب فتتلاشى، ثمَّ التفت «أوبراين» إلى «ونستون»، وقال:

- الآن استحالت رماداً، لقد أصبحت ذرات غبار. إنها لم تعد موجودة الآن. ولم يحدث أن كان لها وجود على الإطلاق.

فقال «ونستون»:

- لكنها كانت موجودة، بل لا تزال موجودة! إنها موجودة في الذاكرة، وأنا أذكرها كما أنت تذكرها.

فقال «أوبراين»:

- إنني لا أذكرها.

وغاص قلب «ونستون» بين ضلوعه، لقد كانت تلك هي «ازدواجية التفكير» التي قرأ عنها، وسرعان ما تملكه شعور باليأس القاتل، فلو أنَّه استطاع أن يستوثق من أنَّ «أوبراين» يكذب فإنَّه لم يكن ليكثرث بذلك الأمر، بيد أنَّه كان من الجائز تماماً أن «أوبراين» قد نسي الصورة الحقيقية وإذا صحَّ ذلك، فإنَّه قد يكون قد نسي نكرانه لتذكرها، بل ونسي أنَّه نسي، فكيف إذا للمرء التأكُّد من أن الأمر لا يعدو كونه مُجرَّد خداع من جانبه؟ ربما يمكن لمثل هذا التشويش أن يحدث حقيقة في العقل، وكانت هذه الفكرة هي التي قهرته.

كان «أوبراين» ينظر إليه بإمعان، وكان قد أخذ، وأكثر من أي وقت مضى، هيئة مُعلِّم يتجشَّم مشقة وهو يُعلِّم طفلاً مُعاندًا لكنه واعد وذكي.

وقال «أوبراين»:

- يوجد للحزب شعار يتعلّق بالتحكُّم في الماضي، هل يمكنك أن تقوله من فضلك؟

فأذعن «ونستون» وقال ممثلاً:

- إِنَّ مَنْ يَتَحَكَّم في الماضي يَتَحَكَّم في المستقبل، وَمَنْ يَتَحَكَّم في الحاضر يَتَحَكَّم في الماضي.

فأوماً «أوبراين» برأسه، وقال:

- إِنَّ مَنْ يَتَحَكَّم في الحاضر يَتَحَكَّم في الماضي، هل ترى أَنَّ للماضي وجوداً فعلياً؟

ومرّة أخرى شعر «ونستون» بالعجز يغمره، ومدّ عينيه إلى القرص ولم يكن يدري إن كانت الإجابة بنعم أو لا، بل إِنَّه لم يدرِ ما هي الإجابة التي يعتقد أَنَّها صحيحة.

ابتسم «أوبراين» ابتسامة خفيفة، وقال:

- إِنَّكَ لست من علماء الميتافيزيقيا يا ونستون، كما أَنَّكَ حتى هذه اللحظة لم تُفكّر فيما تعنيه كلمة الوجود، وحتى أَكون أَكثر دقة سأقول:

- هل الماضي موجود كشيءٍ محسوس ويشغل حيزاً من الفراغ؟
- كلا.

- إذاً، أين يوجد الماضي، إن كان له وجود في الأصل؟

- في السجلات حيث يدوّن.

- في السجلات وفي.....؟

- في العقل وفي ذكريات البشر.

- في الذاكرة، حسناً جداً، إننا، أقصد الحزب، نسيطر على جميع السجلات ونسيطر على جميع الذكريات، ومن ثمّ فإننا نتحكّم في الماضي.. أليس كذلك؟

وصرخ «ونستون» مرّة أخرى بصوت عالٍ وقد نسي القرص:

- ولكن كيف تستطيعون منع الناس من تذكّر الأشياء؟ إنّه عمل لا إرادي حتى أن أحداً لا يمكنه أن يُسيطر على ذاكرته، فكيف تستطيعون أنتم السيطرة على الذاكرة؟ إنكم لم تستطيعوا السيطرة على ذاكرتي.
وبدت علامات التجهّم على وجه «أوبراين» مرّة أخرى، ووضع يده على القرص، وقال:

- بل على العكس، إنك أنت الذي عجزت عن السيطرة عليها، وهذا هو ما جاء بك إلى هنا، إنك هنا لأنك فشلت في الانصياع وفي فرض الانضباط الذاتي على نفسك، إنك لم تتقن عملية الخضوع التي هي ثمن التعقل، وإنما فضلت أن تكون مجنوناً ووضعت نفسك ضمن أقلية مؤلّفة من فرد واحد هو أنت. إنّ الواقع لا يراه إلّا العقل المنضبط يا ونستون، إنك تؤمن بأنّ الواقع شيء موضوعي خارجي قائم بذاته، كما تؤمن بأنّ طبيعة الواقع طبيعة بدئية بذاتها، وعندما تضلّك ذاتك وتوهمها أنك ترى شيئاً ما، فإنك تفترض أنّ كلّ الآخرين يرون الشيء ذاته، ولكن أقول لك يا ونستون: إنّ الواقع ليس له وجود خارجي، إنّ الواقع موجود في العقل البشري ولا يوجد في مكان سواه. إنّّه ليس موجوداً في العقل الفردي الذي هو عرضة للوقوع في الأخطاء، كما أنّه يعني فناء صاحبه، إنّّه لا يوجد إلّا في عقل الحزب الذي يتسم بأنّه جماعي وخالد. وما يعتبره الحزب حقيقة فهو الحقيقة التي لا مرأى فيها، ومن المستحيل أن ترى الحقيقة إلّا بالنظر من خلال عيني الحزب. تلك هي الحقيقة التي يجب أن تتعلّمها من جديد يا ونستون. وهذا يحتاج منك أن

تُدمّر ذاتك وهو أمر يتطلب قوّة الإرادة، يجب أن تذلل نفسك وتطهرها حتى يمكنك أن تكون عاقلًا.

وتوقف هنيهة عن الكلام وكأنّه يتيح لكلماته وقتًا كافيًا لتستقر في ذهن «ونستون».

ثمّ أردف:

- هل تذكر يا ونستون حينما كتبت في مذكراتك تقول إنّ الحرّيّة هي أن تكون حرًّا في أن تقول إن اثنين واثنين يساويان أربعة؟
فأجاب «ونستون»:

- نعم:

ورفع «أوبراين» يده اليسرى جاعلاً ظهرها إلى «ونستون» ومخفيًا الإبهام خلف الأصابع الأربعة المرفوعة، وسأل:

- كم أصبغًا ترى يا ونستون؟

- أربعًا.

- وإذا قال الحزب إنّها ليست أربعًا بل خمسة فكم يكون عددها حينئذ؟

- أربعًا.

ولم يكن «ونستون» يتم هذه الكلمة حتى صرخ من شدة الألم الذي سرى في أوصاله، وأشارت الإبرة إلى خمس وخمسين، وبدأ العرق يتفصد من كلّ أجزاء جسمه وأخذ الهواء يتدفق إلى رئتيه فيخرج أنينًا لم يمنعه من اصطكاك أسنانه. وكان «أوبراين» يراقبه بينما لا تزال الأصابع الأربعة مرفوعة، ثمّ سحب «أوبراين» الذراع فحققت حدة الألم بعض الشيء. وسأل:

- كم أصبغًا ترى يا ونستون؟

- أربعا.

فارتفعت الإبرة إلى الستين.

- كم أصبعا ترى يا ونستون؟

- أربعا، أربعا.. ماذا أقول غير ذلك؟ أربعا.

لابد أن الإبرة قد ارتفعت مرّة أخرى ولكنها لم تسترّع انتباه «ونستون» الذي كان يستأثر به ذلك الوجه الغليظ الصارم والأصابع الأربعة، كانت الأصابع تنتصب أمام عينيه وكأنّها أعمدة ضخمة تهتز وسط جو غائم لكنها مع ذلك كانت أربعا ولا ريب.

- كم أصبعا يا ونستون؟

- أربعا! أوقف عني هذا الألم! لماذا تستمر في تعذيبني؟ أربعا.. أربعا.

- كم أصبعا يا ونستون؟

- إذا، خمسا! خمسا! خمسا.

- لا يا ونستون هذا لن يفيدك، إنك تكذب لأنك مازلت تعتقد أنّها أربع.

- كم أصبعا ترى من فضلك؟

- أربعا! خمسا! أربعا! الرقم الذي تريده. كلّ ما أرجوه هو أن توقف الألم.



«أوبراين» يسأل «ونستون»: كم أصبعا ترى؟

وفجأة وجد «ونستون» نفسه جالسا وقد أحاطت ذراع «أوبراين» بكتفيه، ربما كان قد فقد الوعي لبضع ثوان، وأمّا الأزيمة التي تشدّ جسمه إلى السرير

فقد حُلّت وشعر بموجة برد قارص تسري في جسده حتى أن أوصاله كانت ترتجف وأسنانه تصطك ودموعه تنهمر على خديه، فتشبث بـ «أوبراين» وكأنّه طفل رضيع وقد أراحته كلّ الراحة وعلى نحوٍ غير مستغرب تلك الذراع الثقيلة الملتفة حول كتفيه. كان يخامرهُ شعورٌ بأنّ «أوبراين» هو حاميهِ، وأنّ الألم يأتيهِ من الخارج ومن مصدر آخر غير «أوبراين»، وأنّ «أوبراين» هو الذي سيخلصه من الألم.

وقال «أوبراين» بلطفٍ:

- إنَّكَ بطيء التعلُّم يا ونستون.

فقال «ونستون» وهو يتحبّب:

- وماذا عساي أن أفعل؟ كيف يمكنني أن أتجنّب رؤية ما هو أمام عيني؟
إنّ اثنين واثنين يساويان أربعة.

فقال «أوبراين»:

- أحيانًا يساويان أربعة يا ونستون، وأحيانًا أخرى يساويان خمسة وقد يساويان ثلاثة أيضًا، وفي أحيانٍ أخرى يساويان أربعة وخمسة وثلاثة في آنٍ معًا، يجب أن تحاول بمزيدٍ من الجدية والجهد، فليس من السهل أن تصبح سليم العقل.

ومدّد «ونستون» ثانيةً على السرير، وشدّ وثاقه من جديد إلّا أنّ الألم كان قد انحسر وذهبت عنه تلك القشعريرة التي سرت في جسده لتتركه خائرًا ضعيفًا، وأشار «أوبراين» برأسه إلى الرّجل ذي المعطف الأبيض الذي كان واقفًا ساكنًا طوال تلك العملية، فتقدّم ذلك الرّجل ومال على «ونستون» يفحص عينيه ويجس نبضه، ووضع أذنه على صدره وطرق على عظامه هنا وهناك، ثمّ أومأ برأسه إلى «أوبراين».

فقال «أوبراين»:

- مرّة أخرى..

وتدفق الألم مرّة أخرى في جسد «ونستون»، وكانت الإبرة قد بلغت الدرجة السبعين، أو الخامسة والسبعين، لكنه أغلق عينيه هذه المرّة، إذ كان يشعر أن الأصابع لا تزال منتصبّة وأنّها لا تزال أربعا، فقد كان كلّ همّه هو أن يظلّ على الحياة إلى أن تنقشع هذه النوبة من الألم، فلم يعد يعرف إن كان يصرخ من الألم أو أنّه يتألم في صمّ، وفتح «ونستون» عينيه بعدما خفت حدة الألم مرّة أخرى، حيث كان «أوبراين» قد سحب الذراع للخلف.

- كم إصبعا ترى يا ونستون؟

- أربعا، أظنّ أنّها أربعا، سأحاول أن أراها خمسا إن استطعت، إنني أحاول فعلا أن أراها خمسا.

- أترغب يا ونستون أن تقنعني بأنك تراها خمسا أم أنّك تراها فعلا خمسا؟

- أترغب أن أراها فعلا خمسا.

فقال «أوبراين»:

- إذا، مرّة أخرى.

ولعلّ الإبرة هذه المرّة أشارت إلى الثمانين أو التسعين درجة، ولم يعد في استطاعة «ونستون» أن يتذكّر سبب الألم. وحُيِّل إليه أنّ غابة من الأصابع تتراقص أمام عينيه المشدوهتين ويتداخل بعضها في بعض ويتوارى بعضها وراء بعض ثمّ تعود فتظهر، وكان يحاول أن يحصيها دون أن يعرف لماذا، لكنه كان يعرف أنّ من المستحيل عليه أن يحصيها، وذلك بسبب الطبيعة الغامضة التي تلبس الخمسة والأربعة. وزال عنه الألم مرّة أخرى. وما إن

فتح عينيه حتى تبين له أنه لا يزال يرى الشيء نفسه، أصابع لا حصر لها ولا عدد مثل أشجار متحركة يسير بعضها وراء بعض في وجهتين متداخلتين، فسارع بإغلاق عينيه مرة أخرى.

- كم أصبغًا ترى يا ونستون؟

- لست أدري، لست أدري. أخاف أن تقتلني إن فعلت ذلك مرة أخرى أربعًا، خمسًا، ستًا، أقسم لك أنني لست أدري.

فقال «أوبراين»:

- هذا أفضل.

وغرست إبرة في ذراع «ونستون» فشعر معها بدفء مريح يدب في أوصاله حتى كاد ينسى الألم، ففتح عينيه ونظر بعين الرضا والامتنان إلى «أوبراين». وما إن رأى ذلك الوجه الغليظ القميء شديد الذكاء الذي يمتلئ بالتغضّبات حتى شعر بقلبه يخفق، ولو كان في مستطاعه أن يتحرك لمدّ يده فتشبث بذراع «أوبراين». لقد أحبه في هذه اللحظة كما لم يُحبه من قبل، ولم يكن ذلك لأنه أوقف الألم فحسب، وإنما لأنّ مشاعره القديمة، التي كان يكنّها لـ «أوبراين» بغض النظر عمّا إذا كان صديقًا أو عدوًّا، قد جاش في صدره من جديد، فـ «أوبراين» هو الشخص الذي يمكنه أن يتكلم إليه، ولعلّ المرء لا يهمله أن يُحبه الناس بقدر ما يهمله أن يفهموه، نعم، إنّ «أوبراين» قد ذهب في تعذيبه إلى حدّ الجنون، بل ومنذ لحظات كان موقفًا بأنّ «أوبراين» سيرسّله إلى مثواه الأخير، لكن كلّ ذلك لا يهم، فقد كان يجمع بينهما ما هو أعمق من الصداقة، إنّها الحميمة وبالرغم من أنّهما لا يمكنهما تبادل الحديث معًا، فلا بدّ أن يأتي يوم يلتقيان فيه ويتحدثان معًا كما يشاءان، ولاحظ «ونستون» أنّ «أوبراين» ينظر إليه نظرة استوحى منها أن الأفكار نفسها تدور بخاطره، وعندما تكلم «أوبراين» كانت نبرة حديثه يسيرة ومفعمة بروح الحوار، فقال:

- أتدري أين أنت يا ونستون الآن؟
- لستُ أدري لكن يمكنني التخمين، لعلّي في وزارة الحبّ!
- هل تعلم كم من الوقت مضى عليك ها هنا؟
- لستُ أدري قد تكون أيامًا أو أسابيع أو شهورًا، لكنني أعتقد أنني أمضيت شهورًا.
- ولماذا نأتي بالناس إلى هذا المكان حسب تصورك؟
- كي تجعلونهم يعترفون.
- كلا، ليس هذا هو السبب، حاول مرّة ثانية.
- كي تعاقبهم.
- فصرخ فيه «أوبراين»:
- كلا.

وتغيّرت نبرة صوته تمامًا وارتسمت على وجهه علامات التجهّم والشدّة، ثمّ قال:

- كلا، إننا لا نأتي بأحد هنا كي ننتزع منه اعترافًا أو ننزل به عقابًا. هل تود أن تعرف لماذا أتينا بك إلى هنا؟ لمداداة علتك، لنجعلك سليم العقل! هلا فهمت يا ونستون، فما من أحد نأتي به إلى هنا ويخرج قبل أن يبرأ من علته؟ إننا لا نكتثر للجرائم الحمقاء التي اقترفتها، فالحزب لا يهتم ما تأتيه من أفعال مكشوفة، إنّما يهتم أكثر ما يدور في رأسك من أفكار. نحن لا نحطم أعداءنا فحسب وإنّما نغيّر ما بأنفسهم. هل تفهم ماذا أقصد بذلك؟

كان «أوبراين» منكفئًا فوق «ونستون» وقد بدا وجهه ضخمًا لشدّة قربه منه، وبشعًا قبيحًا لأنّ «ونستون» يتطلع إليه من أسفل، كما أنّه كان يبدو

مفعماً بالنشاط والتوتر الطائش. ومرة أخرى خفق قلب «ونستون»، ولو أن الأمر بيده لكان قد غاص في السرير أكثر، فقد تأكد له أن «أوبراين» يوشك أن يُدير القرص مدفوعاً بوحشية مفرطة إلا أن «أوبراين» استدار مبتعداً في هذه اللحظة وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً مرةً أو مرتين. ثم تابع حديثه وقد فتر حماسه:

- إنَّ أوَّل ما يتوجب عليك فهمه هو أننا لا نسمح لأحدٍ بأن يخرج من هذا المكان شهيداً، لا بدَّ أنَّك قرأت عن الاضطهاد الديني في الماضي الذي مُورس في العصور الوسطى تحت ما يُسمى بمحاكم التفتيش التي فشلت فشلاً ذريعاً، لقد أنشئت تلك المحاكم لاستئصال داء الهرطقة، لكنها على العكس كرسّت وجودها. ففي مقابل كُلِّ هرطقي يُحرق بعد شدّة على الخازوق كان يظهر الآلاف غيره. فما السبب يا ترى؟ السبب هو أن محاكم التفتيش كانت تقتل أعداءها جهاراً نهاراً وتجهز عليهم قبل أن يتوبوا، وفي الواقع لقد كانوا يحرقون لأنَّهم يرفضون التخلي عن معتقداتهم، وبالطبع كان المجد كُلُّه يؤوّل إلى الضحية، بينما يبقى كُلُّ الخزي من نصيب المُحقق. وفي القرن العشرين ظهر ما يُسمى بالحكم الاستبدادي، فكان هناك النازيون الألمان والشيوعيون الروس الذين كان سجلهم في اضطهاد مناوئهم حافلاً بقسوةٍ تفوق ما اقترفته محاكم التفتيش. ومع ذلك كانوا يظنون أنَّهم تعلموا من أخطاء الماضي، فقد كانوا على أية حال يدركون أنَّه ينبغي عليهم ألاَّ يجعلوا من خصومهم شهداء. ولذلك كانوا لا يقدمون ضحاياهم للمحاكمات العلنية إلا بعد أن يستوثقوا من تحطيم كرامتهم وإذلالهم، إذ كانوا يهكون قواهم بالتعذيب ويعزلونهم عن العالم حتى يتحولون إلى مسوخ ذليلة حقيرة ويعترفون بكُلِّ ما يوضع على ألسنتهم ويصمون أنفسهم بالخزي والعار، ويتهم بعضهم بعضاً، ويتضرعون طلباً للرَّحمة. ومع كُلِّ ذلك لم تكن تمرّ سوى بضع سنوات حتى يتكرَّر الشيء نفسه ثانية، إذ يتحوَّل الموتى

إلى شهداء بينما يُنسى ما لحق بهم من ذلٍّ وهوانٍ. والسؤال: لماذا حدث هذا؟ والجواب هو: لأنَّ الاعترافات التي يدلون بها كانت كاذبة وتنتزع منهم قسرًا، أمَّا نحن فلا نقترف مثل هذه الأخطاء. فكلَّ الاعترافات التي تجري هنا صحيحة، إنَّنا نجعلها كذلك، وفضلًا عن كلِّ ذلك نحن لا نسمح للموتى أن يبعثوا من قبورهم ليناهضونا، ولذلك يجب عليك أن تكف عن التوهُّم بأنَّ الأجيال القادمة ستبرئ ساحتك وتجعل منك شهيدًا، إنَّهم لن يسمعوا عنك أبدًا لأنَّك ستزال تمامًا من سجل التاريخ، سنحيلك إلى غاز ثُمَّ نطلقك في الهواء، سنجعلك لا شيء، لا اسمًا في سجلٍّ ولا أثرًا في ذاكرة حية، ستمُحى كلُّ علاقة لك بالماضي كما بالمستقبل وستصبح وكأنَّك لم تكن.

وتساءل «ونستون» في نفسه بمرارة: «إذا، علام كلَّ هذا التعذيب؟».

وتوقف «أوبراين» عن السير في الغرفة، وكأنَّه يسمع تساؤل «ونستون» فأصبح وجهه الدميم أكثر قربًا وضائق عيناه أكثر. وقال له:

- لعلك تتساءل لماذا نتجشم مشقة استجوابك؟ ما دمنا ننوي القضاء عليك، وما دام لا شيء ممَّا تقوله أو تفعله يمكن أن يُغيَّر من الأمر شيئًا، إنَّ هذا هو التساؤل الذي يدور بخاطرك، أليس كذلك؟

فأجاب «ونستون»:

- نعم.

فابتسم «أوبراين» ابتسامة خفيفة، وقال:

- إنَّك العيب الذي شق النموذج العام، إنَّك الوصمة التي يجب مَحوها، ألم أقل لك قبل لحظات إنَّنا نختلف عن طُغاة الماضي؟ فنحن لا نقبل بالطاعة السلبيَّة أو حتى بالخضوع، وعندما تسلم لنا قيادك في النهاية يجب أن يكون ذلك نابغًا من إرادتك الحرَّة. إنَّنا لا نحطم الضال الذي خرج علينا

عندما يقاومنا، بل إننا لا نُقدِّم أبداً على تدميره طالما أنَّه يقاومنا وإنَّما نسعى لأنْ نُغيِّره ونقبض على عقله الباطن فنصوغه في قالب جديد. إنَّنا نُبدِّد كُلَّ ما يضمِّره من شرور ونُخرج كُلَّ ما يحمله من أوْهام فنرُدُّه إلى صف الحزب ليس في مظهره فحسب، وإنَّما أيضاً في جوهره قلباً وقالباً. إنَّنا نجعله واحداً منا قبل أنْ نقتله، ذلك أنَّه ممَّا لا يحتمل بالنسبة إلينا هو أنْ توجد فكرة خاطئة في أي مكان من العالم مهما كانت خفية ومعدومة القوَّة، وحتى في لحظة الموت لا نسمح بأي شكل من أشكال الانحراف. ففي الأيام الغابرة كان الهراطقة يسIRON نحو الخوازيق المُعدة لهم وهم يجهرON بهرطقاتهم ويتباهون بها، وضحايا حملات التطهير الروسية كانوا يحملون تمرُّدهم داخل رؤوسهم حتى وهم يساقون عبر الممرِّ في انتظار الرصاصة القاتلة. لذلك فإنَّنا نجري للدماغ غسِلاً شاملاً قبل أنْ نعصف به. لم يسبق أنْ جئنا بأحدٍ إلى هذا المكان ثُمَّ وقف ضدنا وناهضنا لأنَّ كُلَّ شخص يخضع لغسيل دماغ، بل حتى هؤلاء الخونة الثلاثة التعساء، جونز، وآرونسون، وراذرفورد، الذين كنت تؤمن ذات يوم ببراءتهم قد انفرط عقدهم وخر عزمهم في النهاية، لقد أشرفت بنفسي على استجوابهم ورأيتهم وهم ينهارون تدريجياً ويتذللون ويتضرعون وينتحبون، وفي النهاية لم يكن كُلُّ هذا مبعثه الخوف أو الألم بل شعورهم بالندم والأسف على ما اقترفوا. وعندما انتهينا من تطهيرهم كانوا قد تحوَّلوا إلى هياكل بشرية لم يبق منها إلَّا الأُسى على ما بدر من جرائم في حق الحزب والحُبِّ للأخ الكبير. لقد كان من المؤثر فعلاً أنْ ترى مبلغ ما أصبحوا عليه من حُبِّ للأخ الكبير حتى أنَّهم تضرعوا إلينا كي نطلق عليهم الرصاص ليموتوا قبل أنْ تعلق بعقولهم التي تطهَّرت أي شيء من آثار الماضي.

كان صوت «أوبراين» قد أصبح هادئاً، ولو أن الاعتداد بالنفس الذي ظهر في شكل حماس جنوني، ظلَّ يرتسم على وجهه. فقال «ونستون» لنفسه:

«إنَّ أوبراين لا يتظاهر، كما أنَّه ليس مرئيًّا فهو يؤمن بكلِّ كلمة ينطق بها». ولم يحزن «ونستون» على شيءٍ قدر حزنه حينما أحس بدونيته الفكرية أمام عقل «أوبراين» المتوقد.

وراح «ونستون» يراقب «أوبراين» صاحب القوام المهيّب وهو يغدو ويروح في الغرفة. فرأى أنَّ «أوبراين» يفوقه في كلِّ شيء، فليس هناك فكرة خطرت على بال «ونستون» أو حتى راودته إلَّا كان «أوبراين» على علم مسبق بها وعرف كيف يفندھا تفنيّدًا رائعا، لقد احتوى بعقله عقل «ونستون»، وما دام الأمر كذلك كيف يمكن أن يكون «أوبراين» مجنونًا؟ لا ريب في أنّي أنا المجنون. وتوقف «أوبراين» عن السير وتطلع إلى «ونستون»، وقال له بصوت صارم:

- لا تتصوّر أنّك ستنقذ نفسك يا ونستون مهما كان استسلامك لنا مطلقًا، فما امرئ انحرف مرّة عن حادة الصواب ثمَّ أبقينا على حياته، وحتى لو اخترنا أن نتركك تعيش إلى أن ينقضي أجلك فتموت موة طبيعية، فلن يمكنك أبدًا أن تفلت من قبضتنا وما حدث لك هنا سيعيش معك إلى أبد الدهر، فعليك أن تعي ذلك سلفًا. إنّنا سنسحقك إلى درجةٍ لا يمكنك بعدها أن تعود بحياتك إلى سيرتها الأولى، وستحدث لك أشياء لن يمكنك أن تبرأ من آثارها حتى لو عشت ألف عام. إنّ كلَّ شيء سيموت بداخلك ولن تعود قادرًا على الحبِّ، والصدقة، أو الاستمتاع بالحياة، أو الضحك، أو الشجاعة، أو الاستقامة. ستكون أجوف لأنّنا سنعصرك حتى تصبح خواء من كلِّ شيء ثمَّ نملؤك بذواتنا.

وتوقف «أوبراين» وأشار إلى الرّجل ذي المعطف الأبيض، وأحس «ونستون» بأنَّ جهازًا ثقيلًا قد دفع إلى مكانٍ ما خلف رأسه. وجلس

«أوبراين» بجانب السرير حتى يصبح وجهه محاذاً لوجه «ونستون». وقال:
موجهاً أمره إلى الرجل ذي المعطف الأبيض.

- ثلاثة آلاف.

وفي الحال أحسَّ «ونستون» بأنَّ ضمادتين ناعميتين مبللتين تضغطان
على صدغيه، فارتعد من الخوف حينما شعر أنَّ ألمًا يتدفق في جسده، إنَّه
لون جديد من الألم، لكن «أوبراين» ربت على كتفه مطمئنًا إياه:

- لا تخف فلن يؤذيكَ الألم هذه المرَّة ولكن أبقِ عينيكَ مركَّزتين في
عينيَّ.

وفي تلك اللَّحظة أحسَّ «ونستون» بانفجارٍ مدوٍّ أو ما بدا أنَّه انفجار،
ومع ذلك لم يكن واثقًا إنَّ كان سمع صوتًا أم لا، لكن ممَّا لا شكَّ فيه أنَّه
كان مصحوبًا بوميض ضوءٍ تزيغ له الأبصار، لم يصبه ذلك بأذى وإن شعر
أنَّه انبطح على وجهه رغم أنَّه كان في الأصل مستلقيًا على ظهره وتملكه
شعور غريب بأنَّه قد قذف به إلى هذا الوضع إثر ضربة مخيفة سحقته سحقًا.
وأحسَّ بأنَّ شيئًا ما قد حدث داخل رأسه، وعندما استعادت عيناه قدرتهما
على التركيز تذكَّر مَنْ هو، وأين هو، وعرف الوجه الذي كان يُحْدق في
عينيهِ، بيد أنَّه أحسَّ بأنَّ فراغًا واسعًا قد حدث في رأسه وكأنَّما قطعة من
دماغه قد انتزعت انتزاعًا.

وقال «أوبراين»:

- لن يطول بك هذا الحال، لكن انظر إلى عينيَّ، أي دولة تحاربها أوقيانيا
الآن؟

وفكر «ونستون» مليًا، فأدرك ما يعنيه بكلمة «أوقيانيا»، وعرف أنه أحد مواطني «أوقيانيا»، كما تذكر «إستاسيا»، و «أوراسيا»، لكن لم يدر مَنْ في حرب مع مَنْ، بل إنه لم يكن يعي أن ثمة حربًا قائمة.

فأجاب:

- لا أذكر.

فقال «أوبراين»:

- إنَّ أوقيانيا في حالة حرب مع إستاسيا هل تذكر ذلك الآن؟

- نعم.

- لقد كانت أوقيانيا في حربٍ دائمةٍ مع إستاسيا، فمنذ بداية حياتك ومنذ نشأة الحزب ومنذ بداية التاريخ وهذه الحرب مشتتة دون توقف، إنها الحرب نفسها.. فهل تذكر ذلك؟

- نعم.

- منذ أحد عشر عامًا ابتدعت يا ونستون خرافة عن ثلاثة رجال كانوا قد أدينوا بالموت جراء خيانتهم وزعمت أنك رأيت قصاصة من الورق تثبت براءتهم، إن مثل هذه القصاصة لم يكن لها وجود على الإطلاق، لقد اخترعتها ثم رحلت تؤمن بها فيما بعد، هل تذكر اللحظة التي اخترعت فيها هذه الخرافة؟

- نعم.

- منذ فترة قصيرة رفعت يدي إليك فرأيت خمسة أصابع، هل تذكر ذلك؟

- نعم.

ورفع «أوبراين» أصابع كف يده اليسرى وقد أخفى الإبهام، وسأل:

- إنها خمسة أصابع، هل ترى خمسة أصابع؟

- نعم.

ولقد رآها فعلاً خمساً ولكن للحظةٍ عابرةٍ قبل أن يتغيّر المشهد أمام ذهنه. لقد رآها خمسة كاملة لا عيب ولا عاهة فيها، ثُمَّ لم يلبث أن عاد كُلُّ شيءٍ طبيعياً، وراحت تنداعى عليه من جديد مشاعر الخوف والكراهية والحيرة. لكن لفترةٍ لم يدرك مداها، لعلّها كانت لحظات من اليقين المشرق كان فيها كُلُّ إحياء جديد من إحياءات «أوبراين» يملأ جزءاً من الفراغ الذي في رأسه ويصبح حقيقة مطلقة، لحظات يمكن فيها أن يكون اثنان واثنان يساويان ثلاثة أو خمسة حسبما يتطلب الأمر. وما إن رفع «أوبراين» يده من فوق رأسه حتى انقشع عنه ذلك الكابوس ورغم أنّه لم يستطع أن يستعيده ثانية، فقد ظلّ يذكره كما يذكر المرء واقعة حية ألّمت به منذ فترة بعيدة كان فيها شخصاً مختلفاً.

وقال «أوبراين»:

- لعلك ترى الآن أنّ ما حدّثتك به ممكن؟

فأجاب «ونستون»:

- نعم.

نهض «أوبراين» وقد ارتسمت على وجهه علامات الرّضا، وعن يساره رأى الرّجل ذا المعطف الأبيض يكسر أنبوبة ثُمَّ يسحب بمحقنة ما بها من سائل. والتفت «أوبراين» إلى «ونستون» وعلى شفّتيه ابتسامة وهو يعيد تثبيت نظارته فوق أنفه جرياً على عادته القديمة، وقال:

- هل تذكر ما دَوّنته في مذكراتك من أنّه لا يهتمك أن أكون صديقاً أو عدوّاً ما دمت على الأقلّ شخصاً يفهمك، ويمكنك أن تتحدّث معه؟ لقد

كنت على صواب، إنني أجد متعة في الحديث إليك، إنَّ عقلك يستهويني
لأنه يشبه عقلي في كُلِّ شيء، عدا أنَّه مُصاب بمسٍّ من الجنون، لكن قبل أن
تنتهي هذه الجلسة يمكنك إذا شئت أن تلقي عليَّ بضعة أسئلة.

- أي سؤال أريد؟

- نعم أي سؤال.

ولاحظ «أوبراين» أن عينيَّ «ونستون» معلقتان بالقرص، فطمأنه أنَّه قد
فصل عنه التيار، وقال له:

- هات سؤالك الأول.

فقال «ونستون»:

- ماذا فعلتم بـ «جوليا»؟

فابتسم «أوبراين» ثانيةً، ثمَّ قال:

- لقد خاتمتك يا ونستون بلا إبطاءٍ أو تحفِظٍ. إنني لم أر في حياتي إلا نادرًا
أحدًا يثوب إلى رشده بمثل هذه السرعة، ولو أنَّك رأيته الآن لما عرفتها
بعد أن اجتشتنا كُلَّ ما علق بها من أدران التمرد والخداع والجهالة والميول
الجنسيَّة. لقد حدث لها تحوُّل تام وأصبحت نموذجًا يُحتذى ويدرس.

- هل عذبتموها؟

ولم يجب «أوبراين» عن هذا السؤال، بل قال:

- هات سؤالك الثاني.

- هل للأخ الكبير وجود؟

- لا ريب أنَّه موجود وكذلك الحزب موجود، ففي الأخ الكبير يتجسّد الحزب.

- وهل هو موجود مثلي، كما أنا موجود وبالشكل ذاته؟

فأجاب «أوبراين»:

- إنَّك غير موجود.

ومرّة ثانية أحس «ونستون» بنويّة من العجز تجتاحه، فقد كان يعرف، أو يمكنه أن يتخيّل، أنَّ الحجج التي يدفع بها للتدليل على عدم وجوده هي مُجرّد هراء لا معنى له ولا تعدو أن تكون مُجرّد تلاعب بالكلمات، ألا تحتوي عبارة: «إنَّك غير موجود» على سخفٍ منطقي، ولكن ما الجدوى من أن تقول ذلك؟ وارتعد عقله عندما فكّر في الحجج الجنونية القاطعة التي سيفحمه بها «أوبراين».

وقال بإعياء:

- أعتقد أنّي موجود، إنَّني أعني ذلك، لقد وُلدت وسوف أموت، ولي ذراعان وساقان، وأشغل حيزًا في الفضاء ولا يستطيع جسم آخر أن يشغل الحيز نفسه في الوقت نفسه. بهذا المعنى أسأل:

- هل للأخ الكبير وجود؟

- ليس لما تقول أي أهمية، إنَّه موجود.

- وهل سيموت الأخ الكبير في يومٍ من الأيام؟

- طبعًا لا، كيف يمكن أن يموت؟ هات سؤالك التالي.

- هل لحركة الإخوة وجود؟

- هذا ما لن تعرفه يا ونستون، ولئن رأينا أن نطلق سراحك بعد أن نفرغ من تطهيرك، ولئن امتد بك الأجل حتى تبلغ التسعين من العمر فلن تعلم ما إذا كان جواب سؤالك هذا نعم أو لا. وما دمت حيًّا سيظلّ هذا السؤال هو اللغز المحير الذي لن يجد عقلك حلًّا له.

وخيم على «ونستون» الصَّمت لبعض الوقت، وراح صدره يعلو ويهبط بسرعةٍ أكثر قليلًا، ولم يكن قد سأل بعد السؤال الذي خطر بباله أوَّلاً، وكان يشعر أن عليه أن يوجه هذا السؤال لكن لسانه لم يكن يطاوعه. أمّا «أوبراين» فقد ارتسمت على وجهه مسحة تهكم، بل حتى نظارته أخذت تكتسي بالمسحة نفسها. وفجأةً خطر لـ «ونستون» أن «أوبراين» يدرك ما يدور بخلدّه ولا بدَّ أنّه على معرفةٍ بالسؤال الذي يعتزم أن يسأله. ولم يكد ينتهي من هذه الفكرة حتى اندفعت الكلمات من بين شفتيه:

- ماذا يوجد في الغرفة 101؟

ولم يتغيَّر التعبير المرتسم على وجه «أوبراين»، وأجاب بجفاء:

- إنَّك تعرف ماذا يوجد في الغرفة 101 يا ونستون، بل إنَّ كلَّ شخص يعرف ماذا يوجد في هذه الغرفة.

وأشار «أوبراين» بأصبعه إلى الرّجل ذي المعطف الأبيض وبدا جليًّا لـ «ونستون» أن الجلسة قد انتهت، وسرعان ما انغرست إبرة في ذراعه راح على أثرها في نوم عميقٍ.

متى يطلقون رصاصة الرحمة؟

When do you shoot a bullet of mercy ?

■ ■ ■ ■

قال «أوبراين»:

- هنالك مراحل ثلاث لابدّ أن تمرّ بها حتى تتم إعادة تأهيلك من جديد، وهي التعليم، ثمّ الفهم، ثمّ القبول، وقد آن أوان دخولك المرحلة الثانية.

كان «ونستون» كالعادة، ممدودًا على ظهره فوق السرير، وكانت الأربطة التي تشدّه إليه قد باتت أقلّ استحكامًا، فأصبح في استطاعته أن يُحرّك ركبتيه قليلًا، وأن يدير رأسه من جانب إلى آخر، وأن يرفع ذراعيه حتى المرفقين، كما لم يعد القرص مدعاة للفرع لديه، فقد بات بمقدوره أن يتجنّب نوبات الألم التي يطلقها في جسده طالما كان سريع البديهة، فغالبًا كان «أوبراين» لا يسحب ذراع القرص إلّا حينما يبدي «ونستون» حمقًا أو غباءً. ولم يكن «ونستون» يتذكّر عدد الجلسات التي خضع لها، بل إنّ العملية برمتها بدت وكأنّها قد امتدت وقتًا طويلاً.

وقال «أوبراين»:

- لابدّ أنّك سألت نفسك بل إنّك قد سألتني بالفعل، وأنت مُمدّد فوق هذا السرير عن السبب الذي يجعل وزارة الحُبّ تهدر كلّ هذا الوقت من أجلك، بل حتى عندما كنت حُرًّا كنت تقف أمام السؤال نفسه حائرًا، فقد كان بوسعك أن تفهم آليات المجتمع الذي تعيش فيه، ولكنك عجزت عن

إدراك الدوافع الكافية التي تُحركه. ولقد قرأت كتاب جولدشتاين أو أجزاء منه على الأقل، فهل وجدت فيه شيئاً لم تكن تعرفه بالفعل؟

فسأله «ونستون» بدوره:

- وهل قرأته أنت؟

فأجاب «أوبراين»:

- بل قل كتيبه، أو حتى أكون أكثر دقة، لقد اشتركت في وضعه، فكما تعلم ما من أحد يؤلف كتاباً بمفرده.

- وهل ما يقوله الكتاب صحيح؟

فأجابه «أوبراين»:

- أمّا الوصف الذي يقدمه فصحيح، وأمّا البرنامج الذي يضعه فهراء لا قيمة له، فكلّ ما يقوله عن التراكم السري للمعرفة والانتشار التدريجي للفكر التنويري اللذين يفضيان في نهاية الأمر إلى ثورة البروليتاريا والإطاحة بالحزب لا يعدو أن يكون هراء، لأنّ البروليتاريا لن تقوم بالثورة، ولو بعد مليون سنة، فليس ثمة سبيل للإطاحة بالحزب الذي سيظلّ في حكمه قائماً إلى أبد الدهر.

عندئذ اقترب «أوبراين» من «ونستون» وراح يُردّد:

- إلى أبد الدهر. إنك تفهم جيداً كيف يحتفظ الحزب بالسلطة، ولكن قل لي لماذا تتشبث بالسلطة؟ لماذا نريدها؟ تكلم!

ولكن «ونستون» ظلّ ملتزماً بالصمت. لقد غمره شعور بالإعياء واليأس، ولمح من عيني «أوبراين» أنّ الحماس المجنون بدأ يعاوده من جديد. كان يعرف سلفاً ماذا سيقول «أوبراين»، أنّه سيقول إن الحزب لم يسع إلى السلطة

من أجل مآربه الخاصّة وإنّما من أجل مصلحة الأغلبية، وإنّ ما سعى للسلطة إلّا لأنّ الجماهير العامّة مخلوقات هشة جبانة لا يمكنها احتمال مسؤولية الحرّيّة أو مواجهة الحقيقة، ومن ثمّ يجب أن يتمّ تسيير شؤونهم وخدماتهم بطريقة منهجيّة، وعلى البشرية أن تختار بين خيارين لا ثالث لهما. فإنّما الحرّيّة وإنّما السّعادة، ودائمًا تفضل الغالبية العظمى من الجنس البشري السّعادة على الحرّيّة. إنّ الحزب هو الوصي الأبدي على المستضعفين وإنّهم يضحون بسعادته من أجل سعادة الآخرين. إنّ «أوبراين» يعرف ما تُعانيه هذه الجماهير من إذلال وانحطاط. كان «أوبراين» يفهم هذا جيدًا. ومع ذلك لم يكن لذلك أهمية، فكلّ شيء مبرر باسم الغاية النهائيّة.

وتساءل «ونستون» بينه وبين نفسه: «ماذا تستطيع أن تفعل حيال معجون أكثر ذكاء منك ويصغي جيّدًا إلى حججك لكنه يتمسك بجنونه؟».

قال «ونستون» بصوتٍ واهن:

— إنّكم تحكموننا من أجل مصلحتنا، وفي سبيل منفعتنا، فأنتم تؤمنون أنّ البشر لا يصلحون لحكم أنفسهم بأنفسهم ومن ثمّ...

وتوقف «ونستون» عن الكلام عندما شعر بوخزات ألم مفاجئة تتدفق في جسده حينما دفع «أوبراين» ذراع القرص إلى خمسة وثلاثين.

وقال «أوبراين»:

— هذا غباء وسخافة يا ونستون، ما كان ينبغي أن تنطق بشيءٍ مثل هذا.

وسحب ذراع القرص إلى مكانه ثمّ مضى يقول:

— والآن سأعطيك جوابًا عن سؤالك... إنّ الحزب يسعى إلى بلوغ السلطة لذاتها، وإنّ مصالح الآخرين لا تعنينا في شيءٍ، فكلّهمنا هو محصور في السلطة والسلطة المطلقة فقط، لقد بلغ النازيون الألمان والشيوعيون

الروس حدًا جعلهم جد قرييين منا في مناهجهم ولكنهم لم يمتلكوا من الشجاعة ما يكفي الاعتراف بدوافعهم. لقد ادَّعو، بل ربما اعتقدوا أنَّهم بلغوا السلطة وهم لها كارهون وأنَّهم لن يمكنوا فيها إلَّا لأجل محدود، وأنَّه لم يعد يفصلهم شيء عن الفردوس الموعود الذي يحيا فيه الناس أحرارًا متساوين. إنَّنا لا نشبه هؤلاء. إنَّنا ندرك أنَّه ما من أحد يمسك بزمام السلطة وهو يتنوي التخلي عنها. إن السلطة ليست وسيلة بل غاية، فالمرء لا يقيم حكمًا استبداديًا لحماية الثورة، وإنَّما يشعل الثورة لإقامة حكم استبدادي. إن الهدف من التعذيب هو التعذيب وغاية السلطة هي السلطة. هل بدأت تفهم ما أقوله الآن؟

وهال «ونستون»، مثلما هاله من قبل، ما بدا على وجه «أوبراين» من علامات التعب والإرهاق. مال «أوبراين» فوق «ونستون» متعمدًا أن يقترب منه أكثر بوجهه المهترئ، وقال:

- لعلك تُفكِّر في وجهي المتعب الذي زحفت عليه علامات الشيخوخة، وإنَّني أحدثك عن السلطة بينما لا أستطيع أن أوقف انحلال جسدي. ألا تستطيع يا ونستون أن تفهم أن المرء إنَّ هو إلَّا خلية، وإنَّ هناك الخلية هو تجديد لنشاط الكائن الحي. هل تموت يا ترى عندما تُقلَّم أظفارك؟

واستدار «أوبراين» مبتعدًا عن السرير وراح يزرع الغرفة جيئةً وذهابًا وقد وضع يده في جيبه، ثُمَّ مضى يقول:

- إنَّنا كهذه السلطة، والله هو السلطة، لعلك تعرف شعار الحزب القائل: الحُرِّيَّة هي العبودية، فهل خطر ببالك من قبل أنَّ هذا الشعار يمكن قلبه ليصبح: العبودية هي الحُرِّيَّة. فالإنسان حينما يكون وحيدًا وحرًّا، دائميًا ما يُقهر ويُغلب، بيد أنَّه إذا استطاع هذا الإنسان أن يخضع خضوعًا تامًّا وأن يتخلص من ذاتيته، وأن يذوب ذوبانًا تامًّا في الحزب حتى يصبح هو الحزب،

فإنَّه حينئذ يُمنح القوَّة والخلود. والأمر الثاني الذي يجب أن تدركه هو أن السلطة هي سلطان على البشر، على أجسامهم وعلى عقولهم قبل كل شيء. واستطرد يقول:

- إنَّ السلطة أيضًا هي تمزيق العقول البشرية إلى أشلاء ثمَّ جمعها ثانية وصياغتها في قوالب جديدة من اختيارنا. إنَّه النقيض التام لـ «يوتوبيا»⁽¹¹⁾ المدينة الفاضلة التي تصورها المصلحون الأقدمون، إنَّه عالم الخوف والغدر والتعذيب، عالم يدوس الناس فيه بعضهم بعضًا، عالمٌ يزداد قوَّة كلَّما ازداد نقاء. لقد زعمت الحضارات الغابرة أنَّها قامت على الحبِّ والعدالة، أمَّا حضارتنا فهي قائمة على الكراهية، ففي عالمنا لا مكان لعواطف غير الخوف والغضب والانتشاء بالنصر وإذلال الذات، وأي شيء خلاف ذلك سندمره تدميرًا، لقد قصصنا عرى العلاقة بين الطفل ووالديه، وبين الرِّجل والمرأة، ولم يعد أحد يجروُ على الثقة بزوجه وأطفاله، بل إنَّه في المستقبل لن يكون هنالك زوجات أو أصدقاء وسوف نقضي على الغريزة الجنسيَّة ونبيدها، أمَّا الإنجاب فسيكون إجراءً سنويًا رسمي الطابع مثله مثل تجديد بطاقة الحصص التمولينية. ولن يكون هناك ضحك، إلا الضحك الذي يصحب نشوة النصر على العدو المقهور، ولن يكون هناك فن أو أدب أو علم. كما ستزول الفروق بين الجمال والقبح، ولن يكون هناك حُبُّ الاستطلاع أو التمتُّع بالحياة. ولكن حذار أن تنسى يا ونستون أنَّ الرِّغبة

(11) اليوتوبيا، أو الطوباءويَّة أو المآليَّة هي ضرب من التأليف أو الفلسفات التي يتخيل فيها الكاتب الحياة في مجتمع مثالي لا وجود له، مجتمع يزخر بأسباب الرِّاحة والسَّعادة لكل بني البشر. وإلى هذا المعنى في اليونانية يرجع استخدام المصطلح الذي اشتقه سير «توماس مور» في عمله اللاتيني utopia يوتوبيا. ولعلَّ هذا النوع من التأليف يضرب بجذوره في جمهورية أفلاطون التي تُقدِّم رؤيته في السياسية والحكم، ومن ثمَّ يغلب على أعمال الأدب الطوبوي طابع سياسي حالم بمجتمع فاضل يسعد أهله بلا استثناء. (المُعد).

في السلطة ستظل مشبوبة وستزداد دهاء. وإذا كنت تريد أن تستشرف صورة المستقبل، تخيّل حذاء يدوس ويدمغ وجه إنسان إلى الأبد.

وهنا توقف «أوبراين» عن الكلام وكأنّه توقع من ونستون أن يتكلم، ولكن «ونستون» لم يستطع أن يتلفظ بكلمةٍ، فاستأنف «أوبراين» حديثه قائلاً:

- ولتذكّر أن الوجه سيظلّ دائماً تحت الحذاء، فدائماً هناك الهرطوقي، عدو المجتمع، الذي يمكن قهره وإذلاله. إنّ كُلّ ما عانيته منذ وقعت في قبضتنا سيتواصل ويزداد سوءاً، كما لن تتوقف مطلقاً عمليات التجسس والخيانة والاعتقالات والتعذيب وأحكام الإعدام وحوادث اختطاف الناس. وسيصبح العالم عالم الرُّعب بقدر ما هو عالم الانتصارات. وكُلّما ازداد الحزب قوّة ومنعة قلّت درجة تسامحه، وكُلّما ضعف معارضو السلطة اشتدت قبضة الاستبداد والطغيان، أمّا جولدشتاين فسيتم قهره، والبصق عليه، ومع ذلك سيبقى موجوداً وستبقى هرطقاته. إنّ هذه المسرحية الدرامية التي مثلتها معك على مدى سبع سنوات مضت، سيُعاد تمثيلها مرّة تلو مرّة، وجيلًا تلو جيل ودائماً بأشكالٍ أكثر دهاء، ولسوف نجعل المهرطق دائماً تحت رحمتنا، يئن من الألم، مُحطّماً ومحتقراً، وفي النهاية سيأتي من نفسه نادماً بعد أن ينتصر على نفسه السيئة ويركع طالباً العفو والصفح. إنّ ذلك هو العالم الذي نعدّه يا ونستون. إنّني أعتقد أنّك بدأت تدرك ما سيكون عليه العالم، ولكن في النهاية سيطلب منك ما هو أكثر من الإدراك، سوف يُطلب منك أن تقبل هذا العالم وترحب به وتصبح جزءاً منه.

وكان «ونستون» قد استعاد قدرًا من عافيته بحيث أصبح قادرًا على الكلام. فقال بصوتٍ خافت:

- إنَّكم لن تستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

- ماذا تعني بهذا الكلام يا ونستون؟

- إنَّكم لن تستطيعوا خلق عالم كالذي وصفته فذلك حُلْم يستحيل تحقيقه.

- ولماذا؟

- لأنَّه من المستحيل أن نؤسَّس حضارة على الخوف والكراهية والقسوة، فمثل هذه الحضارة إن وجدت لا يمكن أن تبقى.

- ولمَ لا؟

- لأنَّها ستكون خلواً من أي حيوية ومن ثمَّ ستفسخ وتنهار من داخلها.

- هذا هراء، إنَّك واقع تحت تأثير الاعتقاد بأنَّ الكراهية تستنزف طاقات الإنسان أكثر ممَّا يفعل الحُب فلمَ ذلك؟ وحتى لو افترضنا أن اعتقادك صحيح، فما أهمية ذلك؟ ولنفترض أنَّنا اخترنا أن نفني أنفسنا بشكل أسرع، فما أهمية ذلك ألاَّ تستطيع أن تفهم أن موت الفرد ليس موتاً ما دامَّ الحزب خالداً أبدياً؟

وكالعادة ترك صوت «أوبراين» في «ونستون» حالةً من العجز واليأس، إلَّا أنَّه لم يحتمل البقاء صامتاً، ولذلك عاود «ونستون» الهجوم ولكن بصوتٍ خافت:

- لست أدري ولست أبالي، لكنكم ستفشلون على أية حال، إنَّ شيئاً ما سيقهركم، إنَّ الحياة نفسها ستتهزمكم.

فرد «أوبراين»:

- إنَّنا نسيطر على الحياة في جميع مستوياتها يا ونستون، لعلك عدت إلى فكرتك القديمة التي تعني أن العامة أو العبيد سيثورون علينا ويطيحون بنا من سدة الحكم. أخرج هذه الفكرة من ذهنك تماماً لأنَّ هؤلاء عاجزون عجز الحيوانات، ولأنَّ البشرية هي الحزب نفسه.

- إنني لا أبالي بما تقول، ففي النهاية سوف يهزمونكم سوف يرونكم على حقيقةكم إن عاجلاً أو آجلاً وساعتها سيمزقونكم إرباً إرباً.

- هل لديك دليل على أن ذلك سيحدث؟

- كلاً، ولكنني أعتقد ذلك، ففي هذا العالم شيء لا أدري طبيعته، ربما يكون روحاً أو مبدأ، لن تغلبوا عليه مطلقاً.

- هل تؤمن بالله يا ونستون؟

- كلا.

- إذاً، أي مبدأ ذلك الذي ترى أنه سيهزمنا؟

- لست أدري، ربما كانت روح الإنسان.

- وهل تعتبر نفسك إنساناً.

- أجل.

- إن كنت إنساناً يا ونستون فأنت آخر إنسان، لقد انقرض نوعك. هل تدرك أنك أصبحت خارج مجرى التاريخ. إنك لست موجوداً.

ثم تغيرت لهجته وقال بصوتٍ أشد خشونة:

- إنك تعتبر نفسك أسمى منّا خلقاً لما تعرفه عنا من كذب وقسوة؟

- أجل، إنني أعتبر نفسي كذلك.

وهنا سكت «أوبراين» عن الكلام، وسمع صوتان آخران يتكلمان. وبعد لحظة أدرك «ونستون» أن أحد الصوتين صوته هو، لقد كان شريطاً مسجلاً للحديث الذي دار بينه وبين «أوبراين» في حوار ليلة انضمام «ونستون» إلى جماعة «الإخوة». وسمع «ونستون» نفسه وهو يعد بأن يكذب ويسرق ويزور

ويقتل ويروج المخدرات ويشجع الدعارة وينشر الأمراض الجنسيّة ويشوه
وجوه الأطفال. وقام «أوبراين» بإشارةٍ تدل على نفاذ صبره، ثمّ ضغط على
مفتاح فأوقف الصوت.

وقال:

- انهض من ذلك السرير.

وانحلت الأربطة من تلقاء ذاتها، فنزل «ونستون» عن السرير ووقف
مترنحًا.

وقال «أوبراين»:

- سوف ترى نفسك على حقيقتها. انزع عنك ثيابك.

فك «ونستون» الرباط الذي كان يمسك ثيابه، ثمّ خلع ملابسه الداخلية
وما إن طرحها أرضًا ووقف عارياً حتى رأى مرآة ذات ثلاثة أوجه في الطرف
الأقصى من الغرفة، فدنا منها ثمّ توقف مفزوعًا وانخرط في بكاءٍ حاد دون
إرادة منه.

لقد رأى «ونستون» نفسه هيكلاً عظمياً منحني الظهر رمادي اللون، ودنا
«ونستون» أكثر من المرأة فرأى وجهًا ناتئة عظامه، وخُيِّل إليه أنّه يرى وجه
طائر بئس محبوس في قفص، ووجهة ضامرة تنتهي برأس صلعاء، وأنف
معقوف، وعظام خدين تبدوان محطمتين وترتكز عليهما عينا تشعان خوفًا
وحذرًا، وكان الخدان مجعدين والفم مسحوبًا للداخل.

وقد رأى جسمه كلّ رماديًا وقد اصطبغ بأقذار قديمة قد علفت به. وكانت
تتشرب في كلّ أنحاء جسمه وتحت هذه الأقذار ندبات جروح ملتهبة. لقد
أفزعته حقًا الهزال الذي حلّ بجسمه، لقد ضاق قفص أضلعه حتى بدا هيكلاً
عظمياً، ونحلت ساقاه حتى بدت ركبته أغلظ من فخديه. لقد تقوس العمود

الفقري. وكانت رقبته النحيلة تنوء تحت ثقل جمجمته. ولو أن «ونستون» سئل أن يخمن مَنْ هو صاحب ذلك الجسم. لقال إنه جسم رجل في الستين يُعاني من مرضٍ عضال.

قال «أوبراين»:



- لقد كنت ترى أحيانًا
أن وجهي الذي هو بمثابة
وجه الحزب الداخلي
هرمًا متعبًا، فكيف ترى
وجهك الآن؟

وأمسك «أوبراين»
«أوبراين» يخلع سنًا من أسنان «ونستون»
بكتف «ونستون» وأداره نحوه، ثم استطرد قائلاً:

- انظر إلى ما آلت إليه حالك! انظر إلى الأوساخ تكسو جسدك، انظر إلى
القدارة تتخلل أصابع قدميك. هل تعلم أنك أصبحت أنتن من عنزة قدرة؟
انظر إلى الهزال الذي ألمَّ بك، هل تراه؟ في استطاعتي أن أنتزع رقبتك مثل
جزرة. هل تعلم أنك فقدت خمسة وعشرين كيلو جرامًا من وزنك منذ أن
وقعت في قبضتنا؟ حتى شعر رأسك صار يتساقط بغزارة. افتح فمك، أه لم
يبق في فمك إلا أحد عشر سنًا. هل تذكر كم كان عددها عندما جئت إلينا؟
بل إن البقية الباقية تتساقط هي الأخرى أيضًا.

وأمسك سنًا من أسنان «ونستون» الباقية وانتزعها بإبهامه وسبابته من
جذوره، ثم رمى «أوبراين» السن فوق أرض الزنزانة.

ومضى «أوبراين» يقول:

- إِنَّكَ تَهْتَرِئُ وَتَتَأْكَلُ. إِنَّكَ لَمْ تَعُدْ إِلَّا كَيْسًا مِنَ الْأَقْدَارِ.. وَالْآنَ ارْتَدَّ ثِيَابُكَ.

وبدأ «ونستون» يرتدي ثيابه بحركاتٍ بطيئةٍ متخشبةٍ. وفجأةً وبعد أن ارتدى تلك الأسمال مرةً أخرى تملكه شعور بالأسى على جسمه البالي، فجلس على مقعد بجوار السرير ثم راح يزرف الدمع الحزين على حاله. لقد أدرك أنه أصبح قبيحًا وبشعًا فراح يبكي، ثم وضع «أوبراين» يده على كتفه بقدرٍ من اللطف، وقال له:

- لن تظلّ على هذه الحال إلى الأبد، يمكنك أن تنجو بنفسك من هذه الحال إذا شئت. إنَّ كُلَّ شيءٍ مرهون بإرادتك.

فقال «ونستون» بين شهقات بكائه:

- إِنَّكَ أَنْتَ الَّذِي أَوْصَلْتَنِي إِلَى هَذِهِ الْحَالِ.

فرد «أوبراين»:

- كَلَّا يَا وَنْستون، بل أَنْتَ الَّذِي أَوْصَلْتَ نَفْسَكَ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ حِينَما نَصَّبْتَ مِنْ نَفْسِكَ عَدُوًّا لِلْحِزْبِ. وما من شيءٍ حدث لك إِلَّا وَكنت على بينةٍ مِنْ أَنَّهُ سَيُحْدِثُ.

وتوقف برهة عن الكلام ثم استأنف قائلاً:

- لقد ضربناك يا ونستون وحطمتناك. إن عقلك قد أصبح في مثل حال جسمك، ولا أظنّ أنه قد بقي لديك شيء من كبريائك. لقد ركعت طالبًا الرَّحمة، وخت كلَّ شخص، أو شيء كنت تعرفه. هل تستطيع أن تجد لونا من الإهانة والإذلال لم تذقه على أيدينا.

وكفَّ «ونستون» عن النجيب رغم أن الدموع ظلت تنهمر من عينيه وتطلَّع إلى «أوبراين» وهو يقول:

- لكنني لم أخن جوليا!

فنظر إليه «أوبراين» بإمعانٍ، ثُمَّ قال:

- هذا صحيح، إنَّك لم تخن جوليا.

وعاد التبجيل الغريب، الذي كان «ونستون» يكنه لـ «أوبراين»، يغمر قلبه من جديد. وقال مُحدِّثاً نفسه: «كم هو متوقد الذكاء، إنَّه لم يخفق مرَّة واحدة في استكناه ما يُقال له. فأَيُّ شخص آخر في مكانه كان سيجيب عن سؤالي بأنَّني قد خنت جوليا. فليس هنالك ما عجز أوبراين عن انتزاعه مني تحت وطأة التعذيب. ولا بدَّ أنَّني أنبأتهم بكلِّ شيء عنها وعن عاداتها وشخصيتها وحياتها الماضية. ولا شكَّ أنَّني قد اعترفت بتفاصيل كلِّ ما جرى بيننا في لقاءاتنا، وكلُّ ما قالته لي وقلته لها، وبتأمُرنا على الحزب. ولكنه قال بأنَّني لم أخن جوليا لإدراكه أنَّني لم أزل أحبُّها».

وسأل «ونستون»:

- أخبرني، متى سيطلقون عليَّ الرصاص؟

فرد «أوبراين»:

- ربما يتعيَّن عليك أن تنتظر طويلاً، فأنت حالة صعبة. لكن لا تقطع حبل الرجاء، فكلُّ شخص لا بدَّ أن نشفيه إن عاجلاً أو آجلاً. ولسوف نطلق عليك الرصاص في نهاية المطاف.

* * * *

إلى الغرفة 101

To room 101

كانت حالة «ونستون» الصحيّة تتحسن تحسُّناً واضحاً. كان الضوء الباهر وصوت الطنين مستمرين تماماً كما كان من قبل، غير أنَّ سُبُل الرَّاحة بالزنزانة أصبحت متوافرة أكثر بقليلٍ من ذي قبل. فوضعوا له على السرير فراشاً ووسادة، وسمحوا له بالاستحمام بصورةٍ منتظمةٍ في حوضٍ من الصفيح، كما زوّده بملابس داخلية وبذلة، وعالجوا دوالي الساقين الملتهبة وقدّموا له طقم أسنان اصطناعية بعد أن خلعوا ما كان قد بقى له من أسنان.

ولابدّ أن أسابيع وربما شهوراً قد مرّت وهو على هذه الحال، وقد أصبحت له وجبات للطعام تُقدَّم له بصفة منتظمة، وحسب تقديره كان يتناول ثلاث وجبات خلال الأربع وعشرين ساعة، بل وذات مرّة أعطوه علبة من السجائر، ولأنّه لم يكن لديه ثقاب فقد كان الحارس الصامت دائماً يعطيه ثقاباً.

وأعطوه لوحاً للكتابة وقلم رصاص لكنه لم يستعملهما أوّل الأمر، فحتي في فترات استيقاظه كان يشعر وكأنّه مُخلدٌ، فقد كان يستغرق في نوم عميق في بعض الأحيان، بينما يروح في أحيانٍ أخرى في حالةٍ من التأمل والتفكير كان يتعذر عليه خلالها أن يفتح عينيه رغم أنّه كان قد ألف منذ وقت طويل أن ينام والضوء القوي مسلّط على وجهه.

كما كان يحلم أحلامًا كثيرةً كانت سارة في معظمها، فتارةً يتراءى له أنه في الريف الذهبي، وتارة أخرى يتراءى له أنه جالس وسط أطلال ضخمة تنعكس عليها أشعة الشمس وبصحته أمه، و«جوليا»، و«أوبراين» لا يفعلون شيئًا سوى الجلوس تحت أشعة الشمس والحديث عمّا ترتاح له النفس.

وعلي نحوٍ تدريجي صار يمضي ساعات أقل في النوم، إلا أنه لم يكن يشعر بأي دافع لمغادرة فراشه، فقد كان كلُّهم أن يستلقي في هدوءٍ ويستشعر العافية وهي تدب في أوصاله من جديد. وبعد فترة بدأ، بشيءٍ من النفور أول الأمر، يمارس بعض التمرينات الرياضية على نحو اعتيادي. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح بمقدوره أن يمشي ثلاثة كيلومترات مُقدِّراً إيَّاهما بخطواته التي يقطعها داخل الزنزانة.

وازداد ذهنه نشاطاً، فقد كان يجلس في السرير متكئاً بظهره إلى الحائط وواضعاً لوح الكتابة على ركبتيه محاولاً الشروع في إعادة تثقيف نفسه.

لقد قرّر الاستسلام، هذه مسألة لا ريب فيها، فمنذ اللحظة التي أدخل فيها إلى وزارة الحبِّ، بل منذ أن وقف هو و«جوليا» متسمرين في مكانهما حينما راح ذلك الصوت المنبعث من «شاشة الرصد» يملّي عليهما ما يفعلانه، أدرك سخف وحماقة سعيه لأن يُنصَّب من نفسه عدوًّا للحزب. لقد أدرك الآن أنه وعلى مدى سبع سنوات كانت «شرطة الفكر» تراقبه مثل خنفساء تحت عدسة مُكبَّرة، كما أنهم أسمعوه أشرطة صوتية مسجلة وجعلوه يرى صوراً فوتوغرافية بعضها كانت تجمع بينه وبين «جوليا». لقد خلص إلى أنه لم يعد يستطيع أن يناصب الحزب العداء فضلاً عن أن الحزب على حق دائماً، إذ كيف يعقل أن يكون العقل الجماعي الخالد على خطأ!

وحينما شعر بأن القلم بات غليظاً ومزعجاً لأصابعه راح يسجل الأفكار التي كانت تدور برأسه، فكتب وبأحرفٍ كبيرة غير واضحة:

الْحُرِّيَّةُ هِيَ الْعُبُودِيَّةُ.

وقد كتب تحتها:

اثنان واثنان يساويان خمسة.

لقد تَقَبَّلَ كُلُّ شَيْءٍ، وخلص إلى أَنَّ الماضي قابل للتغيير رغم أَنَّهُ لم يتغير أبداً. كما اقتنع بأنَّ «أوقيانيا» كانت في حربٍ مع «إستاسيا» وأَنَّها كانت في حربٍ معها بصفةٍ دائمةٍ، وبأنَّ كُلًّا من: «جونز»، و«آرنسون»، و«راذرفورد» قد اقترفوا الجرائم التي أدينوا بها وبأنَّه لم ير أبداً الصورة التي تبرئ ساحتهم. إِنَّ أيَّ شَيْءٍ يمكن أن يكون صحيحاً، وليس فيما يُدعى بـ «قوانين الطبيعة» إلاَّ هراء، وقانون الجاذبية ما هو إلاَّ عبث.

وكان يتساءل دائماً: «متى سيطلقون عليَّ النار؟». لقد قال «أوبراين» إِنَّ الأمر كُلَّهُ يتوقف عليك، ولكنه كان يدرك أَنَّهُ ليس في استطاعته أن يفعل ما يُقَرِّب هذا الأمر، فقد يحدث ذلك لك خلال عشر دقائق من الآن أو عشر سنوات، وربما يُنْفَى في سجن انفرادي لسنواتٍ، وربما يرسلونه إلى معسكر من معسكرات الأشغال الشاقة، أو ربما يطلقون سراحه ردحاً من الزمن. أمَّا الشَّيْء الوحيد الذي كان واثقاً منه هو أَنَّ الموت لن يأتيه إلاَّ بغتة، فقد كان عَرَفاً غير مُعلن أن يطلقوا النار على المرء من الخلف، ودائماً في مؤخرة الرأس، ومن دون إنذار سابق أثناء سيره من زنزانه إلى أخرى عبر أحد الممرَّات.

وأغمض «ونستون» عينيه، وفي هذه اللَّحظة سمع وقع أقدام ثقيلة في الممرِّ، وفتَح الباب الحديدي فأحدث صوتاً عالياً ليدلف منه «أوبراين» إلى الزنزانة يتبعه الضابط الشاب ذو الوجه الكالح، والحراس ذوو الزي الأسود. وقال «أوبراين»:

— انهض يا ونستون وتعال إلى هنا.

ووقف «ونستون» قبلته فأمسك «أوبراين» كتفيه بيديه القويتين ونظر إليه متأملاً، وقال له:

- لقد راودتك أفكار تدعوك لخداعي، لقد كان ذلك رعونة منك.. قف على قدميك وشدّ قامتك وانظر إلى عينيّ.

وتوقف عن الكلام برهة، ثمّ مضى يقول، ولكن بلهجة أقل حدة:

- إنّ حالتك آخذة في التحسّن، فمن الناحية الفكرية لم يعد يعلق بك غير أخطاء طفيفة، أمّا من الناحية العاطفية فقد أخفقت في إحراز تقدّم يذكر. أخبرني يا ونستون، ولكن دون كذب أو خداع، ولعلك تدرك الآن أن باستطاعتي أن أعرف متى تكذب في حديثك ومتى تصدق، أخبرني ما هي مشاعرك الحقيقية إزاء الأخ الكبير؟

فأجاب «ونستون»:

- إنني أكرهه.

فقال «أوبراين»:

- تكرهه؟ حسنًا.. لقد آن الأوان لأن تخطو الخطوة الأخيرة. يجب أن تُحبّ الأخ الكبير فلا يكفّ أن تطيعه وأنت لا تُحبّه. خذوه إلى الغرفة 101.

* * * *

الققص الرهيب

The Terrible Cage

كانت الغرفة التي يقبع فيها «ونستون» حاليًا تقع في أعماق سحيفة تحت الأرض حيث أعمق نقطة يمكن بلوغها.

كانت هذه الغرفة أكثر اتساعًا من معظم الزنانات التي نزل بها، وكلّ ما لاحظته حوله هو طاولتان صغيرتان موضوعتان أمامه مباشرة وقد وُضع على كلّ منها غطاء من نسيج أخضر، تبعد أحدهما عنه مترًا أو مترين، أمّا الأخرى فأبعد من ذلك وأقرب إلى الباب. وأمّا هو فكان مشدود الوثاق بإحكام إلى مقعدٍ يجعله عاجزًا عن تحريك أي من أطرافه، فضلًا عن رأسه. كما كان ثمة ما يشبه الكماشة التي تمسك برأسه من الخلف وتحول بينه وبين الالتفات في أي اتجاه من الاتجاهات.

مضت لحظة غمره فيها شعور بالوحدة الخانقة، ثمّ فُتح الباب ليدلف منه «أوبراين»، الذي قال له:

- لقد سألتني ذات مرّة ماذا في الغرفة 101 وأجبتك بأنك بالفعل تعرف الجواب عن سؤالك، فما من أحد لا يعرف أنّ في هذه الغرفة أسوأ ما في العالم.

ثمّ فُتح الباب ثانية ليدلف منه حارس يحمل شيئًا مصنوعًا من الأسلاك، لعله صندوق أو سلة من نوعٍ ما. وضعه الحارس فوق الطاولة الأبعد عن «ونستون».

ولأنَّ «أوبراين» كان واقفًا أمامه فقد حجب عنه رؤية هذا الشيء أو التحقق منه. وقال «أوبراين»:



- إنَّ أسوأ شيء في العالم يختلف من شخص إلى شخص، فقد يكون لدى البعض هو الدفن حيًّا، أو الموت حرقًا أو غرقًا أو بواسطة الخازوق أو غير ذلك من ألوان الموت الشنيع، ومع ذلك تظلُّ هنالك حالات يكون فيها أسوأ ما في العالم لدى الشخص هو أشياء تافهة لا تفضي إلى الموت في أغلب الأحوال.

«ونستون» مشدود الوثاق على مقعد التعذيب

وتنحَّى «أوبراين» جانبًا كي يتمكن «ونستون» من رؤية أفضل لذلك الشيء الموجود فوق الطاولة، لقد كان قفصًا من الأسلاك مستطيل الشكل وله مقبض من أعلى يمكن حمله منه، وقد ثبت في مقدمته شيء بدا مثل قناع مبارزة. ومع أنَّه كان يبعد عنه مترًا أو مترين فقد استطاع «ونستون» أن يتبيَّن أنَّ القفص مُقسَّم طوليًا إلى قسمين، وفي كُلِّ قسم منهما جرد. وقال أوبراين:

- أتعلم أنَّ أسوأ شيء في العالم بالنسبة لحالتك هو الجردان؟

وسرعان ما سرى في جسد «ونستون» قشعريرة وتملَّكه خوف لم يعرف سببه بمجرَّد أن ألقى النظرة الأولى على القفص، ثمَّ لم يكد يفتن إلى ذلك الشيء الأشبه بقناع المبارزة والمثبت في مقدمة القفص حتى أحس بأنَّ قلبه يغوص بين ضلوعه وبأنَّ أحشاءه تتقطع.

فصرخ «ونستون» بصوت متحشرج:

- لا يمكنك أن تفعل ذلك بي! لا يمكنك ذلك! إنَّ هذا لمستحيل.

فقال «أوبراين»:

- هل تذكر نوبة الهلع التي كانت تتتابك أثناء أحلامك؟ حينما كان يترأى لك جدار من السواد وتسمع زئيراً في أذنيك، لقد كان هنالك شيء شنيع على الجانب الآخر من الجدار ولا بد أنك كنت تعلم ما هو هذا الشيء، ولكنك لم تجسر على الكشف عنه. إنها الجرذان، هي التي كانت على الجانب الآخر من الجدار.

قال «ونستون»، وهو يحاول جاهداً السيطرة على صوته:

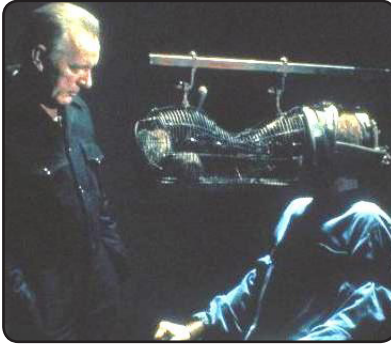
- أوبراين، لعلك تعلم أن ما من ضرورة تدعوك لذلك. ماذا تريد مني أن أفعل؟

لكن «أوبراين» لم يعطه جواباً مباشراً. وعندما تكلم كانت لهجته هي لهجة المعلم التي كان يتحدث بها أحياناً، ثمّ نظر أمامه متأملاً كما لو أنّه يخاطب جمهوراً يجلس خلف «ونستون». وقال:

- إنّ الألم وحده لا يكون دائماً علاجاً كافياً، فهناك حالات يمكن للإنسان أن يحتمل الألم فيها ولو أدى إلى الموت، بيد أن هناك شيئاً لا يمكن لأحد أن يحتمله بل لا يمكنه حتى التفكير فيه. إنه شيء تستوي فيه الشجاعة والجبن، فإذا كنت تسقط من ارتفاع شاهق فإنه ليس جُبناً أن تتعلّق بحبل، فهذا يتمّ بالغريزة ومن ثمّ لا يمكن قمعها. وهذا إنّما ينطبق على الجرذان فهي بالنسبة إليك أمرٌ لا يُحتمل، إنها نوع من الضغط الذي لا يمكنك احتماله حتى إن أردت ذلك. وحينئذ ستجد نفسك تفعل ما يُطلب منك.

فقال «ونستون»:

- ولكنك لم تقل لي ماذا تريد مني؟ كيف تريدني أن أفعل شيئاً لست أدري ما هو؟



«ونستون» في مواجهة قفص الجرذان

وحمل «أوبراين» القفص ووضعه على الطاولة الأقرب. كان بمقدور «ونستون» أن يسمع خريр الدّم وهو يقرقر أذنيه، وانتابه شعور بالوحدة قاتلة وخُيِّل إليه أنّه في قلب صحراء شاسعة قاحلة يغمرها ضوء الشمس وتتردّد في أرجائها أصدااء أصوات الجرذان، كُلّ

ذلك رغم أنّ قفص الجرذان لم يكن ليبعد عنه أكثر من مترين. لقد كانا جرذين ضخمين وفي عُمر تصبح فيه الجرذان شرسة. وقال «أوبراين» وكأنّه لا يزال يخاطب جمهوراً لا يُرى:

- إنّ الجرذان، ورغم أنّها من القوارض، هي من آكلات اللحوم أيضاً. عليك أن تضع ذلك نصب عينيك لا بدّ أنّك سمعت عن الأحداث المؤسفة التي تقع في الأحياء الفقيرة من هذه المدينة، ففي بعض الشوارع تخشى الأم أن تترك طفلها وحيداً في البيت ولو خمس دقائق؛ لأنّ الجرذان حتماً ستنتقض عليه وتحيله في غضون دقائق كومة من العظام، بل إنّها أيضاً تُهاجم المرضى ومَن يحتضرون على فراش الموت، وهي في ذلك تظهر ذكاءً مذهلاً في معرفة متى يكون الإنسان عاجزاً ولا يستطيع حتى الدفاع عن نفسه.

وحمل «أوبراين» القفص، ثمّ ضغط على شيء فيه فسمع «ونستون» طقطقة حادة، فراح يحاول بكلّ ما أوتي من قوّة أن يُحرّر نفسه من القيود التي تشدّه إلى المقعد ولكن دون جدوى. وقرب «أوبراين» القفص إلى «ونستون» حتى أصبح لا يبعد عنه أكثر من متر واحد. وقال «أوبراين»:

- لقد ضغطت على المزلاج الأول لعلك تفهم آلية عمل هذا القفص، إنَّ القناع سينطبق انطباقاً تاماً على رأسك ولن يترك لك أي مخرج، وعندما أضغط على المزلاج الثاني سينفتح باب القفص لينطلق منه هذان الوحشان الضاريان كطلفتين ناريتين، هل سبق أن رأيت جرذاً يقفز في الهواء؟ إنَّه سيقفز في وجهك ويبدأ في نهشه، وهو أحياناً ينقضُّ على العينين أولاً، لكنه أحياناً أخرى ينخر لنفسه أخاديد في الوجنتين ليلتهم اللسان أولاً.

وأصبح القفص أكثر قرباً من «ونستون»، وراح يسمع صرخات حادة متتابة بدا له أنَّ أصداها تتردَّد فوق رأسه، ولكنه قاوم مستميتاً بنوبة الهلع التي استولت عليه، وخلص إلى أنَّ التفكير والتفكير وحده، حتى لو لم يبق أمامه سوى جزء من الثانية، هو الأمل الوحيد. وفجأةً نفذت إلى أنفه هذه الرائحة العفنة اللتنة التي تنبعث من الجرذين فشعر باشمئزازٍ شديدٍ وكاد يفقد الوعي، وخيَّل إليه أنَّ مساً من الجنون قد أصابه فراح يصرخ كحيوانٍ يئن. ولكنه خرج من هذه الأجواء حالكة السواد وقد خطرت له فكرة مفادها أنَّ السبيل الوحيد لإنقاذ نفسه هو أن يأتي بشخصٍ آخر ويضعه حائلاً بينه وبين الجرذان.

واقترب القناع من وجه «ونستون» حتى بات يحجب عنه رؤية أي شيء آخر. وأصبح باب القفص لا يبعد عنه بأكثر من شبرين وكان الجرذان يعرفان ما هما مقدمان عليه، فبينما كان أحدهما يقفز في الهواء لأعلى وأسفل كان الآخر يقف ممسكاً بالقضبان وهو يتشمم الهواء بشيءٍ من الشراسة. كان بمقدور «ونستون» أن يرى الشعر الطويل للجرذين وأسنانهما الصفراء. وهنا عاد الرُّعب الأسود يهز أوصاله فغمر عليه كُلُّ شيء وتملَّكه شعور باليأس وجمود في التفكير.

وقال «أوبراين» بطريقة التعليم التي اعتادها:

- لقد كانت هذه العقوبة شائعة في إمبراطورية الصين القديمة.

واقترب القناع من وجهه حتى لامست الأسلاك وجنتيه. وهنا تبيّن له أنّ هناك أملاً ربما جاء بعد فوات الأوان، فقد أدرك فجأة أنّ العالم كُله ليس فيه شخص واحد يمكن أن يحيل عليه هذا العقاب، أو جسم واحد يمكنه أن يضعه كحائلٍ بينه وبين الجرذين، وعلى الفور راح يصرخ كالمجنون:

- افعّلوا ذلك بجوليا! افعّلوا ذلك بجوليا. ليس بي وإنما بجوليا، إنني لا أبالي، مزّقوا وجهها، انزعوا لحمها حتى تصبح كومة من العظام، ثمّ كسروا هذه العظام ولكن لا تفعلوا ذلك بي وإنما بجوليا.

وشعر وكأنّه يهوى إلى هوةٍ سحيقة بعيداً عن الجرذين، كان لا يزال مشدوداً إلى المقعد، لكنّه كان يشعر أنّه يسقط إلى أسفل، عبر الجدران، عبر المحيطات، عبر الأجواء العلّيا، ثمّ شعر أنّه يندفع عبر الفضاء الخارجي وعبر المسافات الفاصلة بين النجوم بعيداً بعيداً عن الجرذين حتى بات يفصله عنهما بضع سنوات ضوئية.

بيد أنّ «أوبراين» كان لا يزال واقفاً بجانبه، وما زال يحس بالأسلاك الباردة تلامس وجنتيه، ووسط هذه الظلمة الحالكة التي أحاطت به سمع طقة معدنية أخرى لكنّها هذه المرّة كانت لإغلاق باب القفص لا فتحه.

* * * *

لا بأس.. فقد انتهى النضال!

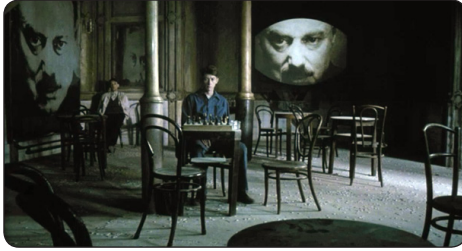
All right.. the struggle is over!

كان مقهى شجرة الكستناء خاليًا تقريبًا من مرتاديه، وكانت أشعة الشمس المائلة تخترق نوافذه وتسقط على أسطح الطاولات التي يغطيها الغبار بينما تُشير الساعة إلى الثالثة ظهرًا وهي ساعة الاستراحة الوحيدة في هذه الفترة، أمّا «شاشة الرصد» فراحت تبث مقطوعات موسيقية خفيفة.

جلس «ونستون» في زاويته المعتادة وهو يُحملق في كأس فارغة. وكان من حينٍ لآخر يلقي نظرة خاطفة على الوجه الضخم الذي ينظر إليه نظرة ثاقبة من الجدار المقابل، وكانت العبارة المعهودة التي تحت الصورة تقول: «الأخ الكبير يراقبك». وجاء الساقى دون أن يطلبه أحد وأترع كأس «ونستون» بشراب جن النصر وأضاف إليها قطرات من قنينة أخرى كانت تحتوي على سكرين منكّه برائحة القرنفل وتلك كانت ميزة المقهى.

وكان «ونستون» يصغى إلى «شاشة الرصد» التي كانت لا تزال تبث مقطوعة موسيقية خفيفة، بيد أنّه كان من المحتمل أن تتحوّل في أي لحظة إلى بث النشرة الخاصّة التي تصدرها وزارة السّلام. فقد كانت الأنباء الواردة من الجبهة الإفريقية أنباء مُثقلّة وكانت تشغل بال «ونستون» ليل نهار، فالجيش الأوراسي (كانت أوقيانيا في حالة حرب مع أوراسيا في ذلك الوقت بل لقد كانت دائماً في حرب معها) يزحف جنوبًا بسرعة مذهلة. وإن كانت النشرة لم تُحدّد منطقة بعينها، فإن الأرجح أنّ مصب نهر الكونغو كان هو مسرح العمليات، ولذلك كانت «برازفيل»، و«ليوبولدفيل» في خطر، ولم

يكن المرء بحاجةٍ إلى مطالعة الخريطة حتى يُدرك الخطر الذي ينطوي على ذلك التطوُّر. لم يكن الأمر يقتصر على فقدان مستعمرات إفريقيا الوسطى فحسب، بل إن «أوقيانيا» نفسها، وللمرة الأولى منذ أن دارت رحى الحرب، قد أصبحت مُهدَّدة



شاشات الرصد في مقهى الكستناء

وقد أثارت هذه الأنباء عاطفة متقدمة في «ونستون»، لم تكن بالطبع الخوف وإنَّما نوع من الاستشارة اللامبالية التي سرعان

ما تبدَّدت. لكن «ونستون» توقف عن التفكير في الحرب، إذ لم يعد بمقدوره في هذه الأيام أن يركز ذهنه على الموضوع الواحد لأكثر من لحظات معدودة في كُلِّ مرَّةٍ، فرفع الكأس وتجرع كُلِّ ما فيها جرعة واحدة، وكعادته دائماً بعد الشراب كانت تتباه رعدة خفيفة ويتقيأ قليلاً، فقد كان شراب الجن هذا من النوع القوي الذي لم يستطع السكرين والقرنفل أن يلطفا من رائحته القويَّة، بل الأنكى أنَّ هذه الرائحة التي ترافقه ليل نهار كانت ممتزجة في ذهنه برائحة هؤلاء....

لكنه لم يكن يجرؤ على التلَفُّظ باسمهم أو حتى تسميتهم في ذهنه، بل لم يحاول أن يتصوَّره في مخيلته أبداً. كانوا شيئاً غائماً يحوم حول وجهه وتنفذ رائحته إلى أنفه، ومع تغلُّل الشراب في كُلِّ أجزاء جسمه راح «ونستون» يتجشأ من شفتيه الأرجوانيتين. كان جسمه قد ازداد امتلاء منذ أن أطلقوا سراحه، كما أنَّه كان قد استعاد لون بشرته القديم. جاءه الساقى مرَّة ثانية ودون أن يطلبه أحد، وهو يحمل رقعة الشطرنج والعدد الأخير من

صحيفة «التايمز». وقد فُتحت على صفحة مسائل الشطرنج، وما إن رأى الساقى كأس «ونستون» فارغة حتى ذهب فأحضر القنينة ثُمَّ أترع له كأسه، لم يكن الساقى بحاجة إلى انتظار أوامر «ونستون» لأنَّه كان قد عرف عاداته، فرقعة الشطرنج في انتظاره دائماً والطاولة في زاوية المقهى كانت محجوزة له، وحتى حين كان المقهى يمتلئ بالرواد فإنَّه كان يجلس إليها بمفرده لأنَّه ما من أحد كان يرغب في مشاطرته طاولته.

ولم يكن «ونستون» يبالى بعدد الكؤوس التي يحتسيها، وإن كان مسؤولو المقهى يقدمون له بين الحين والآخر قصاصة ورق قدرة يقولون إنَّها فاتورة الحساب، وكان يدفعها وهو يعتقد دائماً أنَّهم يتساهلون معه في فاتورة حسابه، غير أنَّه لم يكن ليبالى حتى لو غالوا فيها، إذ كان المال لديه وفيراً في هذه الأيام حيث كان يشغل وظيفة فخرية (شرفية) تدر عليه دخلاً أكبر بكثير ممَّا كان يتقاضاه لقاء وظيفته القديمة.

توقفت الموسيقى التي كانت تبثها «شاشة الرصد» وحلَّ محلُّها صوت اشرباب «ونستون» ليصغى له، لكن لم يكن ثمة أنباء من الجبهة، لقد كان مُجرَّد بيان من وزارة الوفرة جاء فيه أنَّ الخطة الثلاثية العاشرة قد حقَّقت فائضاً في نصيب الفرد من أرْبطة الأحذية بنسبة 98 ٪.

وراح «ونستون» يُفكِّر في حلِّ مسألة الشطرنج ثُمَّ صفَّ القطع وبدأ يُحرِّكها، لقد كانت نهاية خادعة فيما يتعلَّق بالفرسين: الأبيض يتحرَّك فيميت الشاة بحركتين. نظر «ونستون» متأمِّلاً في صورة «الأخ الكبير»، وقال في نفسه وقد تملَّكته نزعة تأملية: «إنَّ الأبيض دائماً يتتصر، إنَّه يتتصر دائماً ودون استثناء وكانَّ ذلك مُعدُّ سلفاً. بل لم يحدث أبداً في تاريخ اللعبة أنَّ فاز الأسود. ألا يرمز هذا لانتصار قوَّى الخير دائماً على قوى الشر».

وتوقَّف الصوت الصادر من «شاشة الرصد» لحظة ثمَّ قال بنبرةٍ مختلفةٍ وأكثر جديةً:

- نُحيطكم علمًا أننا سنذيع نبأً مهمًّا في تمام الثالثة والنصف. إنه نبأ في غاية الأهمية، فاحرصوا ألا يفوتكم سماعه، لا تنسوا الثالثة والنصف. ثمَّ عادت الشاشة لبث الموسيقى مرَّة ثانية.

وخفق قلب «ونستون»، إنَّ ذلك تنويه بالبلاغ القادم من الجبهة، واستشعر بغريزته أنَّ الأنباء القادمة لن تكون سارة، ولم يكن هاجس الهزيمة النكراء التي يمني بها جيش «أوقيانيا» في إفريقيا قد غاب عن ذهنه لحظة واحدة، بل خيَّل إليه أنَّه يرى جيش «أوراسيا» وهو يجتاح حدود «أوقيانيا» المنيعة بأعدادٍ هائلةٍ متراصَّةٍ كالنمل ويزحف متوغلاً داخل إفريقيا. وتساءل: لماذا لم يكن يمكن تطويق هذا الجيش بطريقةٍ أو بأخرى؟ كان الساحل الغربي الأفريقي واضحًا في ذهنه، وأمسك بالفرس الأبيض وحركه عبر الرقعة، تلك هي النقطة المناسبة. وحتى حينما كان يرى الجحافل السوداء ترحف جنوبًا كان يرى قوى أخرى تتجمَّع على نحوٍ غامض وتباغت هذه الجحافل بالانقضاض على مؤخرتها فتقطع خطوط مواصلاتها برًّا وبحرًا. وشعر بأنَّ مُجرَّد رغبته في حدوث ذلك يمكن أن يأتي بهذه القوة إلى عالم الوجود. ولكن يجب على هذه القوة أن تتحرَّك سريعًا، فلو استطاع جيش «أوراسيا» أن يستولي على إفريقيا برمتها وإذا أصبح لديه مطارات وغواصات في رأس الرجاء الصالح، فإنَّ ذلك سيمكِّنه من تقطيع أوصال «أوقيانيا»، ولربما أدى ذلك إلى اندحار «أوقيانيا» اندحارًا نهائيًّا وإعادة ترسيم خريطة العالم والقضاء على الحزب. وأخذ نفسًا عميقًا وقد انتابه خليط من المشاعر الغريبة أو بالأحرى طبقات من المشاعر بعضها فوق بعض بحيث لا يمكن للمرء أن يُحدِّد أيها فوق وأيها تحت، لكنها كانت تتصارع داخله.

وبعد أن زالت عنه هذه النوبة، أعاد الفرس الأبيض إلى مكانه، لكنه لم يعد قادرًا على التركيز في الشطرنج ، فقد هامت به أفكاره مرّة أخرى ووجد نفسه ودون أن يشعر يخط بأصبعه على الطاولة التي يعتليها الغبار:

$$= 2+2$$

لقد قالت له «جوليا» ذات مرّة:

- إنَّهم لا يستطيعون التغلغل إلى كيائك.

لكن «أوبراين» قال له:

- إنَّ ما يحدث لك هنا سيلازمك إلى الأبد، وهذا هو القول الصحيح، فما يقترفه المرء من أفعال، وما يحدث له من خطوب تظلّ ملازمة له ولا يمكنه التخلص من آثارها، إنَّ شيئًا قد قُتل داخلك وأُحرق ثُمَّ عُولج موضعه بالكي.

ولقد رأى «جوليا»، بل وتكلم معها بعد أن أطلق سراحه، فلم يعد ذلك ينطوي على خطورة، فقد أدرك بغريزته أنَّهم لم يعودوا يعيرون أفعاله اهتمامًا ولذلك كان بوسعه أن يرتب للقاء ثانٍ يجمع بينهما فيما لو شاء أحدهما أو كلاهما ذلك. فلقاؤهما الأوّل جاء بمحض الصدفة والذي كان في الحقيقة في يوم من أيام شهر مارس (آذار) شديدة البرودة حيث كانت الأرض صلبة كالحديد، وأمّا الحشائش فكانت شبه ميتة ولم يكن هناك سوى القليل من براعم الزعفران التي تنتصب في العراء فتفتتها الريح. وكان «ونستون» يُسرّع الخطى وقد تجعّدت يداه ودمعت عيناه من شدّة الريح عندما رآها على مسافة عشرة أمتار، هاله أنَّها تعيَّرت على نحو غير مُحدّد، ومرَّ كُلُّ منهما بالآخر دونما حتى إشارة، لكنه استدار وتبعها لأنّه كان يعرف أن لا خطر في ذلك، وما من أحد عاد يهتم بهما. لكنّها ظلت صامته وتابعت سيرها عبر الحشائش من دون أن تعيره اهتمامًا، ثُمَّ بدت بعدئذ وكأنّها تبطّئ من خطوها حتى تتيح له اللحاق بها وكانا قد بلغا آنذاك مجموعة من الأشجار العارية

التي لم تكن تصلح للاختفاء أو الاحتماء بها من الريح، وأخيرًا توقفاً، وكان الجو قارص البرودة والريح تُحدثُ حفيفاً بين الأغصان وتمزق البراعم الصغيرة، فاقترب منها «ونستون» وأحاط خصرها بذراعه.

لم يكن ثمة «شاشات رصد»، بيد أنه كان من المؤكّد وجود مكبرات صوت مخبأة كما كان من السهولة أن يراها أحد المارة ولكنه لم يكن يُعير أيّاً من ذلك أدنى اعتبار، فقد كان في استطاعتهما أن يتخذا من الأرض فراشاً إذا رغبا أن يعاودا اتصالهما الجنسي، واقشعر جسده عندما خطر بباله ذلك الشيء. لكن «جوليا» لم تتجاوب معه حين أحاط خصرها بذراعه كما أنّها لم تحاول تخليص نفسها منه وحيثُ أدرك طبيعة التغيّر الذي طرأ عليها، كان وجهها قد أصبح أكثر شحوباً وظهرت به ندبة طولية أسدلت شعرها على جزءٍ منها، بيد أن ذلك لم يكن هو ما تغيّر فيها، فقد أصبح خصرها أكثر امتلاءً وتيبساً.

وعلي الفور تذكر كيف أنّه عقب إحدى غارات القصف الصاروخي كان قد ساعد في انتشار إحدى الجثث من تحت الأنقاض وهاله ثقلها وتيبسها غير الطبيعيين وهو الأمر الذي جعلها تبدو أقرب للحجر منها للحم.

وأحسّ «ونستون» بأنّ جسم «جوليا» الذي يطوقه بذراعه قد أصبح أشبه بتلك الجثة، كما شعر بأنّ نسيج جلدها قد بات مختلفاً كلياً عمّا كان عليه من قبل. لم يحاول «ونستون» تقييلها، كما لم ينبس أحدهما بكلمة. وعندما عاودا السير فوق العشب الأخضر نظرت إليه مباشرة لأوّل مرّة، وكانت نظرة ملؤها الازدراء والكراهية. لكن «ونستون» لم يكن يدري هل كانت هذه الكراهية نابعة ممّا تنوء به من ذكريات الماضي أو كان مبعثها هو وجهه المنتفخ وعينه الدامعتان بسبب الريح الباردة. وجلسا على مقعدين حديديين، جنباً إلى جنبٍ لكن دون أن يقترب أحدهما من الآخر، وكانت

كُلَّمَا هَمَّتْ بِالْكَلَامِ تَرَا جَعْتَ وَسَحَقْتَ، بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، بِقَدَمِهَا غَصْنَا يَابَسًا.
وَقَالَتْ غَيْرَ مَكْتَرِثَةٍ:

- لَقَدْ خَشَتُكَ!

فَقَالَ لَهَا:

- وَأَنَا أَيْضًا خَشَتُكَ!

وَرَمَقَتْهُ بِنَظَرَةٍ أُخْرَى مَفْعَمَةً بِالْكَرَاهِيَةِ، ثُمَّ قَالَتْ:

- إِنَّهُمْ يَهْدِدُونَكَ أَحْيَانًا بِشَيْءٍ لَا يُمْكِنُ احْتِمَالُهُ وَلَا يُمْكِنُ حَتَّى تَخِيْلُهُ.
وَحِينَئِذٍ تَقُولُ: لَا تَفْعَلُوا بِي، بَلْ أَفْعَلُوهُ بِأَيِّ شَخْصٍ آخَرَ، وَقَدْ تَدَّعَى فِيمَا
بَعْدَ بَأْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ كَانَ مُجَرَّدَ حِيلَةٍ لَجْعَلَهُمْ يَكْفُونَ عَنْ تَعْذِيبِكَ وَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
تَعْنِي مَا تَقُولُ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ. لَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا، فَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ
كَنتَ تَعْنِي مَا تَقُولُ، وَكَنتَ تَظُنُّ أَنَّه لَا نَجَاةَ لَكَ إِلَّا بِهَذَا السَّبِيلِ، وَكَنتَ عَلَى
اسْتِعْدَادٍ لِسُلُوكِهِ مَا دَامَتْ نَجَاتُكَ فِيهِ، وَلَا تَأْبَهُ بِمَا سَيَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ
مُعَانَاةٍ لِغَيْرِكَ. فَكُلُّ مَا يَهْمُكَ هُوَ نَفْسُكَ وَحَسَبُ!

فَقَالَ مُرَدَّدًا وَرَاءَهَا كَرَجَ الصَّدَى:

- كُلُّ مَا يَهْمُكَ هُوَ نَفْسُكَ وَحَسَبُ!

وَمَضَتْ «جُولِيَا» تَقُولُ:

- وَبَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّكَ لَا تَعُودُ تَشْعُرُ الْمَشَاعِرَ نَفْسَهَا، الَّتِي كُنتَ تَكُنُّهَا مِنْ قَبْلِ
لِهَذَا الشَّخْصِ الْآخَرِ.

فَقَالَ مُرَدَّدًا كَرَجَ الصَّوْتِ:

- إِنَّكَ لَا تَعُودُ تَشْعُرُ الْمَشَاعِرَ نَفْسَهَا!

وبدا لهما أنه لم يعد لديهما ما يمكن الكلام عنه. وعادت الريح تعصف بهما، وشعرا بالضيق من جلوسهما صامتتين، فضلاً عن أن جلوسهما دون حراك كاد يُجمّد أطرافهما من فرط البرد، ولذلك نهضت «جوليا» لتصرف مُتعلّلة بأنّها تُريد اللحاق بالقطار.

فقال «ونستون»:

- يجب أن نلتقي ثانيةً.

فقالت:

- أجل، يجب أن نلتقي ثانيةً.

وتبعها متردّداً وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وسار في أثرها مسافة قليلة، لكنهما لم يتبادلا الحديث مرّة أخرى، ومع أنّها لم تحاول التخلّص منه فإنّها أسرعرت الخطى حتى لا تمكنه من السير إلى جانبها وكان قد عقد العزم على مرافقتها حتى تصل إلى محطة القطار، ولكن بدا له أنّ هذا التعقّب وسط هذا البرد القارص أمرٌ فيه رعونة وغير محتمل. وعندئذ تملّكته رغبة عارمة في الكفّ عن متابعة «جوليا» والعودة على مقهى شجرة الكستناء الذي لم يسبق أنّ شعر نحوه بمثل الانجذاب الذي شعره في تلك اللّحظة، لقد أحس بالحنين إلى طاولته التي في الزاوية وفوقها الصحيفة ورقعة الشطرنج وكأس الجن المترعة دائماً، وسرعان ما تلكأ في سيره حتى حال بينه وبينها مجموعة من المارة غير أنّه عاد وبذل محاولة مُتردّدة للحاق بها مرّة أخرى لكنه عدل عن ذلك وارتدّ منطلقاً في الاتجاه المعاكس. وبعد أن صار يفصله عنها خمسون متراً تطلّع خلفه فوجد أنّه لم يعد يُميّزها من المارة رغم أنّ الشارع لم يكن مزدحماً، وأصبح من المحتمل أن تكون هي أي واحدة من عشرات السائرين في الشارع، حيث بات يتعذر عليه تمييزها من الخلف بعد أن غدا جسمها أكثر امتلاءً وتيبّساً. وتذكّر قولها: «حينما كانوا يعذبونك كنت تعني

ما تقول»، ورأى أنها أصابت القول، فهو لم يكتفِ بقوله ذلك وحسب وإنما تمنى حدوثة أيضاً، فقد تمنى لو أنها هي لا هو التي عُرضت للجرذان.

وكان قد دلف إلى المقهى في تلك اللحظة وأخذ مقعده المعهود وراح يصغى إلى «شاشة الرصد» حيث كان ثمة تغيير قد طرأ على الموسيقى التي تبثها تمثل في نغمة كريهة هازئة بدأت تتخللها، ثم سمع صوتاً يشدو:

«تحت شجرة الكستناء ذات الأغصان الوارفة

بعتك وبعتي!!

واغرورت عيناه بالدموع ولاحظ الساقى أن كأسه فارغة فرجع له بقينة الجن. رفع «ونستون» كأسه وراح يفرغها في جوفه، وكانت رائحتها الكريهة تزداد سوءاً مع كل جرعة ولكنها كانت سلواه الوحيدة، فقد باتت هي حياته ومماته.



ظلت «شاشة الرصد» صامتة للحظة فأرهف «ونستون» السمع لعله يكون في ذلك إشارة إلى قرب موعد نشرة الأنباء، ولكن خاب رجاءه، فقد كان ذلك تغييراً للموسيقى، وتراءت أمام ناظريه خريطة إفريقيا، وكانت تحركات الجيوش عليها تأخذ أشكالاً هندسية، فهناك سهم أسود ينطلق رأسياً إلى الجنوب،

وآخر أبيض ينطلق أفقياً إلى الشرق "ونستون" في المقهى يُحرك قطع الشطرنج ويقطع مؤخرة السهم الأول. وكأما

أراد «ونستون» أن يثبت في نفسه شيئاً من الطمأنينة، فرفع رأسه وتطلع إلى

الوجه رابط الجأش الذي بالصورة، ومضى يتساءل: هل من المعقول ألا يكون للسهم الثاني وجود على الإطلاق؟

وفجأةً ومن دون أي مبرر جاشت الذكرى في ذهنه مرّةً أخرى، فرأى غرفة مضاءة بالشموع وفيها سرير ضخم، بينما كان هو في سن التاسعة أو العاشرة يجلس على الأرض ويلعب بحجر النرد ويضحك ضحكاً هستيرياً فيما أمّه تجلس قبالة وتضحك هي الأخرى.

لابدّ أنّ ذلك كان قد وقع قبل أن تختفي أمّه بشهرٍ واحدٍ، إنّه يذكر ذلك اليوم جيداً، لقد كان يوماً عاصفًا ممطرًا حيث كان الماء يجري فوق زجاج النافذة من الخارج، بينما كان الضوء داخل الغرفة خافتًا بحيث تتعذر القراءة، فراح «ونستون» يتأوّه ويتنحب وهو يُطالب بالطعام دون جدوى. ثمّ أخذ يدور في الغرفة وهو يركل أسفل الحائط بقدميه حتى ضج الجيران واحتجوا على ذلك الصخب، بينما انخرطت أخته الصغيرة في البكاء على نحوٍ متقطع. وأخيرًا نطقت أمّه: «كن لطيفًا وسأشتري لك لعبة جميلة ستحبّها»، وعندئذ خرجت من المنزل تحت زخات المطر ومضت إلى حانوت صغير كان لا يزال مفتوحًا بالقرب منهم، ثمّ عادت إليه بعلبةٍ من الكرتون تحتوي على أدوات لعبة الشلّم والثعبان. وهو لا يزال يذكر رائحة الكرتون الرطب التي صُنعت منه اللعبة. نظر «ونستون» إلى اللعبة نظرة عابسة وبلا أدنى اهتمام، وعندئذ أضاءت أمّه شمعة وجلسا على الأرض وراحا يلعبان.

وسرعان ما انخرط «ونستون» في ضحكٍ صاخبٍ حينما رأى الثعبان يتسلّق الشلّم حتى يسقط ثمّ يُعيد الكرة ثانيةً وهكذا دواليك. وقد لعبا ثمانية أشواط فاز كلّ منهما بأربعة. وأمّا أخته الصغيرة فقد جلست تُحدق في الوسادة وراحت تضحك، ليس لأنّها تفهم ما يجري أمامها وإنّما لأنّ أمّها وأخاها يضحكان.

ولكن «ونستون» أقصى هذه الذكرى عن ذهنه لأنها كانت ذكرى زائفة من تلك الذكريات التي تقضى مضجعه بين الحين والآخر، فبعضها يتعلّق بأشياء وقعت والبعض الآخر يتعلّق بأشياء لم تقع على الإطلاق. ثمّ التفت إلى قطعة الشطرنج والتقط الفرس الأبيض ولكنه لم يكدفعل حتى سقط الفرس من يده مُحدثاً صوتاً عالياً، أمّا هو فقد انتفض كما لو أنّ دبوساً قد غُرز في لحمه.

وشق نفير بوق عنان السماء، لقد جاءت النشرة أخيراً. إنّه النصر، فقد كان نفير البوق يعني حينما يسبق الأنباء أنّ نصراً تحقّق أو سرى ما يشبه الصدمة الكهربائية في جميع رواد المقهى، حتى السقا تسمروا في أماكنهم وأصاخوا السمع.

كان نفير البوق قد أعقبه جلبة وضجيج من الحضور، كما كان ثمة صوت يدوي من «شاشة الرصد»، لكن الأصوات الهادرة التي انبعثت من الحناجر طغت عليه. وسرت الأنباء بين الناس من شارع إلى شارع سريان النار في الهشيم، ومع ذلك تناهت إلى سمع «ونستون» بعض العبارات التي تحقّق من خلالها أن الأمور قد سارت تماماً على النحو الذي تصوّره، فقد عرف أنّ أسطولاً ضخماً تمّ حشده في سرية تامة قد أصاب مؤخرة العدو إصابة قاتلة، لقد قطع السهم الأبيض مؤخرة السهم الأسود. واستطاع «ونستون» أن يلتقط بعض العبارات من هذا الضجيج:

كانت مناورة إستراتيجية بارعة.

- اندحار تام للعدو.

- نصف مليون أسير.

- بسط السيطرة على كامل إفريقيا.

- إنّه أعظم نصر في تاريخ البشرية.

وبدأت قدما «ونستون» تقومان بحركات لا إرادية، مع أنّه لم يقيم من مقعده إلا أن عقله كان يركض ويركض بسرعة، لقد تخيل نفسه يركض في

الخارج مع الجماهير التي كان هتافها يصم الآذان، وتطلع «ونستون» مرّة أخرى إلى صورة «الأخ الكبير» الذي كان يقف كالطود الشامخ والعالم تحت قدميه. إنّه الصخرة التي ارتطمت بها الجحافل الزاحفة من آسيا فخارت قواها. وراح «ونستون» يُفكّر كيف أنّه منذ عشر دقائق فقط، كان قلبه لا يزال حائرًا حول ما إذا كانت أنباء الجبهة ستأتي بالنصر أم بالهزيمة. لقد تغيّر كثيرًا منذ اليوم الأوّل الذي وطأت قدماء وزارة الحُب، ومع ذلك فإنّ التغيّر النهائي الذي لا مناص منه لم يتحقّق حتى هذه اللحظة.

كان الصوت الهادر من «شاشة الرصد» لا يزال يروي قصّة الأسرى والغنائم والمذابح، ولكن كان الهتاف الذي في الخارج قد هدأت حدته، وبدأ السقاة يعودون إلى أعمالهم. واتجه أحدهم صوب «ونستون» وملاً له كأسه، لكن «ونستون» لم ينتبه لذلك فقد كان يُحلق في سماء حُلُم بهيج، لم يكن يركض مع الراكضين أو يهتف مع الهاتفين، وإنّما عاد فيه إلى وزارة الحُب وقد غفروا له ما تقدّم من ذنب، وصفت روحه حتى أصبحت كالثلج الأبيض. ثمّ تصوّر نفسه ماثلاً في فُصّ الاتهام أمام الجماهير وهو يعترف بكلّ صغيرة وكبيرة ويشي بكلّ شخص يعرفه. وسرعان ما رأى نفسه يجتاز الممرّ المكسو بالقرميد الأبيض، ويتملّكه شعور بأنّه يسير في ضوء الشمس فيما كان يسير حارس مسلح خلفه، وحينئذ جاءته تلك الرصاصة، الأمل الذي طال انتظاره، لتمزق دماغه.

حدّق «ونستون» في الوجه الضخم، لقد استغرق الأمر منه أربعين سنة حتى فهم معنى الابتسامة التي كان يخفيها «الأخ الكبير» تحت شاربيه الأسودين، وقال في نفسه: «أي غشاوة قاسية لم يكن لها داع تلك التي رانت على فهمي، وعلام كان العناد والتّأي من جانبي عن هذا الصدر الحنون». وانسالت دمعتان سحيتان على جانبي أنفه. وكأنّ لسان حاله يقول: «لكن لا بأس، لا بأس فقد انتهى النضال، وما قد انتصرت على نفسي وصرْتُ أحبّ «الأخ الكبير»!!

الفهرس

مسلسل	الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة		3
تمهيد		5
الجزء الأول		
الفصل الأول:	دقيقتان من الكراهية	29
الفصل الثاني:	جواسيس من الأطفال الصغار	49
الفصل الثالث:	في مكان يغمره النور	55
الفصل الرابع:	حُلم الريف الذهبي	61
الفصل الخامس:	رسائل للتزييف	69
الفصل السادس:	روعة تدمير الكلمات	79
الفصل السابع:	شهوات مكبوتة	95
الفصل الثامن:	صورة الأخ الكبير	101
الفصل التاسع:	في رحلة البحث عن الحقيقة	111
الجزء الثاني		
الفصل الأول:	الفتاة ذات الشعر الأسود	127
الفصل الثاني:	بين العشب والزهور المتساقطة	137

151	نحن لم نمت بعد	الفصل الثالث:
163	لحظات من السعادة المغتصبة	الفصل الرابع:
175	النجاة من الجنون	الفصل الخامس:
183	شيء ما سيحدث	الفصل السادس:
187	أحلام ممتزجة بالألم والخيبة	الفصل السابع:
195	تنظيم الإخوة	الفصل الثامن:
209	شاشة الرصد، وشرطة الفكر... معًا	الفصل التاسع:
223	الجزء الثالث	
225	الخدعة، والطريق إلى المجهول	الفصل الأول:
239	غسيل الدماغ	الفصل الثاني:
267	متى يطلقون رصاصة الرحمة؟	الفصل الثالث:
279	إلى الغرفة 101	الفصل الرابع:
283	القفص الرهيب	الفصل الخامس:
289	لا بأس.. فقد انتهى النضال	الفصل السادس:

مُعد ومُقدم الرواية

• وفيق صفوت مختار

- حاصل على ليسانس الآداب والتربية، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.
- حاصل على الدبلومة الخاصّة في التربية وعلم النفس، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.
- عمل مُحرّرًا صحافيًا بمجلة «هو وهي»، ومجلة «دُبي الثقافية».
- فاز بجائزة الشيخ «عبد المبارك الصباح» للإبداع العلمي عن نتاجه- «المُخدرات وأثرها المُدمّر»، عن دار «سعاد الصباح» بدولة الكويت.
- سجل للتلفزيون المصري العديد من الحلقات في عدة برامج.
- تناولت جريدة الأهرام القاهرية كتابات المؤلّف بالعرض والتحليل في باب «المرأة والطفل».
- تُرجمت بعض مقالاته إلى اللغة الإنجليزية.
- الكتب التي صدرت للمؤلّف:
- 1- مشكلات الأطفال السلوكية، القاهرة: دار العلم والثقافة، 1999م.
- 2- أبناؤنا وصحّتهم النفسيّة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2001م.
- 3- المدرسة والمجتمع والتوافق النفسي للطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2003م.
- 4- سيكولوجية الأطفال ضعاف العقول، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 5- سيكولوجية الأطفال الموهوبين، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 6- الأسرة وأساليب تربية الطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 7- مشكلة تعاطي المواد النفسيّة المخدرة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 8- سيكولوجية الطفولة، القاهرة: دار غريب، 2005م.
- 9- بستان المعرفة، القاهرة: دار موناليزا، 2007م.
- 10- كتب ومكتبات الأطفال وتنمية الميول القرائية، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.
- 11- فن رعاية الطفل في البيت والمدرسة، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.
- 12- سيكولوجية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، القاهرة: دار غريب، 2010م.

- 13 - وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشباب، القاهرة: دار غريب، 2010م.
- 14 - تأخر الكلام عند الأطفال، القاهرة: دار البطوسي، 2010م.
- 15 - النمو الحركي للطفل وأهم الأنشطة الترويحية والمدرسية، القاهرة: دار الطلائع، 2011م.
- 16 - الصحة النفسية وأساليب تنشئة الطفل... أسريًا، وتربويًا، ومجتمعيًا، القاهرة: دار الطلائع، 2012م.
- 17 - الموسوعة الأدبية الكبرى: أشهر المبدعات في التاريخ العالمي، القاهرة: دار الطلائع، 2013م.
- 18- الطفل الموهوب، طرق اكتشافه، وأساليب رعايته، القاهرة: دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.
- 19- إشباع الحاجات الأساسية للأطفال: الجسميّة، والعقليّة، والنفسيّة، القاهرة: دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.
- 20- الاكتئاب مرض العصر: كشف أسرارهِ، ومعرفة أسبابهِ، وإستراتيجيات الوقاية والعلاج، القاهرة: دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.
- 21- كيف تتخلص من القلق وتبدأ الحياة من جديد، القاهرة، دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.
- 22- أحذب نوتردام رواية للأديب «فيكتور هوجو»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 23- أنا كارنينا رواية للأديب «ليو تولستوي»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 24- ذهب مع الريح رواية للأديبة «مارجريت ميتشل»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 25 - كوخ العم توم رواية للأديبة «هاريت بيتشر ستو»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.
- 26- الآمال العظيمة رواية للأديب «تشارلز ديكنز»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.

• للتواصل مع المؤلّف:

هاتف منزل: 093 /4774608

هاتف محمول: 01063549339

E-mail: wafeek.safwat2016@gmail.com